



المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة التعليم عن بعد
كلية الشريعة - الانتساب المطور

(قرأ ٤٠٣)

مقرر النفسير

المستوى السابع

أستاذ المقرر

د / إبراهيم الدوسري

(المذكرات تم تفريغها سماعاً من المحاضرات الصوتية)

إعداد طلاب وطالبات كلية الشريعة

انتساب مطور

طبعة منقحة و مزيده

١٤٣٣ هـ

(كتب الله أجر كل من عمل على إعدادها وجعلها له صدقة جارية)

﴿ تقديم ﴾

هذه هي الطبعة النهائية لمذكرات كلية الشريعة انتساب مطور تعليم عن بعد
وقد اعتمدت بتوفيق من الله بعد أن تم تدقيقها أكثر من مرة
من قبل طلاب وطالبات كلية الشريعة انتساب مطور

ولأنها جهد بشري لا يخلو من الخطأ ولا يصل للكمال
فنرجو عند وجود خطأ أو ملاحظة

كتابة تنبيه في الموضوع المخصص لذلك في منتدى المستوى الخاص بالمذكرة
في منتدى مكتبة كلية الشريعة: www.imam8.com

وسوف يتم تصحيح الأخطاء بعد التنبيه عليها من قبل القائمين على إعداد المذكرات

ونسأل الله جزيل الشواب لكل من يعين على ذلك ويشاركنا فيه

(مجموعة إعداد مذكرات كلية الشريعة انتساب مطور)

مفردات المقرر.

يدرس فيه تفسير الآيات الآتية:

من سورة الأنبياء:

من قوله تعالى: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكَمَانِ فِي الْحَرْثِ...} إلى قوله تعالى: {فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ} الآيات من ٧٨-٨٠

من سورة الحج:

- 1- من قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} إلى قوله تعالى: {وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} الآيات من ٢٥-٤١.
- 2- من قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى} إلى قوله تعالى: {أَوْ يَأْتِيهِمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ} الآيات من ٥٢-٥٥.
- 3- من قوله تعالى: {ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ} آية واحدة ٦٠.
- 4- من قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا} إلى آخر السورة، الآيتان ٧٧-٨٧.

من سورة النور:

من قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ} إلى آخر سورة النور الآيات من ١١-٦٤.

من سورة الروم:

من قوله تعالى: {قَالَتْ ذَا الْقُرْبَى حَقُّهُ} إلى قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} الآيات من ٣٨-٣٩.

من سورة الأحزاب:

- 1- من قوله تعالى: {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} إلى قوله تعالى: {كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} الآيات من ٤-٦.
- 2- من قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ} إلى قوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} الآيات من ٢٨-٤٠.
- 3- من قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ} إلى قوله تعالى: {وَلَنْ نَجِدَ لِسَنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا} الآيات من ٥٠-٦٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الأستاذ إبراهيم الدوسري

بسم الله، والحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن نبينا محمد عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، وسلم تسليماً كثيراً، ربنا آمنا بما أنزلت، واتبعنا الرسول؛ فكتبنا مع الشاهدين، اللهم انشر علينا رحمتك، واهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم، وأسأل الله تبارك وتعالى أن يصلي على محمد وعلى آل محمد؛ كما صلى على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنه حميد مجيد، وأتوجه إلى الله عز وجل بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، أن يباعد بيننا وبين خطايانا؛ كما باعد بين المشرق والمغرب، وأن ينور بصائرنا، وأن يفقهنا في الدين، وأن يعلمنا الحكمة والتأويل.

بعون الله تعالى سندرس في هذه المادة عدداً من آيات القرآن الكريم، وهي في سور الأنبياء والحج والنور والأحزاب - بعون الله تعالى -، وأود أن أنبه إلى بعض الأمور التي نحتاج إليها في مطلع هذه المحاضرة، فيما يخص الدروس عامة، وهي:

(١) أنه ينبغي علينا أن نحفظ الآيات المخصصة والتي سنتناولها بالتفسير؛ لأنها ستعين بإذن الله تعالى على الفهم الجيد، وستقصر المسافة في إتقان الفهم، فبدلاً من أن نبذل وقتاً طويلاً لفهم الآيات، فإنما نبذله من جهد في حفظ الآيات، سيوفر علينا وقتاً كثيراً لأجل الفهم، وهذه هي عادة السلف.

(٢) مرجعنا الأساس الذي سنعمل عليه في هذه المادة هو (تفسير الجامع لأحكام القرآن الكريم) للقرطبي، وسنرجع أيضاً إلى كتاب (تفسير غريب القرآن) لابن قتيبة، هذا سنحتاج إليه في جزء يسير من المادة، فيما يتعلق بالمفردات الغريبة، وأما كتاب (الجامع لأحكام القرآن الكريم) فهو الذي سيكون الشرح من خلاله، وسننتقي منه مسائل؛ لأن هذا الكتاب ميزته أنه يقسم تفسير الآيات إلى عدة مسائل؛ فهذه المسائل قد تطول وقد تقصر، ومنها ما يكون بعيد الصلة عن الآيات، وإن كان له صلة لكنها ليست بالقريبة؛ فلهذا ربما نتجاوز بعض المسائل أو نختصر ما فيها.

(٣) سنتناول في كل درس بإذن الله تعالى المفردات الغريبة، والمعنى الإجمالي، وأبرز المسائل والأحكام، ثم نختم الآيات ببعض الهدايات التي أشارت إليها الآيات الكريمة.

سورة الأنبياء

الحلقة (١)

موضوع الحلقة تفسير الآيتين ٧٨ ، ٧٩ من سورة الأنبياء.

الآيات: 🏠

قال تعالى: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩)}.

✓ المعنى العام للآية:

هذه الآيات تتحدث عن حكومة داود وسليمان، في قضية حدثت لهما، وهي: أنه اعتدى أحد أصحاب الأغنام على مزرعة آخر؛ فرعت فيها ليلاً، فأفسدتها، فاختصما عند داود، فقاضى لهما بما قضى به، ثم لما خرج كان لسليمان حكم أو رأي آخر في هذه القضية، فذكره الله تعالى، وأشاد به، وبين أن فيه الفضل، وأما حكم داود فكان عدلاً، فكل منهما آتاه الله تعالى الحكم والعلم، ثم ختم الله تعالى الآية الأخيرة، بما خص به نبيه -عليه السلام- داود من تسخير الجبال والتسبيح معه من الطير، وهذا من فضل الله تعالى عليهما.

✓ المفردات الغريبة:

■ الحرث : وهو الزرع.

■ نفشت : أي رعت ليلاً، أي رعت الغنم ليلاً.

وأما بقية المفردات فهي واضحة، فنشرع بعون الله تعالى في بيان المسائل مسألة مسألة، وسنتناول المسائل التي بجامع القرطبي، المسألة الأولى، والرابعة، والخامسة، والسابعة، والتاسعة، والحادية عشر، والخامسة عشر، والسادسة والعشرين.

✓ المسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ} أي أذكر داود وسليمان، وهذا معطوف على سائر الأنبياء السابقين، يعني ابتداء من {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ} [الآية ٥١ الأنبياء]، و{نوح} وهكذا إلى أن أتى إلى قوله تعالى: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ} أي وأذكرهما إذ يحكما، وليس معنى يحكما أنهما حكما في وقت واحد، فالحكم في مثل هذه الحالة لا يجوز أن يقضي قاضيان في مجلس واحد، وإنما جمعهما فقط في القول، فالحاصل أن كل واحد منهما حكم حكماً على انفراده، وكان سليمان -عليه السلام- هو الفاهم لها بتفهيم الله تعالى إياه؛ لهذا قال الله تعالى: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ}.

المسألة الثانية: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ} أي فهمناه القضية والحكومة، فالضمير يعود إلى هذه الحكومة أو إلى هذه القضية. وفُضِّلَ حكم سليمان حكم أبيه، في أنه أحرز أن يُبقي ملك كل واحد منهما على متاعه، وتبقى نفسه طيبة بذلك، وذلك أن داود -عليه السلام- رأى أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث فقط.

داود حكم في القضية بأن تُدفع الغنم التي أفسدت هذا الحرث لصاحب الحرث، مقابل إفسادها له فقط، بينما سليمان -عليه السلام- كان له حكم آخر، فإنه لما خرج الخصمان على سليمان - وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر - قال: بما قضى بينكما نبي الله داود؟ فقالا: قضى بالغنم لصاحب الحرث؛ فقال لعل الحكم غير هذا، انصرفا معي، فأتى أباه فقال: يا نبي الله، إنك حكمت بكذا وكذا، وإني رأيت ما هو أرفق بالجميع، قال: وما هو، قال: ينبغي

أن تُدفع الغنم إلى صاحب الحرث، فينتفع بألبانها، وسمونها - جمع سمن - ، وأصوافها، وتُدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فهنا فضل قضاء سليمان -عليهما السلام جميعاً-، فَضَّلَ بما أن الحرث يُدفع إلى صاحب الغنم؛ ليقوم عليه، أي ليصلحه، ومتى صلح هذا الحرث، رجع كل ملك إلى صاحبه، قال: فإذا عاد الزرع إلى حاله التي أصابته الغنم فيه في السنة المقبلة، رد كل واحد منهما ما إلى صاحبه، فقال داود: وفقت يا بُني، لا يقطع الله فهمك، وقضى بما قضى به سليمان.

قال الكلبي: "قَوْمَ داود الغنم والكَرْم - يعني الحرث الذي أفسدته الغنم - فكانت القيمتان سواء، فدفع الغنم إلى صاحب الكرم" انتهى كلامه. وأما في حكم سليمان فقد قيل: قيمة ما نال من الغنم، وقيمة ما أفسدت الغنم سواء أيضاً، فالحاصل أن داود - عليه السلام - حكم بالعدل، ورأى أن صاحب هذه الأغنام الذي أفسد الحرث عليه أن يدفع غنمه إلى صاحب الزرع؛ لينتفع منه مقابل هذا الإفساد، بينما سليمان -عليه السلام- أضاف فضلاً، ورأى أن ينتفع صاحب الغنم من المزرعة، فيقوم على إصلاحها، فمتى عادت إلى حالتها السابقة، وذلك بعد عام تقريباً، عاد كل ملك إلى صاحبه.

المسألة الثالثة: عقب الله على هذه الحكومة؛ فقال: **{وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا}** أي أن داود -عليه السلام- لم يخطئ في هذه النازلة، بل فيها أوتي الحكم والعلم. وأما قوله تعالى: **{فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ}** على أنه فضيلة له على داود، وفضيلته راجعة إلى داود، وكما قالوا: الوالد تسره زيادة ولده عليه.

المسألة الرابعة: يقول الإمام الحسن البصري -رحمه الله-: "لولا هذه الآية لرأيت أن القضاة قد هلكوا، ولكن الله تعالى أثنى على سليمان بصوابه، وعذر داود باجتهاده". فقد يكون في القضية أكثر من حكم، على أكثر من وجه، وقد يتفاوتون في العدل والفضل.

المسألة الخامسة: إنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالماً بالاجتهاد، والسنن، والقياس، وقضاء من مضى؛ لأن اجتهاده عبادة، فهو إذا بذل الجهد، يعني يحاول القاضي أن يجتهد في الحكم، بالنظر في الأدلة، والنظر في النصوص، وفيما يحف الحادثة من القرائن والأحوال، ثم بعد ذلك يقضي بعد أن يبذل هذا الجهد؛ لكنه إذا قضى إنسان خطأ دون أن يبذل الجهد، ودون أن يكون عنده الأدوات التي من خلالها يتعرف على الحكم، فإنه يكون مخطئاً وأثماً، ولا يُعذر بالخطأ في هذا الحكم. ويدل على هذا قول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: **(القضاة ثلاثة - وذكر منهم - قاضيان في النار).**

قال ابن المنذر: "إنما يؤجر على اجتهاده في طلب الصواب، لا على الخطأ"، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: **{فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ}**. قال الحسن: "أثنى على سليمان، ولم يذم داود"، والحقيقة أن الآية في مجموعها أشادت بالحكم، وأشادت بكل منهما، وأثنت على كل منهما، وزادت سليمان هذه الفضيلة.

المسألة السادسة: هي رجوع الحاكم بعد قضاءه من اجتهاده إلى اجتهاد آخر أرجح من الأول، وهذا ما فعله داود -عليه السلام-، وذلك أن داود حينما بانت له هذه المسألة، وبأن له أن القضاء الثاني هو الأولى، وإن كان الأول صواباً، لكنه رأى أن الثاني أمثل وأفضل فرجع إليه، فهذا فيه دلالة على أنه يجوز رجوع الحاكم أو القاضي بعد قضاءه من اجتهاده إلى اجتهاد آخر أرجح من الأول، وهذا طبعاً إذا تبين له أن الحق في غيره، كما قال الشيخ القرطبي: "رجوع القاضي عما حكم به إذا تبين له أن الحق في غيره مادام في ولايته أولى" نقول هذا هو الأولى.

ثم قال -رحمه الله-: ولم يختلف العلماء أن القاضي إذا قضى تجوزاً بخلاف أهل العلم فهو مردود، وإن كان على وجه الاجتهاد، فأما أن يتعقب قاضٍ حكم قاضٍ آخر، فلا يجوز ذلك؛ لأن فيه مضرة عظيمة، نقض الأحكام، وتبديل الحلال بالحرام، وعدم ضبط قوانين الإسلام" بمعنى: أنه لا يجوز لقاض أن ينقض حكم قاضٍ آخر، بعد أن يبذل اجتهاده، الآن بعض المحاكم على اختلاف أنواعها، ومحاكم الاستئناف، والمحاكم العليا، نُظمت هذه تحت أمر ولي الأمر، وهو الحاكم الأعلى، والقاضي الذي

يُنِيب من يشاء من القضاة، ومن الحكام، فحاكم الاستئناف الآن وكما يسمى التمييز، كل هذا يجوز له أن ينقض حكم القاضي الأول؛ لأنه بتنظيم ولي الأمر، فهو لم يخرج من حكم ولي الأمر.

المسألة السابعة: نلاحظ أن الآية تقول: **{إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ}** وقلنا إن النفس هو: الرعي ليلاً، ويقول الإمام القرطبي - في المسألة الخامسة عشرة -: "إن قيل ما الحكمة في تفريق الشارع بين الليل والنهار"، وقد قال الليث ابن سعد: "يضمن أرباب المواشي بالليل والنهار كل ما أفسدته، ولا يضمن أكثر من قيمة الماشية؟"

قلنا الفرق بينهما واضح، وذلك أن أهل المواشي لهم ضرورة إلى إرسال مواشيهم ترعى بالنهار، والأغلب عندهم أن من عنده زرع يتعاهده بالنهار ويحفظه عن أراذه، فجعل حفظ ذلك بالنهار على أهل الزرع؛ لأنه وقت التصرف في المعاش؛ لأنهم يشرفون عليه، وينظرون إليه، ويستطيعون أن يذودوا عنه ما قد يتسلط عليهم من البهائم، كما قال تعالى: **{وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا}** الآية ١١ سورة النبا، فإذا جاء الليل فقد جاء الوقت الذي يرجع كل شيء إلى موضعه وسكنه، ويرد أهل المواشي مواشيهم إلى مواضعهم ليحفظوها، فإذا فرط صاحب الماشية في ردها إلى منزله، أو فرط في ضبطها وحبسها عن الانتشار بالليل؛ حتى أتلفت شيئاً، فعليه ضمان ذلك، فجرى الحكم على الأوفق الأسمح، وكان ذلك أرفق بالفريقين، وأسهل على الطائفتين، وأحفظ للمالين. فيتبين لنا إذاً أن هنالك وقتان: أما وقت النهار فهو لأهل الزرع يشرفون عليه، ويحافظون عليه، ويستطيعون أن يذودوا عنه، بخلاف ما لو كان في الليل؛ كما في هذه الحكومة أو في هذه القضية أنه يكون حينئذ الحكم لأهل الزرع لو أعتدي عليهم ليلاً، فيضمن أصحاب الماشية ما تتلفه مواشيهم ليلاً^(١).

المسألة الثامنة: في ختام الآية يقول الله تعالى: **{وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ}**، يقول وهب: "كان داود يمر بالجبال مسبحاً، والجبال تجاوبه بالتسبيح". ومعنى (سخرنا) أي جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح، ويقول قتادة في معنى يسبحن: "أي يصلين معه إذا صلى". والتسبيح: الصلاة، وهذه مزية لداود، أنه تتجاوب معه هذه الكائنات العظيمة، من الجبال، وهذه الطيور التي في عنان السماء؛ تستجيب لترانيمه بمزاميره - عليه السلام - حينما يرددها ويتلوها آناء الليل، وأطراف النهار.

✓ الهدايات:

- ١- سعة علم الله - عز وجل - في قوله تعالى: **{شَاهِدِينَ}**.
- ٢- أن الأحكام تتفاوت فضلاً وعدلاً.
- ٣- مكانة أنبياء الله - عز وجل - وفضلهم.
- ٤- أن للجبال تسبيحاً لله - عز وجل - الله أعلم بكيفيته.

(١) هذه الجملة أضيفت للتوضيح.

سورة الحج

الحلقة (٢)

موضوع الحلقة تفسير الآيتين ٢٥، ٢٦ من سورة الحج.

تتحدث الآيات عن مناسك الحج، وما يتصل بها من أمر التوحيد، وهذه الآيات التي سنتحدث عنها، سميت السورة باسمها، وهي سورة الحج، سميت لأنه جاء فيها حديث عن الحج.

الآيات:

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نَذَقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)}.

المفردات الغريبة:

المفردات التي تحتاج إلى بيان، نستفيد منها من خلال كتاب (تفسير غريب القرآن) لابن قتيبة.

- {الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ}: يقول: المقيم فيه، والبادي - وهو الطارئ من البدو - ، سواء فيه، أي ليس المقيم فيه بأولى من النازح إليه، إذا قوله تعالى: {سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} أي المقيم فيه والبادي، يعني الذي يأتي من الخارج كلهم فيه سواء في الحُرمة، بمعنى أنه لهم من حق التحريم على المقيم، وعلى الآتي إليه من الخارج، كلهم في حق هذه الحُرمة، وفي القيام بواجباتها، سواء، يقول: "ليس المقيم فيه بأولى من النازح إليه" كلهم يستون في هذا البيت، وكلهم فيه سواء، وسنأتي إلى بيان أكثر - إن شاء الله - عند بيان مسائل الآيات.

- يقول: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ} أي: من يرد فيه إلحادًا، والإلحاد المقصود به هنا: الظلم، والميل عن الحق.

- الصد: هو المنع، لم يذكره صاحب الغريب، لكننا نشير إليه.

- أيضًا لم يذكر كلمة القائمين: المقصود بهم: المصلين.

- {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ}: أي جعلنا له بيتًا.

المسائل:

المسألة الأولى: التي تناولها القرطبي في كتابه عند تفسير هذه الآية، قال: "أعاد الكلام إلى مشركي العرب حين صدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن المسجد الحرام". طبعًا هم صدوه عن المسجد الحرام في أكثر من مناسبة متفرقة، لكن أشهرها هو ما كان في عام الحديبية، والصد بمعنى: منعهم من دخول المسجد الحرام، {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ} أي ويمنعون، {عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} يعني الدعوة إلى الله - عز وجل - وعن المسجد الحرام.

في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} الخبر محذوف، مقدر عند قوله: {وَالْبَادِ} ، أي: خسروا إذ هلكوا، {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ} أين خبر "إن"؟ خبرها محذوف، تقديره: خسروا إذ هلكوا، أي بمنعهم دخول الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين المسجد الحرام.

يخبر الله - عز وجل - في هذه الآية: أن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله من صناديد قريش، وأتباعهم، صدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه، عن الدعوة إلى الله - عز وجل - وعن دخول البيت الحرام، الذي يستوي فيه {الْعَاكِفُ فِيهِ}

وَالْبَادِ أي: المقيم فيه والنازح إليه، أنهم خسروا إذ هلكوا.

{وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ} أي: من ينوي فيه شرًا، -الظلم سيأتي بيان أنواع هذا الظلم- فإن الله تعالى يذيقه من عذابه الأليم؛ وذلك أن للبيت الحرام من الحرمة ما ليس في الأماكن الأخرى.

المسألة الثانية: المسجد الحرام في قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}** الظاهر من القرآن أنه المسجد نفسه، يعني الذي يُصلي فيه حول الكعبة. وقيل هو الحرم كله؛ لأن المشركين صدوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عنه عام الحديبية؛ فنزل خارجًا عن الحرم.

والحقيقة أن حكم الحرم سواء في الفضل وسواء في الوقوع في الإثم أيضًا، وتعظيم الحرم يشمل المسجد الحرام وما جاوره مما هو في بقعة الحرم في حدود الحرم، كل هذا في الحرمة سواء، وإن كان المسجد له بعض الخصوصيات التي لا تخفى، مثل: عدم دخول الحائض وما شابه ذلك.

المسألة الثالثة: قال تعالى: **{الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ}** أي للصلاة والطواف والعبادة؛ وهو كقوله تعالى: **{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ}** [الآية ٩٦ آل عمران]، أي جعله الله - سبحانه وتعالى - معلمًا، ومكانًا طاهرًا ومقدسًا، يُعظم فيه الله - عز وجل - بالصلاة له، والطواف، والعبادة على اختلاف أنواعها.

قوله تعالى: **{سَوَاءٌ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ}** يقول: "سواء في تعظيم حرمة وقضاء النسك فيه، الحاضر، والذي يأتيه من البلاد؛ فليس أهل مكة أحق من النازح إليه" هكذا ذكر، مثل ما ذكر ابن قتيبة في غريب القرآن.

هنا أورد قول آخر القرطبي: "قيل: إن المساواة إنما هي في دوره، ومنازله، ليس المقيم فيه أولى من الطارئ عليه". بمعنى: إن مكة دورها مساع، ومفتوحة لمن كان مقيمًا ولمن كان باديًا، فليس أحد بأولى من الآخر بهذه الدور، فمن جاء أولاً فهو كما قال عمر بن الخطاب: "مِنِي مُنَاحُ مِنْ سَبَقٍ"، لكن روي عن مالك أن الدور ليست كالمسجد، ولأهلها الامتناع منها، والاستبداد بها. يقول القرطبي: وهذا هو العمل اليوم، وقال بهذا جمهور من الأمة، والحقيقة أن هذا هو العمل أيضًا في الأزمان الحاضرة؛ لأنه لو فُتح هذا المجال، لكانت فوضى، فولي الأمر له أن يضع ما يضبط نظام الناس في مثل هذه الأمور، فيُخصص لمن قدم من الحجاج ومن الزوار أماكن مخصصة، سواء كان ذلك على وجه الإجارة، أو غيرها، أو على وجه المنح، كل هذا يتولاه ولي الأمر، هذا هو رأي مالك.

أما المسجد فإنه ليس لأحد فيه فضل على الآخر؛ لأن المشركين في ذلك الوقت كانوا يظنون أن لهم مزية في عدد من العبادات، ومنها: أنهم يسمون أنفسهم الحمس، وأنهم يطوفون بالبيت وهم يلبسون وغيرهم يطوف وهو عريان إذا كان قادم من الخارج، وكل هذه من الأمور التي طرأت بعد أنساك الخليل -عليه السلام-، ومما أحدثه أهل الجاهلية؛ فجاء الإسلام ليعيد الحنيفية السمحة إلى أصولها وينقيها مما ورد إليها.

هذا هو المقصود الأول: أن المسجد الحرام يستوون فيه الناس، أما ما يتعلق بالدور فقلنا أن فيها خلاف، والأولى هو ما عليه الجمهور. [ومنهم مالك: أن لأهلها الامتناع والاستبداد بدورهم]^(١)

المسألة الرابعة: قوله تعالى: **{وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ}** هذا شرط، وجوابه **{نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ}** والظلم اختلف فيه، ماذا يريد الله - عز وجل - **{وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ}** بحيث يذاق من هذا العذاب الأليم؟

ابن عباس يقول في رواية علي بن أبي طلحة: الشرك.

وعطاء يقول: هو الشرك والقتل.

وقيل: هو قطع الشجر.

يقول ابن عمر: كنا نتحدث أن الإلحاد فيه أن يقول الإنسان: لا والله! وبلى والله! وكلا والله! ولهذا كان له فسطاطان، أحدهما في الحل والآخر في الحرم؛ فكان إذا أراد الصلاة دخل فسطاط الحرم.

ومن الأقوال أيضاً: أن المعاصي تضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات، وتكون المعصية معصيتين، طبعاً بمكة يعني في الحرم، إحداها بنفس المخالفة، والثانية بإسقاط حرمة البلد الحرام؛ وهكذا الأشهر الحرم سواء.

وذكروا أيضاً: من الظلم احتكار الطعام في الحرم، وهذا ورد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو قول عمر ابن الخطاب.

فيظهر هنا أن المراد بالظلم عدة أقوال، كما تلونها عليكم قبل قليل، منها: الشرك، ومنها القتل، ومنها قطع الشجر، ومنها المعاصي عموماً، ومنها احتكار الطعام. كل هذا يمكن أن يكون من الظلم، ولا مزية لقول على الآخر؛ فلهذا حملها على العموم

أولى؛ ولهذا قال الإمام القرطبي: والعموم يأتي على هذا كله.

والأصل في قواعد التفسير أن الآية إذا كانت تحتل أكثر من معنى دون أن تتعارض، فإن هذا مما يسميه علماء التفسير اختلاف

التنوع؛ وهو أن يُعبر كل مفسر بنوع من أنواع هذا الظلم.

فإذا الإلحاد في قوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ} يشمل: جميع المعاصي من الكفر إلى الكبائر إلى الصغائر.

✓ المعنى العام للآية:

تحصل لنا معنى الآية عموماً، قوله تعالى في التهديد لمن يصد عن سبيل الله، وعن دخول المسجد الحرام الذي يستوي فيه العاكف وغير العاكف، أو يستوي فيه المقيم وغير المقيم، وفيه التهديد الأكيد لمن ظلم وتعدى فيه، وهذا يؤكد على أنه ينبغي مراعاة هذه المشاعر العظيمة، وهذا الحرم الكريم، وأن يتحفظ الإنسان من الوقوع في المعاصي.

✕ الآية السادسة والعشرون:

المسألة الأولى: قوله تعالى: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ} أي واذكر إذ بوأنا لإبراهيم.

{أَنْ لَا تُشْرِكَ} هي مخاطبة لإبراهيم - عليه السلام -.

وفي الآية طعن على من أشرك من قُطان البيت - يعني من سكان البيت -؛ لأنهم كانوا يزعمون أنهم هم أتباع إبراهيم عليه السلام

ويفتخرون بهذا البيت العظيم، فأنجي الله تعالى عليهم بأن إبراهيم - عليه السلام - قد أقام هذا البيت على التوحيد.

{وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ} أي هذا كان الشرط على أبيكم فمن بعده وأنتم، فلم توفوا بل أشركتم - هكذا قال

الإمام القرطبي - . وتطهير البيت: عام في الكفر والبدع وجميع الأنجاس والدماء.

✓ المناسبة بين الآيتين:

هناك مناسبة جيدة مع قوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}. أي إذا كان البيت قد طُهر وأقيم على هذا الأساس وما حوله هو في حكمه؛ فإنه لا ينبغي أن يطرأ عليه من الظلم، أو من الصد عن سبيل الله، أو من الكبائر، أو ما شابهها، فكل هذا يتنافى مع حرمة هذا البيت العتيق.

القائمون في قوله تعالى: {وَطَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ} هم المصلون، لكن كما يُلاحظ أن الصلاة فيها القيام، وفيها غير

القيام، فيها القيام، وفيها الركوع، وفيها السجود، وكل هذه من أفعال الصلاة، لكننا نلاحظ في القرآن الكريم أن الله - عز

وجل - يستعمل بعض هيئات الصلاة؛ لأجل التنويه بها، كما في قوله تعالى: {وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} [الآية ٤٣ سورة البقرة] أي

صلوا مع المصلين، {وَأَسْجُدُوا} أي صلوا، هكذا ورد من بعض أهل التفسير.

وهنا القيام نوه به لمكانته أيضاً؛ لأن القيام كما الركوع والسجود، ليس كالجلسات المعتادة، فمثلاً: الجلوس الذي في الصلاة المعتاد، مثل الجلوس للتشهد لا نجد له ذكر مثل ذكر الركوع والسجود والقيام في استعمالات نصوص الشريعة، وفي هذا القرآن العظيم؛ لأن الجلوس يكون عند الخلق وعند الخالق، وكلاً بما يتناسب معه من التعظيم، أما ما يكون من الركوع والسجود وما يتصل به أيضاً من القيام على وجه التعظيم؛ فإن هذا كله مما أختص به الله - عز وجل -.

✓ الهدايات:

- ١- مكانة البيت العتيق، ونلاحظ هنا أن الله تعالى استهل الحديث عن الحج بالحديث عن حرمة البيت العتيق، والله تعالى جعل هذا البيت معلماً على توحيده، وإشارة إلى فضله، ومحلاً لتقديس الله - عز وجل - وتعظيمه سبحانه وتعالى.
- ٢- في هذا أيضاً شرف للخليل أبي الأنبياء -عليه السلام- وفي مخاطبته {أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا} هذا مزيد إشادة به.
- ٣- نلاحظ هنا في هذه الآيتين وفيما سيتلوها من الآيات أيضاً، حديث عن موضوع الشرك، وهذا في التنفير منه وفي الزجر عنه؛ وفي مقابل هذا فيه حث على توحيد الله، وعلى إخلاص العبادة لله - عز وجل -؛ لأن هذه الشعائر كلها إنما أقيمت، وهذا البيت إنما وضع لأجل توحيد الله - عز وجل - دون الإشراف به، فكون المشركين يتبعون أهوائهم ويسلكون غير ما أراد الله - عز وجل - هذا كله مما جعل القرآن الكريم يُنحي عليهم ويؤكد على قضية التوحيد.

الحلقة (٣)

موضوع الحلقة تفسير الآيتين ٢٧، ٢٨ من سورة الحج.

✚ الآيات:

قال تعالى: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا النَّاسَ الْفَقِيرَ (٢٨)}.

✓ المفردات الغريبة:

- قوله تعالى: {يَأْتُوكَ رِجَالًا} أي رجالة، جمع راجل، مثل صاحب وصحاب، يعني يأتون على أرجلهم.
- {وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ} أي ركبناً على ضُمرٍ من طول السفر، الضامر هو: البعير المهزول الذي أتعبه السفر؛ فصار ضامراً من شدة الجوع والإرهاق من طول السفر.
- إذا الرجال أو رجالاً يعني يأتون على أرجلهم مشاة، والركبان يأتون على الإبل، وهي التي كانت تُقلهم في ذلك الزمان، والآن تعددت هذه المراكب، فمنها: ما يكون على السيارات، أو على الطائرات، أو على السفن فكل هذا يدخل في الركوب.
- {مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} أي بعيد.
- {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ} هنا يقول الإمام ابن قتيبة: هي التجارة، ولكن هنالك أقوال أخرى سنأتي إليها عند القرطبي.
- {وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ} هي يوم التروية، ويوم عرفة، ويوم النحر، ويقال أيام العشر كلها، إذا المقصود بالأيام المعلومات هي الأيام التي تكون قبيل الحج من الأيام الشهيرة وهي: عرفة، والتروية، ويدخل فيها يوم النحر (يوم الحج الأكبر)، ويدخل فيها أيضاً سائر العشر التي تكون قبل، هذه من الأيام المعلومات. ولهذا تنمة إن شاء الله في المسائل التي سنوردها عند الإمام القرطبي.

✓ المسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ} هذا معطوف على {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ} والأذان هو الإعلام، يعني أعلم الناس بما

أوحى الله إليك من الحج إلى هذا البيت العتيق.

المسألة الثانية: قوله تعالى: {يَأْتُوكَ رِجَالًا} إنما قال: "يأتوك"، وإن كانوا يأتون الكعبة، قال: لأن المنادي هو إبراهيم، وهذا فيه عطف على قوله تعالى: {أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا} فما زال الخطاب على نسق واحد، {أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ} {يَأْتُوكَ رِجَالًا} فمن أتى الكعبة حاجًا فكما أتى إبراهيم؛ لأنه أجاب نداءه وفيه تشریف لإبراهيم -عليه السلام-.

المسألة الثالثة: تقديم الرجال على الركبان، يعني المشاة على غيرهم، قال الإمام القرطبي: "وقدم الرجال على الركبان في الذكر لزيادة تعبهم في المشي"، وهذا كأن فيه تنويه بهم، وفيه رفق بهم من الله - عز وجل -، وإشعار بأن الله تعالى معهم برحمته عز وجل، وأنه يعلم أحوالهم، وأنه مطلع على ما يلاقونه من العنت والمشقة، ففيه تسلية لهم.

{وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} هنا ذكر سبب الضمور فقال: أي أثر فيها طول السفر.

ونلاحظ هنا أيضًا أن القرآن من أساليبه الجميلة أنه فيه من اللفظات ما يشير إلى فضل المتحدث عنه لمزية؛ فهنا نجد فيه حديث عن الإبل، {يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} قال: رد الضمير إلى الإبل تكريمة لها لقصدها الحج مع أربابها، وهذا مثل ما ورد في سورة الكهف {وَكَلَّبَهُمْ بِأَسْطُرَ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ} [الآية (١٨)]، فنوه بذكر الكلب واكتسب الكلب هذا الشرف؛ لصحبته أهل الكهف، فهذه الإبل أيضًا ذكرت لصحبتها الحجيج، وهم ضيوف الرحمن، ومثل هذا {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا} (١) [سورة العاديات]، في خيل الهاد ذكرت تكريمة لها؛ لأنها قد أتت إلى عمل عظيم، وإلى مكان يحبه الله وهو الجهاد في سبيل الله - عز وجل -.

المسألة الرابعة: يوجد خلاف بين العلماء في أيهما أفضل المشي أم الركوب !

يقول ابن عباس "البحر الخبر" رضي الله عنهما: ما آسى على شيء فاتني إلا أنني لا أكون حججت ماشيا، فإني سمعت الله - عز وجل - يقول: {يَأْتُوكَ رِجَالًا}. وقال ابن أبي نجيح: حج إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ماشيين.

المسألة خامسة: يذكر أنه لا خلاف في جواز الركوب والمشى؛ لأن الحاج هو في إحدى حالتين: إما أن يحج ماشيًا وإما أن يحج راكبًا، فالراكب يدخل فيه حتى المحمول، يعني من كان مقعدًا لا يستطيع المشي.

☑ **أيهما أفضل الركوب أم المشي؟**

من نظر إلى المشقة، ونظر إلى بدء القرآن الكريم؛ فإنه يرى إلى أن المشي هو الأفضل؛ لقوله تعالى: {يَأْتُوكَ رِجَالًا}، وهذا هو ما اختاره ابن عباس - رضي الله عنهما -.

⇐ بينما ذهب الإمام مالك والشافعي إلى أن الركوب أفضل؛ لأنه هو الذي فعله الرسول - صلى الله عليه وسلم -، والرسول حج راكبًا، وطاف بالبيت وهو على ناقة القصواء.

⇐ وذهب غير الشافعية والمالكية إلى أن المشي أفضل؛ لما فيه من المشقة على النفس، وهذا هو مذهب ابن عباس.

⇐ فالحاصل أنه يمكن أن يجاب على من يرى أن الركوب هو الأفضل: بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - إنما فعل هذا الركوب؛ لمزية فيه، وللخصيصة فيه - عليه الصلاة والسلام -؛ لأنه إنما فعل هذا لأجل أن يدل الناس على مناسك الحج، وأن يراه الناس جميعًا؛ بينما غير الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يحتاج الناس إليه، فلهذا لو حج ماشيًا لكان ذلك أفضل له، هذا فيمن يرى أن المشي أفضل من الركوب، وهذا إنما يعتبر خاصًا بالرسول - صلى الله عليه وسلم -، وعلى كل حال قد يتفاوت الناس في هذا من شخص إلى آخر، فمن يستطيع المشي فهو أفضل له.

✕ يقول الله تعالى في الآية الثانية (٢٨):

{لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ} وهذا تعليل لما دعا إليه الخليل - عليه السلام - وهو شهود الحج، أو حضور الحج؛ لأجل أن {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَةِ الْأَنْعَامِ} .

المسألة الأولى: قوله تعالى: {لِيَشْهَدُوا} أي أذن بالحج يأتوك رجالاً وركباً ليشهدوا، والشهود هو الحضور، {مَنَافِعَ لَهُمْ} أي مناسك، كعرفات والمشعر الحرام، وقيل: المغفرة، وقيل: التجارة.

ابن قتيبة يذهب إلى أنها هي التجارة، والأظهر أن هذا هو العموم، أنه يشمل المناسك، عرفات، والمشعر الحرام، ويشمل المغفرة - من المنافع المغفرة -، ومنها التجارة، ومن المنافع أيضاً: ما يكون من التعارف بين الناس، والتآلف، ودعاء بعضهم لبعض، وما يكون فيه من الخير، وما يكون فيه من الدعوة إلى الله - عز وجل -، وما يكون فيه من الأدعية العظيمة، وما فيه من الأعمال، وما فيه من التنقل بين هذه المناسك، خير كثير جداً؛ فلهذا عمم الله تعالى هذه المنافع فقال: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ} ولم يحددها بمنفعة واحدة.

أما قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ} [الآية (١٩٨) سورة البقرة]، فهذا خاص بالتجارة، كما في قراءة ابن عباس {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ} في مواسم الحج.

أما المنافع التي وردت في هذه الآية هي أعم وأشمل، يدخل فيها التجارة، ويدخل العبادات، وسائر وجوه الدعوة والخير.

المسألة الثانية: يقول الله تعالى: {وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ} أي يحجوا لأجل أن يذكروا اسم الله في أيام معلومات، وقد يكون هذا من عطف الخاص على العام؛ لأن من ضمن المنافع هو ذكر الله في الأيام المعلومات.

يقول المفسر - رحمه الله - : والمراد بذكر اسم الله: ذكر التسمية عند الذبح والنحر؛ مثل قولك: "باسم الله والله أكبر"، "اللهم هذا منك ولك". ومثل قولك عند الذبح: "إن صلاتي، ونسكي..." .

هذه الآية فيها أيضاً إحاء على الكفار، وذم لأحوالهم من طرف خفي؛ وذلك لأنهم كانوا يذبحون على أسماء أصنامهم؛ فبين الحق عز وجل أن الواجب الذبح على اسم الله فقط، وهذا قد تحدث الله تعالى عنه في آيات عديدة في سورة الأنعام.

المسألة الثالثة: يقول الله تعالى: {عَلَى مَا رَزَقَهُمْ} أي على ذبح ما رزقهم، أي ليذكروا اسم الله على أو عند ذبح ما رزقهم، {مِنْ بَيْمَةِ الْأَنْعَامِ} والأنعام حيث أطلقت في القرآن فإنها تنصرف إلى ثلاثة أنواع من البهائم، وهي: الإبل، والبقر، والغنم.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: {فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْفُقَرَاءَ} هنا الأمر للندب عند الجمهور، يعني على الاستحباب؛ فيستحب لمن ذبح أن يأكل من هديه أو أضحيته، وأن يتصدق بالأكثر، مع تجويزهم الصدقة بالكل، أو أكل الكل. لكن الأولى أن ينوع أن يأكل من جزء منها، وأن يتصدق بجزء منها، وأن يهدي جزءاً منها؛ ولهذا يقول الفقهاء يستحب أن تقسم على أثلاث، ثلث صدقة، وثلث يؤكل منه، وثلث للإهداء أي لغير الفقراء. هذا طبعاً في الهدي والأضحية.

المسألة الخامسة: أما ما يكون في الدماء من دماء الكفارات فإنه لا يجوز أن يأكل منها صاحبها، ولا حتى النذر، إذا نذر أن يذبح شيئاً لله - عز وجل - فإنه أيضاً لا يجوز أن يأكل شيئاً من هذا؛ لهذا مشهور مذهب مالك - رضي الله عنه - : أنه لا يأكل من ثلاث: جزاء الصيد، ونذر المساكين، وفدية الأذى، ويأكل مما سوى ذلك إذا بلغ محله، سواء كان واجباً أو تطوعاً، ووافقه على ذلك جمهور فقهاء الأمصار.

المسألة السادسة: قوله تعالى: {وَلْيُؤْفُقُوا نُذُورَهُمْ} [الآية (٢٩) سورة الحج]، هذا أيضاً عطفًا آخر، يدل على وجوب إخراج النذر إن كان دمًا أو هدياً أو غيره، ويدل ذلك على أن النذر لا يجوز أن يأكل منه، وفاءً بالنذر، وكذلك جزاء الصيد وفدية الأذى؛ فهذه الدماء ليست مثل عموم الهدي أو الأضحية، فما كان نذراً، أو جزاء صيد، أو فدية أذى فكل هذا لا يجوز الأكل منه بل يُعطى

جميعاً للفقراء.

المسألة السابعة: يقول الإمام القرطبي: "قال بعض العلماء: قوله تعالى: {فَكُلُوا مِنْهَا} ناسخ لفعلهم؛ لأنهم كانوا يحرمون لحوم الضحايا على أنفسهم ولا يأكلون منها - كما قلناه في الهدايا - فنسخ الله ذلك بقوله: {فَكُلُوا مِنْهَا} ، وبقول النبي - صلى الله عليه وسلم: (من ضحى فليأكل من أضحيته)، ولأنه - عليه السلام - أكل من أضحيته وهديه.

إذاً هذه الآيات تشير إلى تصحيح للأحوال والأوضاع التي أفسدها أهل الجاهلية، وما ينبغي أن يكونوا عليه على ملة الحنيفية السمحاء؛ فجاء النبي - صلى الله عليه وسلم - ليعيد الناس على المذهب الصحيح، وعلى العقيدة السمحة التي كان عليها الخليل، فإذاً هذا مما يؤكل منه.

المسألة الثامنة: قال الله تعالى: {وَأَطِيعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} البائس: بئس، يبأس، بأساً، إذا افتقر؛ فهو بائس، والفقير من صفة البائس، وهو الذي ناله البؤس وشدة الفقر، إذا البؤس هذه واحدة من صفات الفقر، يعني كأن الله تعالى بين أكثر من صفة لهذا الفقير، ومنها: البؤس، وأحياناً يذكر أنه مثلاً يتعفف، أو شيء من هذه الصفات التي قد ترد في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: {تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ} [الآية ٢٧٣] سورة البقرة، هذه واحدة من الصفات التي نص الله تعالى عليها في البؤس، فيه حث لأهل الخير أن يراعوا هذه الأوصاف، وأن يعطف بعضهم على بعض؛ لأجل هذا الوصف، فكأن هذا الوصف فيه إلماح للمحسن، وللمضحي، وللمهدي إلى أن هذا الفقير إنما استحق هذه الصدقة؛ لأجل ما أصابه من البؤس والفاقة.

✓ **الهدايات:**

١- أن هذا القرآن الكريم أعاد الناس إلى الحنيفية السمحة.

٢- شرف الخليل - عليه السلام - حيث يخاطبه الله - عز وجل - في هذه الآيات، مثل قوله تعالى: {يَأْتُوكَ} ، كما قال: {أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا} .

٣- مكانة الحج في هذا الدين، وهو الركن الخامس من أركان الإسلام.

٤- المنافع العظيمة التي اشتمل عليها الحج، وفي هذا ترغيب وحث على أداء هذه الفريضة العظيمة وهذا الركن العظيم من أركان الإسلام.

٥- من أهم شعائر الحج ذكر اسم الله - عز وجل - وتوحيده.

٦- عناية الإسلام بالفقراء، فنلاحظ أن الله تعالى خصهم بالذكر؛ لما أشرنا إليه عند بيان معنى [البائس الفقير]؛ لأجل أن يعطف الأغنياء على الفقراء، والقادرون على الضعفاء.

الحلقة (٤)

موضوع الحلقة تفسير الآيات ٢٩، ٣٠، ٣١ من سورة الحج.

ما زال الحديث مستمرا عن آيات الحج، حيث يتحدث الله عز وجل عن تنقل الحجاج بين المناسك، ويذكر بعض أعمالهم التي يعملونها في الحج، سواء كانت من الأعمال الظاهرة، أو من الأعمال القلبية التي تختص بالتوحيد، وهي المقصد الأساس في هذه الآيات.

✚ **الآيات:**

يقول الله تعالى: {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ

بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١).

✓ المفردات الغريبة:

- **التَّفَثُ** : يقول ابن قتيبة: هو الأخذ من السائب والأظفار، بمعنى قص الأظفار ونتف الإبطين وحلق العانة. طبعاً يشمل أيضاً الحلق عموماً وإزالة الوسخ، فإذا التفت: هو كل ما كان من الأوساخ التي في أصل خلقة الإنسان؛ مما يزال منه، أو مما علق به من آثار الحج من الغبار والأتربة وما شابه ذلك، ويكون ذلك أيضاً بالغسل.
- **{وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتَى عَلَيْكُمْ}** الذي يتلى علينا هو في سورة المائدة من الميتة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة.
- **السحيق**: هو البعيد، لكن نلاحظ هنا فرق بين السحيق والبعيد الذي هو معنى البعيد هنا، وبين العميق الذي هو العميق بمعنى هناك في الآية السابقة، فهناك البعد المكاني يعني البعد الأفقي، بينما هنا البعد الذي يكون في العمق، ففرق بين البعدين، فذاك بعد محمود وهذا بعد مذموم، ومنه يقال: بعداً وسحقاً وأسحقه الله.

✓ المسائل:

المسألة الأولى: نلاحظ أن الآيات متصلة بما قبلها، نلاحظ العطف هنا **{ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ}** بعد نحر الضحايا والهدايا مع ما بقي عليهم من أمر الحج، وهذا معطوف على قوله تعالى: **{وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ}** يعني هذه أعمال كلها يذكرها الله عز وجل من أعمال الحجيج التي تكون في أيام النحر.

وإزالة التفت تكون عند الخروج من الإحرام، يعني حينما يرمي الحاج بعد أن يدفع من مزدلفة، حينما يلحق إحرامه بعد أن يلحق يزيل التفت، أي بعد الحلق، مثل: قص الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة وما يتصل بذلك، ويمكن أن يكون أيضاً: بعد أن يطوف بالبيت العتيق، بعد أن يرمي ويطوف بإمكانه أن يزيل التفت، وإن كان الأولى أن يفعل هذا قبل؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم فعل ذلك أولاً، ثم تنظف وتطهر، ثم مضى إلى البيت العتيق ليطوف طواف الإفاضة [الطواف الشهير الذي هو طواف الحج].

المسألة الثانية: قوله تعالى: **{وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ}** أمر بالوفاء بالنذر مطلقاً إلا ما كان معصية، ولا وفاء لنذر في معصية الله، ويبدو أن الوفاء بالنذر هنا حالة مما يفعله بعض الحجيج ممن يقومون بعقد نذر لأي سبب من الأسباب، كأن يعقد نذراً إن بلغه الله تعالى البيت العتيق أن يفعل كذا وكذا، أو أن ينحر كذا وكذا، أو أن يقول مثلاً: إن وقع في معصية، أو أراد أن يشكر الله على نعمة ما أن يذبح ما يتقرب به إلى الله عز وجل في هذه الأماكن العظيمة، وفي هذه الأوقات الشريفة، فلهذا أمرهم الله تعالى بأن يوفوا هذه النذور.

فالمقصود أن قوله تعالى: **{وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ}** أن هذا إقرار لهم، وأن هذا مما أقره الإسلام، ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه).

عطف عليها **{وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}** نلاحظ أن الترتيب جاء على طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم في حجه، يعني **{ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ}** كان الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن يرمي ويحلق وينزع الإحرام، يتطيب ويتنظف ويتطهر ثم يمضي إلى البيت العتيق، وهذا هو الذي جاءت به هذه الآية.

والطواف المذكور هنا في هذه الآية هو طواف الإفاضة؛ لأن الطواف على عدة أنواع: منه ما هو طواف القدوم، ومنه ما هو طواف الوداع، ومنه ما هو طواف الإفاضة وهو طواف الحج، طواف الإفاضة هو طواف الحج، وهذا هو المقصود، يقول الإمام الطبري كما نقله عنه القرطبي: لا خلاف بين المتأولين في ذلك.

المسألة الثالثة: يقول الإمام القرطبي: اختلف المتأولون في وجه صفة البيت بـ "العتيق"، لماذا وصف البيت الحرام بالعتيق؟

﴿ نقل قول المجاهد والحسن فقال: العتيق هو القديم، وفي الصحيح أنه أول مسجد وضع في الأرض، هذا قول.﴾

إذن القول الأول: أنه العتيق لأنه قديم لأنه أول بيت وضع على الأرض، وبهذا صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿ وقيل عتيق لأن الله أعتقه من أن يتسلط عليه جبار بالهوان إلى انقضاء الزمان ، فلهذا ظل مادام الزمان، ومنذ أن بُني لم يتغير محله، بقي محفوظاً بحفظ الله عز وجل.﴾

﴿ وقالت فرقة: سمي عتيقاً لأن الله عز وجل يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب.﴾

﴿ وقالت طائفة: سمي عتيقاً لأنه لم يملك موضعه قط.﴾

هي أقوال عديدة، لكن القول الأصح الذي تشهد له اللغة، ويعضده النظر، ويؤيده أيضاً الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، هو القول الأول، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنه أول مسجد وضع في الأرض). قال مجاهد: خلق الله البيت قبل الأرض بألفي عام وسمي عتيقاً لهذا.

✕ ننتقل إلى الآية التالية :

قوله تعالى : { ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ } الخ الآية.

المسألة الأولى : تلاحظون أنني حينما قرأتها وقفت على { ذَلِكَ } ، أي: "الواجب ذلك" أو "الزموا ذلك" أو "فرضكم ذلك"، كأن قوله تعالى: { ذَلِكَ } متصل بالآية السابقة، فذلك يستحب الوقف على هذا الموضع { ذَلِكَ } ، ثم نستأنف كلاماً جديداً { وَمَنْ يُعَظِّم حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ } ، التقدير كما قدر الإمام رحمه الله: فرضكم ذلك، أو الواجب ذلك، ويحتمل أن تكون في موضع نصب بتقدير: "امثلوا ذلك".

والحُرُمَاتِ في قوله تعالى: { وَمَنْ يُعَظِّم حُرُمَاتِ اللَّهِ } هي أفعال الحج المشار إليها في قوله تعالى: { ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ }، ويدخل في ذلك تعظيم المواضع.

يقول الإمام القرطبي رحمه الله: ويجمع ذلك أن تقول: "الحرمات: امثال الأمر من فرائضه وسننه".

فإذن الحرمات عام تشمل جميع أوامر الله عز وجل، وفرائضه، وسننه، ويدخل فيها دخولاً أولياً ما يتعلق بأفعال الحج المذكورة في قوله تعالى، { ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ } . لهذا حينما يجلس الحاج بين يدي الحلاق فإنه ينبغي عليه أن يجلس جلسة العابد لله عز وجل، فيذكر اسم الله، ويبدأ بالجهة اليمنى، ولا ينبغي أن يكون في خصومة بينه وبين الحلاق في الأجر وجدل واختلاف أو وقوع في الكلام بما لا ينبغي أثناء هذا العمل؛ لأنه من أعمال الحج، ولأنه من الأعمال التي عظمها الله عز وجل ومن الحرمات ومن الأوامر التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآية.

قوله تعالى: { فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ } التعظيم خير له عند ربه من التهاون بشيء، أو التعظيم خير من خيراته ينتفع به.

إذن التعظيم إما أن يكون: للتفضيل خير له من التهاون، أو التعظيم واحد من الخيرات التي ينتفع بها الحاج، فهو وعد من الله عز وجل أن يهبه هذا الخير إذا امتثل أمر الله وعظم هذه الحرمات، ويظهر أن هذا هو الأظهر وأنها ليست على التفضيل، لكن على كل حال قيل بالقولين والآية تحتمل هذين.

المسألة الثانية : قوله تعالى: { فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ } الرجس: الشيء القذر، والوثن: هو التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونحوها، وكانت العرب تنصبها وتعبدها، فنلاحظ ونعيد الكرة مرة بعد المرة أن القرآن يذم أحوال المشركين التي كانوا خرجوا فيها عن نهج الخليل عليه السلام الذي وضع هذا البيت، والنصارى كانت تنصب الصليب وتعبد، قال عدي بن حاتم: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال: (ألق هذا الوثن عنك) أي الصليب، وأصله من وثَّنَ

الشيء، أي أقام في مقامه، وسمي الصنم وثناً؛ لأنه ينصب ويركز في مكان لا يبرح عنه، فالحاصل أن المعنى: **{فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ}** أي اجتنبوا عبادة الأوثان.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: **{وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ}** الزور: هو الباطل، والكذب، وكل ما عدا الحق.

فهو زور سواء كان كذب أو باطل أو زور (من شهادة الزور ومن غيرها)، وإنما سمي زوراً -يعني هذه الأفعال القبيحة من الكذب، والباطل، والزور- سميت هذه الأقوال بالزور؛ لأنها تميل عن الحق، والازورار هو الميلان، قال الله تعالى: **{تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ}** أو **{تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ}** أو **{تَزَوَّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ}** كلها قراءات ثابتة في سورة الكهف في **{تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ}** أي تميل، فالحاصل أن قوله تعالى: **{وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ}** هو نهي عن القول الباطل.

✖ **ننتقل إلى قوله تعالى :**

{حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ} الخ الآية.

المسألة الأولى: قوله تعالى: **{حُنَفَاءَ لِلَّهِ}** هذا نصب على الحال، يعني افعلوا هذه الأفعال حالة كونكم حنفاء لله متبعين للملة الحنيفية السمحة. أي معناه: مستقيمين، أو مسلمين، مائلين إلى الحق، لأن الحنف هو الميل أيضاً، لكنه ميل من الباطل إلى الحق؛ بينما الزور ميل من الحق إلى الباطل، فهذا هو الفرق بين المفردتين، كلها ميلان لكن الزور ميل من الحق إلى الباطل بينما الحنف ميل من الباطل إلى الحق.

فقوله تعالى: **{حُنَفَاءَ لِلَّهِ}** كأنهم حينما داوموا على هذا العمل ولازموا الشرك وعبادة الأوثان صار هو الأصل عندهم، فأمرهم الله تعالى أن يميلوا عنه، وأن يذهبوا إلى الحق ويميلوا إلى الحق، فقال: **{حُنَفَاءَ لِلَّهِ}** أي: دعوا هذه الأعمال التي وجدتم عليها آباءكم ووجدتم أجدادكم ومن سبقكم عليها، إنما هي مما أحدثه الشيطان، ومما أحدثه الشرك، وأحدثته الجاهلية؛ فانصرفوا عنها واتجهوا إلى الحق.

↩ وقيل معنى حنفاء: أي حجاجا، وهو مخالف للأولى، لهذا قال الإمام القرطبي: هذا تخصيص لا حجة معه.

↩ فالحاصل أن حنفاء هو عموم الحق، ليس في الحجب فقط.

المسألة الثانية: قوله تعالى: **{وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ}**.

↩ هذا إما أن يكون يوم القيامة.

↩ وإما أن يكون عند خروج روحه وصعود الملائكة بها إلى السماء الدنيا، فلا يُفتح لها، فيرمى بها إلى الأرض.

هذان قولان ذكرهما الإمام القرطبي رحمه الله.

يقول: إن هذا بمنزلة من خَرَّ من السماء، فهو لا يقدر أن يدفع عن نفسه؛ لأنه ليس عنده ما يمكن أن يستعصم به أو يلوذ به، لكنه هو في الهواء، وهو لا يملك حولاً ولا قوة ولا طولاً فتقذفه الريح حيث شاءت يمناً ويسرة، وقال: **{فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ}** أي تقطعه بمخالبتها، وهذا فيه نكاية بهذا المشرك الذي بلغ به الشرك إلى هذا الحد.

✓ **الهدايات :**

١- خطر الشرك وعظم عقوبته، فالشرك هو موضوع هذه السورة من أولها إلى منتهاها، وخاصة ما يتعلق بموضوع الحج؛ لأن الحج إنما وضع لأجل إقامة شعائر الله، أي لأجل توحيد الله عز وجل ولأجل إقامة ذكره، وذكر الله هو توحيده، فلا يذكر في الحج إلا الله عز وجل ولا يذكر غيره، ولا يعظم غيره، بل التعظيم كله لله عز وجل، فلهذا تحدثت الآيات عن هذا الموضوع.

٢- أن شعائر الإسلام ليست شعائر جامدة، وإنما هي شعائر تمس حياة الناس وممارساتهم وتعاملهم، سواء أكانت المعاملة الشخصية أم المعاملة مع الآخرين، فقد سبق في الآيات السابقة في قوله تعالى: **{وَأَطِيعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ}** ما أشرنا إليه من وجوب

التعاطف بين المؤمنين.

٣- أثر الحج من حيث اجتناب قول الزور وشبهه، أي أن الحج يورث المؤمن القول الطيب والقول الحسن، ويعول على أخلاقه بالأفعال الطيبة، ويجنبه سبب الأخلاق، ويهديه إلى أحسن الأخلاق.

٤- في ما يتعلق بالأمور الشخصية: نجد أن الإسلام اعتنى بالنظافة، فالحج يدرّب المؤمن على أحوال عديدة، فحينما يكون ملتبساً بالحج، ويكون في العج والشج وفي حالة الشدة؛ هذا فيه تدريب له على الأحوال التي تكون فيها مشقة أو يكون فيها كلفة، مثل ما يكون في الجهاد في سبيل الله عز وجل؛ بينما في أحوال أخرى -وهي فيما عدا ذلك- ينبغي أن يكون على حالة نظيفة وحسنة، وهذا ما أشار الله إليه في قوله: **{ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ}** التفث: هو إزالة الوسخ. فهنا نجد عناية الإسلام بالنظافة، فالأصل أن يكون المسلم نظيف وأن ما يعلق به لا يدوم.

٥- النظافة الحسية والمعنوية التي يحث الإسلام ويحرض عليها أهل الخير، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن في معاملاته وفي أحواله، سواء أكانت شخصية أو مع الآخرين.

الحلقة (٥)

موضوع الحلقة تفسير الآيتين ٣٢، ٣٣ من سورة الحج.

وهما في سياق الحديث عن الحج في سورة الحج، والآيتان تتحدث عن التقوى والصلة الوثيقة بين تعظيم شعائر الله تعالى وبين إحياء جذوة التقوى في القلوب وما في ذلك من المنافع العظيمة، وفي قوله تعالى: **{ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ}** أي محل هذه الشعائر ينتهي إلى البيت العتيق.

الآيات:

قال تعالى: **{ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظَّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣)}**.

أوجه الوقف والابتداء في الآية: (١)

تلاحظون أنني لما أردت أن أقرأ هذه وصلت **{ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظَّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ}** وهذا طبعاً بالنظر إلى أن ابتدائي كان بتلاوة هذه الآية، وإلا فإنه إذا كانت التلاوة للآيات السابقة ثم تأتي هذه الآية في درج القراءة، فإنه يحسن الوقف على قوله تعالى: **{ذَلِكَ}**، كما أشرت في الدرس السابق عند قوله تعالى: **{ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظَّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ}**، وذلك أن اسم الإشارة هنا منقطع عما بعده؛ لأن الكلام يتم بالوقف عليه **{ذَلِكَ}**، بمعنى: ذلك أمر الله، أي ما قصصه عليكم من قبل هو أمر الله عز وجل.

ويجوز أيضاً على القطع أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداء محذوف، تقديره: "الواجب ذلك"، ويجوز أيضاً: "اتبعوا ذلك" أي: اتبعوا ما قصصته عليكم من قبل، أو ما ذكرته لكم في هذه الآيات؛ فلهذا يحسن الوقف على هذا الموضع، كما يحسن الوقف على **{ذَلِكَ}** في الموضع السابق، وسيأتي أيضاً موضع ثالث وهو في قوله تعالى: **{ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ}** هذا أيضاً يحسن الوقف عليه؛ لأنه منقطع عما بعده، ولأنه يتصل بمحذوف مقدر فلا يعرف هذا المحذوف إلا بالوقف عليه، وهذا بخلاف الآيات التي بعد هذه المواضع الثلاثة في مثل قوله تعالى: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ}**، فإن قوله تعالى **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ}** متصل بما بعده، هذا فيما يتعلق بالوقف.

وليس في القرآن من وقف يجب ولا حرام غير ما له سبب.

(١) هذا العنوان أضيف من قبل القائمين على إعداد المذكرة.

طبعاً هذه الوقوف هي وقوف استحسانية، وقوف تساعد في بيان وفهم معاني القرآن الكريم، لكن لو وصل القارئ أو وقف؛ وصل في ما ينبغي^(١) الوقف عليه، أو وقف في ما ينبغي الوصل عليه، فإن ذلك لا يؤثر في القراءة، ولا يؤثر في الرواية، لكنه خلاف الأولى.

ولهذا لو وقف الإمام على ما ينبغي وصله مما يعبر عنه القراء بالوجوب، أو وصل ما يعبر عنه القراء بلزوم الوقف؛ فإنه لا يفتح عليه، بل يترك؛ لأن تسمية القراء بالواجب في الوقف، أي حينما يقولون هذا الوقف واجب، أو هذا الوقف لازم، فإنهم لا يعنون به الوجوب الشرعي، وإنما هو - كما يقال - الوجوب الصناعي، يعني وجوب من حيث الصنعة التجويدية أو الوقفية، لا أنه يأثم القارئ بالوقف عليه.

✓ المسائل:

المسألة الأولى: لنا في اسم الإشارة {ذَلِكَ} ثلاثة أوجه:

١. أن يكون في موضع رفع بالابتداء، أي: ذلك أمر الله.
٢. أن يكون موضع رفع على خبر ابتداء محذوف.
٣. أن يكون في موضع نصب، أي: اتبعوا ذلك.

المسألة الثانية: قوله تعالى: {وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ} الشعائر: جمع شعيرة، وهو كل شيء لله تعالى فيه أمر أشعر به وأعلن؛ وكل ما جاء من الله عز وجل فحقه التعظيم والإجلال، إجلالاً لله عز وجل وتعظيماً له، فهو يستحق هذا التعظيم من هذا الوجه؛ من جهة أنه من عند الله عز وجل.

شعائر: منه شعار القوم في الحرب، أي علامتهم التي يتعارفون بها، ومنه إشعار البدنة، وهو الطعن في جنبها الأيمن حتى يسيل الدم فيكون علامة على أنه مسوق للحج ومسوق للحرم وبيت الله تعالى العتيق، كان العرب يفعلون مثل هذا، وهذا أقره الإسلام، بحيث أنهم يجعلون له علامة تدل على أنه لبيت الله العتيق، وأنه مساق على وجه التعظيم، وأنه قربة لله عز وجل؛ فيشعرونه بمثل هذا الذي ذكره الإمام القرطبي في الطعن، أو يعلقون به كما يعلقون النعال أكرمكم الله، أو ما شابه ذلك؛ لأجل أن يشيروا إلى أنه ينبغي أن لا يُعترض له لأنه حق الله عز وجل.

إذن شعائر الله: أعلام دينه، وهي ما جاء من الله عز وجل، ولا سيما فيما يتعلق بالمناسك، فكل ما جاء عن الله عز وجل فهو من شعائر الله، الصلاة من شعائر الله، والصيام من شعائر الله، والزكاة من شعائر الله، لكن كونها سيقّت هنا في هذا المساق فيدخل فيها دخولاً أولاً ما يتعلق بالمناسك، ولا شك أن تعظيم شعائر الله عز وجل يظهر في الأمور الظاهرة: في مثل ما يساق إلى البيت العتيق، وفي مثل الكعبة، وفي مثل المناسك العظيمة القائمة الظاهرة البينة، في مثل المواقع التي ينتقل فيها الحجيج من منى ومزدلفة، فكلها من شعائر الله عز وجل.

يقول الإمام القرطبي: فيه إشارة لطيفة، وذلك أن أصل شراء البدن ربما يحمل على فعل ما لا بد منه، - بمعنى أن الإنسان قد يشتريها لأجل أنها فرضت عليه أو وجبت عليه - قال: فلا يدل على الإخلاص، فإذا عظمها وأجلها، إجلالاً لله عز وجل، وتعظيماً له؛ لأنها سيقّت قربة لله، يقول: فإذا عظمها مع حصول الأجزاء بما دونه، فلا يظهر له عمل إلا تعظيم الشرع، وهو من تقوى القلوب.

(١) هنا قال الشارح: وصل ما لا ينبغي، فلعلة سبق لسان؛ لأن الصحيح: ما ينبغي.

إذن الناس يتفاوتون في أعمال الخير، فمنهم من يقدم عمل الخير على وجه الإجزاء، ومنهم من يراعي هذا العمل أو يراعي فيه الكمال بحيث يصل إلى أكمل الأمور، وأكمل الأمور فيما يتعلق بالعبادات هو أن تكون على وجه التعظيم، فمثال هذا: يصلي اثنان في وقت واحد، وفي مكان واحد، لكن هذا يخشع وهذا لا يخشع، فالذي يخشع فهو معظم لشعائر الله، معظم لهذه الشعيرة، لهذه الصلاة التي يؤديها، والذي لا يخشع فيؤدي أمراً واجباً عليه، لا بد أن يقوم به، فهو يؤديه، فلهذا نجد استعمالات القرآن فيما يتعلق بالصلاة مثلاً، أنه استعمل: {يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ} {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} {وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ} كما سيأتي في الدروس اللاحقة إن شاء الله، فهذا كله يدل على هذه الإشارة اللطيفة التي أشار إليها الإمام رحمه الله.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: {فَاتَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} الضمير في {فَاتَّهَا} يحتمل أن يعود إلى الكلام السابق ككل، تعظيم شعائر الله إنه من تقوى القلوب، أو إنها من تقوى القلوب، قد يُدَّكر الضمير وقد يؤنث؛ لأنه لو قال "ومن يعظم شعائر الله فإنه من تقوى القلوب" في غير القرآن يجوز لغة، لكن القرآن استخدم هذا؛ لأنه ليس مؤنث حقيقي؛ وإنما هو مؤنث مجازي يجوز فيه التذكير والتأنيث.

وقد يكون الضمير في إنها عائد إلى الشعائر وحدها، والشعائر كما قلنا من قبل هي جمع شعيرة، وحينئذ يستقيم الضمير (إنها) في تأنيثه مع اللفظة، يعني الشعائر من تقوى القلوب.

⇐ إذا التقدير الأول: تعظيم الشعائر من تقوى القلوب.

⇐ التقدير الثاني: الشعائر من تقوى القلوب.

والذي يظهر هو الأول، على أن نفس الضمير في الشعائر، حينما يعود إلى لفظة الشعائر، فإنه لا بد أن يقدر له محذوف، وهو المضاف لدلالة الكلام عليه، أي: فإن تعظيم الشعائر من تقوى القلوب.

إذن لدينا تقديران: التقدير الأول: أن يقدر على ما سبق، {فَاتَّهَا} أي تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب، أي: ما ذكرته لكم في أول الآية من تقوى القلوب فإنه من تقوى القلوب.

أو يقدر: الشعائر، يعني الضمير في {فَاتَّهَا} يعود إلى الشعائر وحدها، وحينئذ لا بد من تقدير المضاف ذلك المحذوف، أي: تعظيم الشعائر أيضاً من تقوى القلوب، فالحاصل أنها كلها في الأخير مؤداها مؤدى واحد.

فقوله تعالى: {فَاتَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} أي أن الذي يعظم شعائر الله عز وجل، فهذا من علامات تقوى القلوب.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: {فَاتَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} يقول: قرئ القلوب بالرفع على أنها فاعل بالمصدر الذي هو تقوى: (فإنها من تقوى القلوب) بمعنى: القلوب هي التي تنشئ هذا الشيء، فأضاف التقوى إلى القلوب؛ لأن حقيقة التقوى في القلب، ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (التقوى هاهنا) وأشار إلى صدره، وهذه قراءة شاذة، والقراءات الشواذ يستفاد منها في التفسير، ونعني بالقراءات الشواذ ما خرج عن القراءات المتواترة.

هناك قراءات متواترة وقراءات شاذة، القراءات المتواترة هي قراءات الأئمة العشرة التي وصلت إلينا متواترة جيلاً إثر جيل، وتتلقي بالمشافهة، وهي ما تضمنته العرضة الأخيرة التي قرأها الرسول صلى الله عليه وسلم ودارس بها جبريل عليهما السلام، وسيأتي نماذج منها من القراءات المتواترة في الدروس القادمة إن شاء الله تعالى عند قوله: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ}، لكن هذه القراءات الشاذة كما ذكر الإمام أبو عبيدة القاسم بن سلام: أنه يستفاد منها في التفسير، وأن أقل أحوالها أن تكون من الأحاديث الأحادية، أي يستفاد منها كما يستفاد من الأحاديث الأحادية التي تروى على غير وجه التواتر.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ} أي البُدن، لنا فيها منافع، مثل: الركوب، والنسل، والصوف، وغير ذلك، يقول المؤلف: فإذا صارت بُدناً هدياً فالمنافع أيضاً ركوبها عند الحاجة وشرب لبنها بعد ري فصيلها. كأنه يقول رحمه الله: أن البُدن

حتى وإن كانت هدياً فإن لنا فيها منافع أيضاً من ركوبها، ومن نسلها، ومن صوفها، أي أنه يستفاد من هذه الهدايا، وهذا من رحمة الله عز وجل بنا أن جعل هذه البدن مع أنها تقرب لله عز وجل وتوقف لله - عز وجل - إلا أنه جعل صاحبها ينتفع منها مادامت حية، وبعد ذبحها ما يكون من الأكل ونحو ذلك.

يذكر المؤلف حديث في الصحيح، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يسوق بدنة، فقال: (اركبها) فقال إنها بدنة، فقال: (اركبها)، فقال إنها بدنة!! -يقصد أنها للحج- فقال: (اركبها ويلك) في الثانية أو في الثالثة. قال: وروي عن جابر عن عبد الله. وسئل عن ركوب الهدي فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (اركبها بالمعروف إذا أُجِئَتْ إليها حتى تجد ظهراً).

المسألة السادسة: يرى بعض الفقهاء أنه يستفاد من ركوبها؛ لكن الركوب الذي لا يضر بها . قد يضر بها الركوب أحياناً إذا أُجِئَتْ، والأصل في الهدايا وفي الضحايا وما يُقَرَّب إلى الله عز وجل أنه يُسَمَّن ويُعَظَّم؛ لأن من تعظيم شعائر الله أنها تُسَمَّن، فإذا أُجِئَتْ بالركوب خاصة في الطريق في السفر وفي المشقة، فإن ذلك يُجهدُها ويؤثر على لحمها فيقلله ويقلل من قيمة هذه الدابة، فلهذا استفاد بعض الفقهاء من مفهوم هذا الحديث وما شابهه أنه يستفاد من ركوبها بالذات عند الحاجة إليها، فإذا لم يحتج إليها فإنه لا يركبها إلا في حالة الضرورة، ولهذا نجد في الحديث الآخر أنه جاء صريحاً، فالنبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يسوق بدنة وقد جُهد فقال: (اركبها) فالتعليل بأمره بالركوب من أجل ما أصابه من الجهد، وإلا لولا ذاك فإن الأولى أن يركب غيرها.

فلهذا يرى الإمام أبو حنيفة والشافعي إن أنقصها الركوب المباح بعض القيمة وقلل من قيمتها، قال: فعليه قيمة ذلك، ويتصدق به.

الإمام مالك رحمه الله يقول: لا بأس بركوب البدنة ركوباً غير فادح، والمشهور عنه أنه لا يركبها إلا إذا اضطر إليها لحديث جابر السابق.

قوله تعالى: {ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ} البيت العتيق سبق بيانه.

أما هنا فقوله تعالى في معنى الأجل المسمى، يقول رحمه الله: والأجل المسمى على هذا القول: نحرها، وهذا هو قول عطاء بن أبي رباح، {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى} يعني أنكم تنتفعون من هذه البدن إلى أجل مسمى، طبعاً هذا إذا قلنا إن الشعائر هي البدن فقط.

أما إذا كان المقصود بالشعائر سائر المناسك، فإن هذا يكون أعم.

المسألة السابعة: قال الإمام رحمه الله: قوله تعالى: {ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ} يريد أنها تنتهي إلى البيت، وهو الطواف، فقوله محلها مأخوذ من إحلال المحرم، قال: والمعنى أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق، فالبيت على هذا التأويل مراد بنفسه، وقال عطاء: ينتهي إلى مكة.

إذن قول عطاء حصرها على البدن، هناك القول الأول عند النحر، وهنا على مكة.

قال: وقال الشافعي: للحرم، يقول رحمه الله: وهذا بناء على أن الشعائر هي البدن.

يواصل الإمام القرطبي ويقول: ولا وجه لتخصيص الشعائر مع عمومها وإلغاء خصوصية ذكر البيت والله أعلم.

وهذا الذي يظهر من سياق الآية وهو أن تعظيم شعائر الله تعالى يتدرج في سائر المناسك إلى أن ينتهي إلى البيت العتيق بانتهاء

الحج.

الحلقة (٦)

موضوع الحلقة تفسير الآيتين ٣٤ و ٣٥ من سورة الحج.

الآيات:

قال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمُ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}.

صلة الآيات بما قبلها: ✓

كما تلاحظون أن هاتين الآيتين وثيقتا الصلة بما قبلهما، وقد تنبه لهذا الإمام القرطبي فقال: لما ذكر تعالى الذبائح بين أنه لم يُجْلِي منها الأمة.

إذا صلة هذه الآية: بيان أنه لما ذكر الحديث عن الذبائح الخاصة بهذه الأمة -أمة محمد صلى الله عليه وسلم- في منسك الحج؛ بين ما يكون أيضاً للأمم السابقة ممن سبق الخليل عليه السلام، وأنه جعل لهم مكاناً يجتمعون فيه، ومنسكاً يذكرون اسم الله عز وجل فيه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام.

وهكذا فإن الدين واحد، وإنما الأنبياء يأتون لِيُبَلِّغُوا هذا الدين، وليجددوا ما طرأ عليه مما يفسده الناس، وما يفسده الشيطان وأهل الجاهلية، فيأتي الأنبياء ويعيدون الناس إلى الدين الحق، ولهذا قال الله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [الآية (١٩) سورة آل عمران]، فدين محمد صلى الله عليه هو دين إبراهيم ودين نوح ودين آدم، هو دين واحد وإن اختلفت الشرائع على حسب ما يقتضيه الله تعالى من الحكمة، لكن الدين والمصدر الذي بُعث به الرسل وهو توحيد الله عز وجل كل الرسل يتفقون عليه.

المسائل: ✓

المسألة الأولى: في قوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا} قال رحمه الله: الأمة: القوم المجتمعون على مذهب واحد، أي: ولكل جماعة مؤمنة جعلنا منسكاً، والمنسك: الذبح وإراقة الدم.

إذا معنى الآية: ولكل قوم جعلنا منسكاً أي الذبح وإراقة الدم -طبعاً للأنعام-.
الذبيحة: وهي النسيكة، وجمعها: نُسُكٌ، قال تعالى: {أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ} والنسك يشمل أيضاً أنواع الطاعات، ولهذا يقال لأعمال الحج: مناسك.

يقول الأزهري في قوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا} إنه يدل على موضع النحر في هذا الموضع، فهذا يبين لنا إذاً أن المعنى: ولكل قوم جعلنا مكاناً يجتمعون فيه لذبح قربانهم لله عز وجل {لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ}، فالمنسك إذاً هو موضع النحر في هذا السياق.

وقيل: إن المناسك -مناسك الحج- في تسميتها قيل: لترداد الناس إليها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار.
رأي آخر في معنى المنسك وهو: المذهب، وهذا قال به الإمام ابن عرفة، أي مذهباً من طاعة الله، ويعني به: العبادات.
لكن كما يظهر أن رأي الأزهري أوجه؛ لأنه جاء بجوار من بهيمة الأنعام، فليس عموم الطاعات مرادة في هذا الموضع، ولهذا وإن كان المنسك يشمل سائر الطاعات؛ لكنه في هذا الموضع بالذات المراد به: المكان، والدليل على ذلك قوله: {عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} وهذا معروف عند المفسرين مما يُعرف بعلم السياق، وهو ما يكون من السباق واللاحق بحيث يحدد المراد من المعنى.

فالسباق: ما يسبق الآية، واللاحق: ما يلحقها، فهنا عندنا سباق ولاحق.

أما اللحاق: فهو قوله تعالى **{عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ}**.

وأما السباق: فقد ذكرت الأنعام في الآيات السابقة.

فإذن هذا معنى آخر ذكره الإمام ابن عرفة يقول: يقال: نَسَكَ قومه إذا سلك مذهبهم.

وقيل في معنى المناسك أيضاً معنى آخر قاله الفراء: منسكاً أي: عيداً.

وقيل: حجاً.

➤ **إذن عندنا في معنى المنسك عدة معاني، منها:**

⇐ المكان الذي ينحرف فيه.

⇐ المذهب.

⇐ ما يكون من أعمال الحج، من مناسك الحج لترداد الناس من الوقوف بعرفة ورمي الجمار.

⇐ أنه هو الحج ذاته.

وهذه كلها أقوال قريب بعضها من بعض، لكن أظهرها: القول الأول، وهو أنه موضع الذبح؛ لقول الله عز وجل: **{لِيَذْكُرُوا اسْمَ**

اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} أي على ذبح ما رزقهم، فأمر تعالى عند الذبح بذكره وأن يكون الذبح له.

فالإمام القرطبي يرى أن المنسك هو الذبح، ويظهر أنه قريب مما قاله الأزهري، سواء قلنا الذبح، أو موضع الذبح، لكن الشيخ

القرطبي رحمة الله عليه يرجح هذا المعنى؛ لقول الله تعالى: **{لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ}** أي لجعل المنسك وهو الذبح لأجل ذكر الله عز

وجل، فربما يكون ألصق وأقرب، وهو قول وجيه فيما رجحه الإمام القرطبي.

المسألة الثانية: قوله تعالى: **{قُلْ أَطِيعُوا}** معناه: لحقه ولوجه وإنعامه آمنوا وأسلموا، يقول المؤلف رحمه الله في تتميم هذا

الكلام: ويحتمل أن يريد الاستسلام، أي له أطيعوا وانقادوا.

ويظهر أن المعنيين متقاربين، فكأن المعنى الثاني المعنى اللغوي، والمعنى الأول هو المعنى الشرعي، وبعضهما يتمم بعض.

المسألة الثالثة: في ختام هذه الآية ذيلها الله بقوله عز وجل: **{وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ}** والمخبت: هو المتواضع والخاشع من المؤمنين،

وإنما سمي بهذا؛ لأن أصل الخبت ما انخفض من الأرض، فكأن المخبت يتواضع ويخشع لله عز وجل ويتطامن أمام قدرة الله

عز وجل وأمام عظمته، أي: بشرهم بالشواب الجزيل.

يقول الإمام مجاهد: المخبتون: المطمئنون بأمر الله عز وجل، وهو قريب من المعنى الأول.

ويقول عمرو بن أوس: المخبتون: الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا.

وهذا كله من هذا القبيل، كله من معنى الاطمئنان؛ لأنه مطمئن لمثوبة الله عز وجل وأن الله تعالى سيأخذ حقه وأن الله سيأجره

يوم القيامة على خشوعه واطمئنانه وثباته، وأن الله عز وجل يثيبه على تواضعه لله عز وجل، لا أنه محل للضعف والخور، وإنما

هو حينما لا يظلم وحينما لا ينتصر لنفسه؛ إنما هو يحتسب الأجر من الله عز وجل، فعلى هذا يؤجر.

✕ **الآية الثانية جاءت لتفسير آخر الآية الأولى:**

المسألة الأولى: **{وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ}** فسرهما الله عز وجل فقال: **{الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ**

وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} وهذا يعتبر من تفسير القرآن بالقرآن، ف **{وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ،**

أي نعتهم كذا وكذا، وهذه هي صفات المخبتين، كأن سائلاً سأل فقال: من هم المخبتون؟ فقال الله عز وجل: هم **{الَّذِينَ إِذَا**

ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ}.

ولهذا يحسن الوقف على قوله تعالى: **{وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ}**؛ لأجل أن تشتاق النفس، ويكون فيها ترغيب لمعرفة من هم هؤلاء

المختبين وما صفاتهم، فيقرأ القارئ: **{وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ}** ويقف؛ لينتظر هو والمستمع لكتاب الله عز وجل، ليتعرفا معاً على صفاتهم، فيتلو قول الله عز وجل: **{الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}** الآية، فهذا فيه نوع من التفنن والجمال في الأداء القرآني.

الصفة الأولى: وجل القلب، أي خافت وحذرت مخالفته، فوصفهم الله تعالى بالخوف والوجل عند ذكره، فهو حينما لا يظلم غيره أو لا ينتصر لنفسه ليس خَوْراً وجُبناً، وإنما يفعل ذلك خوفاً من الله عز وجل، عند ذكر الله عز وجل يخشع **{الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}** وصفهم الله تعالى بالوجل، كأنه بين يدي الله عز وجل.

الصفة الثانية: الصبر وإقامة الصلاة، وهنا نلاحظ التعبير بالإقامة دون الإدامة.

وقد ورد أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

والأظهر أنها أعم من هذا بكثير، فهم يدخلون فيها، وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولاسيما الخلفاء الأربعة، يدخلون دخولاً أساسياً، فهي تشمل أبا بكر وعمر وعلي وعثمان بن عفان وسائر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وسائر الصالحين، كل هؤلاء هم من **{الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}**.

➤ **القراءات في {الصَّلَاة} :**

➤ **قراءة الجمهور: {الصَّلَاة}** بالخفض على الإضافة.

➤ **وقرأ أبي عمرو في قراءة شاذة:** بالنصب على توهم التنوين، فهذا قول أو تقدير لقراءة النصب، وهذه القراءة هي

قراءة شاذة لا يُقرأ بها، وإنما يُستفاد منها في وجوه الإعراب. أما قراءته المتواترة كقراءة الجمهور على الإضافة.

المسألة الثانية: يذكر المؤلف أن هذه الآية نظير قول الله عز وجل: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ**

عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)} [سورة الأنفال] بالنظر إلى ما اشتملت عليه من بعض الصفات، فقال: وقوله تعالى: **{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَفْشِعُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ}** [الآية (٢٣) سورة الزمر] يقول رحمه الله: هذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الضغام من الزعيق والزئير ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير، فيقال لمن زعم ذلك وقال أن ذلك وجد وخشوع؛ إنك لم تبلغ أن تساوي حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حال أصحابه في المعرفة بالله تعالى والخوف منه والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالتهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله، وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه: **{وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ}**.

هذا ما يسمى بالنظائر، أنه يكون للآية آيات أخرى تشابهها في المعنى أو في بعض المعاني، فهنا ذكر المؤلف آية الأنفال: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}** وذكر آية الزمر: **{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَفْشِعُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ}** وذكر أيضاً آية المائدة: **{وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}**.

وقد ذم هذا الإمام رحمه الله أولئك الذين يبالغون في الخشوع فتصدر منهم بعض الأعمال وبعض الأفعال التي تلوتها عليكم قبل قليل من كلام الإمام القرطبي، وهذه الأعمال من الأمور التي حذر منها علماء السلف أمثال الإمام أبي عبيد القاسم بن سلام في كتابه "فضائل القرآن" فقد شدد النكير رحمه الله على هؤلاء واعتبر أن أعمالهم مخالفة لهدي السلف.

وهدي السلف هو هدي القرآن الكريم، وهذا ما نجده في كتاب الله عز وجل؛ أن المؤمن إذا خشع عند تلاوة كتاب الله عز وجل وعند سماع القرآن الكريم، فإنه يحصل عنده وجل في القلب واقشعرار في الجلد ودمع خفيف **{تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ}** فيضاً فقط، بدون صراخ ونياحة وهلع وفزع، فهذا هو ما ينبغي أن يكون عليه تالي القرآن الكريم، وما ينبغي أن

يكون عليه السامع لكتاب الله عز وجل؛ أن يكون على حالة من الخشوع، وكيف يكون مُحِبٌّ وهو على حالة أخرى؟! هكذا يقول المؤلف رحمه الله.

إِذَا الْإِخْبَاتِ هُوَ التَّوَاضُّعُ وَالْإِطْمِنَانُ، فالذي يصرخ ويفزع ويسقط هذا كله ليس من الهدى الصحيح، وما ورد عن بعض السلف؛ فإن أكثر هذه الروايات التي ترد هي روايات ضعيفة، والمعول عليه في كتاب الله عز وجل مما تلوناه عليكم من هذه الآيات، وهو ما يكون من اقشعرار الجلد ومن وجل القلب ومن فيضان الدمع بدون ما يتبع ذلك مما يفعله غلاة المتصوفة.

✓ الهدايات :

- ١- أن الذبح لا يكون إلا لله عز وجل، فما يفعله بعض السحرة أو بعض من يأتون إلى الكهان، فيتقربون بهذه الأشياء إلى غير الله عز وجل بغرض طلب الشفاء أو ما شابه ذلك، فإن هذا من الشرك الذي ذمه الله عز وجل.
- ٢- أن صفات المخبتين هي الصفات التي ذكرها الله عز وجل، فينبغي على المؤمن أن يحرص عليها، وهي: الوجل عند ذكر الله عز وجل، وإقامة الصلاة، والنفقة في سبيل الله، والصبر على المصائب.
- ٣- من الأدب الأمثل عند سماع الذكر هو الخشوع والسكينة {وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} ثم ذكر صفاتهم، ولا يكون ذلك مما ذمه هذا الإمام وغيره من علماء الإسلام.

الحلقة (٧)

موضوع الحلقة تفسير الآيتين ٣٦، ٣٧ من سورة الحج.

✓ الآيات :

قال تعالى : {وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)}.

✓ المفردات الغريبة :

■ وجبت جنوبها : وجبت أي سقطت ، ومنه يقال: وجبت الشمس إذا غربت.

■ القانع: هو السائل.

■ المعتز: هو الذي لا يسأل.



ما الفرق بينهما؟ بين هذا ابن قتيبة في الغريب ، فقال: القانع : السائل، يقال: قنع، يقنع، قنوعاً، من الرضا.

والمعتز: الذي يعتريك، أي يلم بك لتعطيه ولا يسأل، يقال: اعتراني، وعزني، يعني يلمح إلى ضعفه، ويظهر فيه الضعف، وتظهر فيه السكينة، لكنه لا يصرح بهذا، إنما يكون هذا على وجه الاستحياء، وهذا يكون في الغالب في الخدم والضعفاء وأصحاب الدخول القليلة، فهؤلاء يلاحظ فيهم هذا الشيء، بينما السائل هو الذي يطلب بالسؤال مباشرة، وهذا هو القانع.

✓ المسائل :

المسألة الأولى : نلاحظ أن هذه الآية استهلّت الحديث بالبدن ، فما هي البدن؟

البدن: واحدها بدنة، كما يقال: ثمرة وثمر وثمر، وخشبة وخشب وخشب.

نقول "البدن"، و"البدن"، والقراءة المتواترة بإسكان الدال.

لماذا سميت بدن أو بدنة؟ لأنها من السمن، فيقال: فلان بدین أي سمين، فالإبل جعلها الله عظمة الخلق، كما قال تعالى: {أَفَلَا

يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧)} [سورة النبا] ، فسميت بدنة؛ لأنها تبذن، أي لأنها تسمن، وهذا ليس في الإبل فقط، يكون أيضًا في البقر وسائر الأنعام، فلهذا قيل في معنى البُذْن معاني أخرى غير الإبل، وسيأتي الحديث عن هذا في المسألة التالية. فالحاصل أن البُذْن هي من السَّمن.

المسألة الثانية: هل تطلق "البُذْن" على غير الإبل؟

المشهور طبعاً أن البدن هي الإبل، وعلى هذا أكثر العلماء.

بينما ذكر المؤلف -رحمه الله في المسألة الثانية- اختلاف بعض العلماء في هذا، فيرى بعضهم أنها تطلق على البقر أيضاً، وهذا قول لبعض العلماء، لكن الصحيح ما ذهب إليه الإمام الشافعي وعطاء وغيره، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: **(من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة)**. إذا هناك فرق، فالمقصود بقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يُقرب أولاً الإبل، وما يُقرب ثانياً البقر، وفرق بين الإبل والبقر.

أيضاً مما يدل على هذا ما قررنا في الدرس الماضي وهو ما يكون من السياق والدِّهاق، فهنا نلاحظ للدِّهاق، **{فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا}** هذا لا يكون إلا في الإبل لأنها تنحر قائمة في السَّنة، وإن كان المستعمل الآن أنها تنحر قاعدة أو باركة، لكن السَّنة أنها تنحر قائمة على ثلاث قوائم، معقولة رجلها اليسرى الأمامية، -كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله-، بينما البقرة تضجع، بمعنى أنها تنحر وهي مضطجعة كالشيء، فلهذا نقول أن المقصود بالبُذْن في هذه الآية هي الإبل.

وفي تخصيص البدن بالذكر دون ذكر البقر والغنم؛ لما فيها من الخلق العظيم، ولما فيها من بديع الصنع لله عز وجل؛ لأن هذه الإبل لا تشابهها كثير من الحيوانات، فالبقرة قد يشابهها أصناف أخرى، والغنم قد تشابهها أصناف أخرى، لكن الإبل لها خصائص ومزايا ظاهرة وباطنة لا توجد إلا في هذا النوع من هذا الخلق العظيم، ولهذا أمرنا الله تعالى أن ننظر فيه، وأن نتفكر فيه، وهو من العلامات الدالة على وحدانية الله عز وجل وعلى عظمته؛ إذ ذل هذا المخلوق مع كبر حجمه، ومع خطورته وشراسته، إلا أنه جعله ذليلاً ومذللاً في يد الإنسان الذي هو أصغر منه حجماً وأقل منه قوة.

هناك رأي ثالث يرى أن البدنة تشمل أيضاً الغنم، وهذا حكي عن ابن شجرة، أنه يقال في الغنم بدنة، وهذا قول شاذ.

فالحاصل أن البُذْن هي الإبل التي تهدى للكعبة.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: **{مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ}** نص في أنها بعض الشعائر، يعني هذه البُذْن هي من شعائر الله التي ذكرها الله تعالى في الآية السابقة: **{ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢)}**.

قلنا أن الأظهر في الشعائر العموم، هنا جاء التخصيص بعد العموم، جاء تخصيص البُذْن بأنها من شعائر الله، وهذا بعض من تلك الشعائر، ولهذا قال المؤلف: نص في أنها بعض الشعائر، وإنما خصت بالذكر لعظم خلقها.

{لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ} يريد به المنافع التي تقدم ذكرها.

ما هي المنافع التي تقدم ذكرها؟ منها: الركوب، ومنها ما يكون من النسل وما يكون من الحليب، وما يكون من وبرها، وغير ذلك مما يستفاد منه، هذه هي المنافع الظاهرة، لكن هناك منافع أخرى أيضاً وعد الله بها.

فإذا قوله تعالى: **{لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ}** هو يشمل خير الدنيا والآخرة.

أما خير الدنيا فهو ما يكون من درها وحليبها ونسلها وما شابه ذلك مما ذكرناه قبل قليل، وما يكون أيضاً بعد ذبحها من أكلها والاستفادة منها ومن منافعها هذا كله يستفاد منه في الدنيا.

وأما نفع الآخرة فهو الثواب العظيم الجزيل الذي يمنحه الله عز وجل للمتقين الذين يقربون هذه الأعمال لله دون ما سواه.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: **{فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ}** أي اغزوها على اسم الله عز وجل، وهذا مضى الحديث عنه عند

قوله تعالى: **{لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ}** ومعنى صواف: أي قد صفت قوائمها. والإبل تنحر قائمة معقولة، أي رجلها اليسرى، يقول رحمه الله: والبعر إذا أرادوا نحره تعقل إحدى يديه، فيقوم على ثلاث قوائم، بمعنى يجوز أن تعقل إحدى الرجلين الأماميتين إما اليمنى أو اليسرى، والذي يحفظ عندنا في المذهب الحنبلي هو أنها تعقل الرجل اليسرى الأمامية، بمعنى القائمة الأمامية.

هنا قول شاذ للإمام عطاء: يقول: يستحب نحرها باركة، وإنما أتى الشذوذ من جهة الاستحباب [كونها مستحبة]، بل المستحب أنها تنحر قائمة، ويدل على هذا كتاب الله عز وجل: **{فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ}** أي صافة قوائمها، ولهذا قال الإمام القرطبي والصحيح ما عليه الجمهور لقوله تعالى: **{فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا}** وهذا نص صريح.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: **{وَجَبَتْ جُنُوبُهَا}** يريد إذا سقطت على جنوبها ميتة، وقلنا: الوجوب هو السقوط، كما يقال: وجبت الشمس.

والوجوب للجنب بعد النحر علامة نزف الدم وخروج الروح منها، وهو وقت الأكل، أي وقت قرب الأكل؛ كأن فيه حذف مضاف، فقوله تعالى: **{فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا}** ليس المعنى أنها بمجرد أن تسقط أنه يؤكل منها؛ لأنها إذا سقطت فإنها تحتاج إلى وقت لأن تنزع منها الروح، وتحتاج إلى وقت لتسلخ، وتحتاج أيضاً إلى وقت لتطبخ، وإن كان الكبد يجوز أكله نيئاً، ويستساغ أيضاً كذلك، لكن الأصل في اللحم أنه لا يؤكل إلا مطبوخاً، فهذا من وجوه الاختصار في أساليب اللغة؛ لأنه مما يعلم، فإذا قوله تعالى: **{فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا}** أي إذا سقطت، أي وقت قرب أكلها، فكلوا منها. حتى السليخ لا يكون إلا بعد أن تبرد قليلاً لأجل ألا تعذب، ولهذا قال عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه-: لا تعجلوا الأنفس أن تُرهِق.

المسألة السادسة: قوله تعالى: **{فَكُلُوا مِنْهَا}** مضى معنا في درس ماض في أول آيات الحج أن الأمر على الندب، أي الاستحباب، ولهذا يستحب أن يأكل الإنسان من هديه؛ لأن فيه أجر، وامتنال لأمر الله عز وجل في قوله: **{فَكُلُوا مِنْهَا}**؛ فهذا الأمر للاستحباب؛ لأن أهل الجاهلية كانوا يحرمون على أنفسهم أكل الهدايا والضحايا؛ لأنهم يرون أنها تقرب لقرابينهم فلا يمسونها، فلهذا جاء الإسلام بتصحيح هذا الفهم وإعادة الناس على الملة الحنيفية السمحة.

❖ في قوله تعالى في الآية التالية **{لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا.....}** عدة مسائل كما ذكر الإمام القرطبي.

المسألة الأولى: كان من عادات الجاهلية أنهم لا يأكلون من اللحوم، أيضاً كان من عاداتهم أنهم يلطخون الكعبة بدم قرابينهم، فعطف الحديث عز وجل على ذم هذه الحالة وبيان الحالة الحقيقية التي يريد بها الله عز وجل؛ وهي تقوى القلوب، فقال: **{لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤها وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ}** أي لا يصل إلى الله عز وجل ما تلطخون به الكعبة من دماء البدن التي تذبحونها.

✓ سبب نزول الآية:

يقول الإمام -رحمه الله- قال ابن عباس: "كان أهل الجاهلية يضرخون البيت بدماء البُدن، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك فنزلت الآية".

يقول رحمه الله: المعنى: لن يصل إليه. قال ابن عباس: أي لن يصعد إليه. وقال ابن عيسى: لن يقبل لحومها ولا دماءها، ولكن يصل إليه التقوى؛ أي ما أريد به وجه الله، فذلك الذي يقبله ويرفع إليه، ويسمعه، ويثيب عليه؛ ومنه الحديث: **(إنما الأعمال بالنيات)**. أي أن الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى هذه الدماء واللحوم، كما قال: **{لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤها}** أي لن يصل إلى الله تلك اللحوم والدماء، فاللحوم والدماء هي الفاعلة "الفاعل مؤخر" وتقدير الكلام: "لن تنال اللحوم والدماء الله". فنلاحظ أنه عبر بالياء، ويجوز في قراءة أخرى كما في قراءة يعقوب "لن تنال الله لحومها ولا دماؤها" وهذا من المؤنثات المجازية

التي يجوز فيها التذكير والتأنيث.

ولهذا ذكر الإمام رحمه الله قال: والقراءة (لن ينال الله) و (يناله) بالياء فيهما. وعن يعقوب بالتاء فيهما، وهي قراءة متواترة، وهي القراءة الثامنة بعد القراءات السبع المشهورة.

المسألة الثانية: قوله تعالى: {كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ} يقول الإمام القرطبي: مَنْ سَبَحَانَهُ عَلَيْنَا بِتَذْلِيلِهَا وَتَمَكِينِنَا مِنْ تَصْرِيفِهَا وَهِيَ أَعْظَمُ مِنْهَا أَبَدَانًا وَأَقْوَى مِنْهَا أَعْضَاءُ، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ الْعَبْدُ أَنَّ الْأُمُورَ لَيْسَتْ عَلَى مَا تَظْهَرُ إِلَى الْعَبْدِ مِنَ التَّدْبِيرِ، وَإِنَّمَا هِيَ بِحَسَبِ مَا يَرِيدُهَا الْعَزِيزُ الْقَدِيرُ، فَيَغْلِبُ الصَّغِيرَ الْكَبِيرَ لِيَعْلَمَ الْخَلْقُ أَنَّ الْغَالِبَ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ فَوْقَ عِبَادِهِ. وَهَذَا أَشْرُنَا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ.

المسألة الثالثة: وهي قوله تعالى: {لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ} أي فعلنا ذلك ليس لأجل أن تصل هذه الدماء واللحوم؛ ولكن لأجل إحياء ذكر الله عز وجل، فلهذا يستحب أن يقول عند ذبحه "بسم الله، والله أكبر"، ويجوز أن يقول "اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا مِنْكَ وَلَكَ"، فهذا كله من ذكر الله عز وجل.

وأما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فإن هذا مما لم يرد ولم يثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلي ويسلم على نفسه عند الذبح، وما ورد عن الإمام مالك أنه كره "اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا مِنْكَ وَلَكَ" فلعله لم يصل إليه الحديث الوارد عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أنه حينما ذبح قال: (اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا مِنْكَ وَلَكَ، عَنْ مُحَمَّدٍ وَأُمِّهِ). وكان الإمام مالك وقفاً عند النصوص، فلعله لم يصل إليه هذا النص.

في ختام هذه الآيات تأتي البشارة القرآنية، البشارة الربانية، {وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} (١)، وهنا تتوالى البشائر، فكانت البشارة الأولى في المختبين {وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ}، وهنا {وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} وهذه درجة أعلى؛ لأن الإخبات هو نوع من الإحسان، أما الإحسان فهو أعلى الدرجات، يقول الإمام رحمه الله: روي أنها نزلت في الخلفاء الأربعة؛ حسبما تقدم في الآية التي قبلها. فأما ظاهر اللفظ فيقتضي العموم في كل محسن، وهذا ما قررناه سابقاً.

الحلقة (٨)

موضوع الحلقة تفسير الآيتين ٣٨، ٣٩ من سورة الحج.

الآيات:

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} (٣٨) أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} (٣٩) (٢).

سنلح بعون الله تعالى إلى بيان القراءات التي اختلفت مع قراءة حفص في ثنايا هذا الدرس، وهي: "يدفع، أذن، يقاتلون".

✓ سبب نزول الآيات:

نزلت بسبب أن المؤمنين لما كثروا في مكة وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة؛ أراد بعض مؤمني مكة أن يقتل من أمكنه من الكفار ويغتال ويغدر ويحتال، فنزلت هذه الآية {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} (٣٨). إذا سبب نزول هذه الآية يبين لنا المعنى العام لهذه الآية وما بعدها أيضاً، وإن كان لها سبب نزول آخر في المدينة سيأتي بيانه.

(١) الأستاذ قال: "وبشر المختبين" فلعله سبق لسان.

(٢) قرأ المحاضر الآيات بقراءة ابن كثير؛ لأجل بيان بعض القراءات، {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} (٣٨) أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} (٣٩) هذه هي الآيات بقراءة ابن كثير، ولسماع الآيات يرجى الرجوع للمادة الصوتية.

✓ المعنى العام للآيتين :

يبين الله تعالى أنه يدفع ويدافع عن المؤمنين بأن يحميهم وينصرهم ، وهو لا يجب كل خوان كفور ، لا يجب من اتصف بهاتين الصفتين ، ثم إنه سبحانه وتعالى قد أباح للمؤمنين قتال الكافرين بسبب ظلمهم ، ووعد بنصرهم في قوله تعالى : **{وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)}**.

هنا نلاحظ أن المؤمنين لما أرادوا أن يغتالوا وأن يحتالوا على المشركين - حينما آذوهم واعتدوا عليهم وتسببوا في إخراجهم من ديارهم - ؛ أرادوا أن ينتقموا ، لكن على وجه لا يحبه الله عز وجل ، فنهاهم الله تعالى عن ذلك ؛ لأنه - كما بينت لكم في سبب نزول هذه الآية - فأراد بعض مؤمني مكة أن يقتل من أمكنه من الكفار ويغتال ويغدر ويحتال ، فنزلت هذه الآية إلى قوله تعالى : **{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)}**.

وهذا تصديقه في حديث رسول صلى الله عليه وسلم : **(أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك)** ، وهذا هو أدب الإسلام ، يري المؤمن على أن يتعامل بأخلاقه لا أن يتعامل بأخلاق الآخرين ، بأخلاق السمو ، بأخلاق التوحيد ، يتعامل بأخلاق الخير والسماحة واليسر ؛ أما أن يواجه من يواجهه بالسباب والشتم أو بالإيذاء ، فإنه ليس ذلك من أخلاق أهل الإيمان ، ولذلك قواعد في هذا الدين منها هذه القاعدة التي بينها هذه الآية ، وأيضاً بينها قول الرسول صلى الله عليه وسلم : **(ولا تخن من خانك)** . فإذا أؤذي الإنسان في ماله أو في نفسه أو في أهله ، فإنه ينبغي عليه أن يرفع ذلك إلى ولي الأمر وهو الذي ينتصر له ، لا أن تكون الحياة حياة الغاب .

☑ يذكر الإمام القرطبي في معاني هذه الآيات ثلاثة معاني ، وهي :

المعنى الأول : يقول رحمه الله : فوعد فيها سبحانه بالدفاع ، ونهى أفصح نهي عن الخيانة والغدر .

المعنى الثاني : وقيل : المعنى يدافع عن المؤمنين بأن يديم توفيقهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم ، بمعنى أن الله تعالى يحفظ على المؤمنين إيمانهم ويثبتهم فلا يقدر الكفار على إمالتهم عن دينهم ، وإن جرى إكراه فيعصمهم الله حتى لا يرتدوا بقلوبهم ، إذا المعنى الثاني : إدامة التوفيق وثبات الإيمان .

المعنى الثالث : وقيل : يدافع عن المؤمنين بإعلائهم بالحجة .

وهذه المعاني كلها معاني متنوعة لا تعارض بينها ، فالله تعالى وعد بالدفاع ، وأيضاً يدفع عن المؤمنين بأن يديمهم ويثبتهم على الإيمان ، ويدفع عن المؤمنين بإعلاء الحجة ، وكل هذا يمكن أن يتحقق للمؤمنين في آن واحد ، فهذه المعاني لا تعارض بينها ، وإنما هي معاني تنوع ، والآية تحتمل جميع هذه المعاني .

☑ القراءة في {يدافع} ، {ويدفع} قراءتان :

☞ ف **{يُدَافِعُ}** فيها مفاعلة ، كأنها مفاعلة بين الله عز وجل وأولئك الكافرين ؛ لأنه لما قابلوا الله عز وجل بالكفران وقابلوه بالجحود وبالاعتداء ، كأنهم في قوة المدافعة مقابل الله عز وجل وخابوا وخسروا .

☞ بينما على القراءة الأخرى : **{إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا}** لأن هناك فرق بين الدفعين ، فدفع الله عز وجل لا يقارن بمدافعة الكفار ، فهو دفع عظيم ومنصور ودفع حقيقي ودائم وثابت ، دفع حق يدحض الباطل ويدمغه فإذا هو زاهق ، وعلى كل حال القراءتان معناهما لا تعارض بينهما .

وهذا هو الأصل في القراءات ، أن لا يتعارض بعضها مع بعض ؛ فهي إما أن يتم بعضها بعضاً في المعنى ، وإما أن تأتي لمعاني أخرى ، كل معنى يؤدي غرضاً لا يتعارض مع المعنى الآخر ، وكذا القول في الأقوال الواردة عن أهل التفسير ، فمهما اختلفت أقوالهم - وخاصة ما يرد عن الصحابة والتابعين - فإنه يكون من قبيل اختلاف التنوع والتغاير لا أن يكون من قبيل

اختلاف التناقض والتضاد .

✳ الآية التاسعة والثلاثون :

هي قول الله عز وجل : **{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ}** قرأتها عليكم بقراءة ابن كثير : **{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ}** وكلاهما قراءتان متواترتان.

✓ المسائل :

المسألة الأولى : بيان قوله تعالى : **{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا}** ، يعني المدافعة كما ذكرنا عدة وجوه ، ذكر الإمام ابن القرطبي رحمه الله ثلاثة وجوه منها ، وهذه الآية التالية هي أحد هذه الوجوه ، **{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ}** أو أُذِنَ الله للذين يقاتلون ؛ لأنه إذا قرأنا "أُذِنَ" علمنا أن الذي أذن هو الله عز وجل ، بمعنى علمنا أن النائب ما لم يسمى فاعله في قوله تعالى : "أُذِنَ" هو الله عز وجل لدلالة قوله تعالى : **{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا}** .

فمن وجوه المدافعة عن الذين آمنوا أن يدفع عنهم غوائل الكفار بأن يبيح لهم القتال وينصرهم ، فأباحه الله تعالى القتال لمن اعتدى عليهم من الكفار هو وجه من وجوه المدافعة ، وهذا بعد أن قويت شوكة أهل الإيمان ؛ لأنهم في أول الإسلام - كما في الآية الأولى التي نزلت بسبب هجرة بعض المؤمنين إلى الحبشة - لم تكن لهم شوكة ، ولم تكن لهم قوة يناهضون بها الكفار ، فلهذا لما قويت شوكتهم بعد ذلك - في الآية التالية وهي فيما يختص بـ "بعد هجرتهم إلى المدينة" كما سيأتي بعد قليل إن شاء الله - أذن الله تعالى لهم ؛ فهذا الإذن جاء بعد إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، وكان حين ذاك قد بدأت تقوى عزيمة الإسلام بسبب ما دخله من المسلمين ؛ لأنه كانت لهم المدينة المنورة - مدينة الإسلام - وهناك كانت لهم عوامل القوة أكثر مما كانت في مكة .

وهذا يدل على أن الأسباب معتبرة في الدين وأن الله تعالى أمر بأخذ الأسباب ، فحينما لم تكن الأسباب متوافرة في أول الإسلام لقتال الكفار أمرهم الله تعالى بالكف مع نهيهم عن الغدر والخيانة في كل حال ، أما حينما قويت شوكتهم أذن الله تعالى لهم بالقتال مع بقاء النهي الفصيح عن الغدر والخيانة .

يقول الله تعالى : **{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ}** أي : أذن الله للذين يصلحون للقتال في القتال ، كأنه يوجد محذوف دل الكلام عليه . يقول الإمام الضحاك المفسر : "استأذن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال الكفار إذ آذوهم بمكة ، فأنزل الله : **{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ}** ، فلما هاجر إلى المدينة نزلت **{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا}** . وهذا ناسخ لكل ما في القرآن من إعراض وترك صفح .

إذا كلام الضحاك يدل على أن الآية الأولى كانت في الهجرة الأولى ، بينما الآية الثانية كانت في الهجرة إلى المدينة وهي التي نحن بصدددها .

أما قول المفسر بعد قول الضحاك "وهذا ناسخ لكل ما في القرآن من إعراض وترك صفح" ، فهذا ليس على إطلاقه ، فإنه يبقى موضوع الإعراض وترك الصفح على بابيه ؛ لأن هذا من مبادئ الإسلام الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل مهما كان الأمر ، ولهذا صفح الله تعالى وصفح رسوله صلى الله عليه وسلم عن المشركين في أوج قوة أهل الإيمان حينما دخل الرسول صلى الله عليه وسلم فاتحاً مكة .

قال ابن عباس وابن جرير : نزلت عند هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، يريد قوله تعالى : **{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا}** .

وروي النسائي والترمذي عن ابن عباس قال : لما أخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم

لِيَهْلِكُنْ ، أي ليهلكن أهل قريش الذين أخرجوه ، فأنزل الله : **{أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)}** فقال أبو بكر : لقد علمت أنه سيكون قتال ، فقال هذا حديث حسن .

وهنا نجد سر عجيب من أسرار القرآن الكريم ، تلاحظون الآيتين وما بينهما من التناسق والترابط الوثيق في قوله : **{إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)}** **{أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظُلِمُوا}** وكأن الآيتين نزلتا في وقت واحد لما بينهما من الترابط والتناسق اللفظي الأدائي الجميل ، وهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم فإنه مع طول الزمن ومع طول الفترة إلا أنه لم يتغير شيء في الكلام ؛ لأنه كلام الله عز وجل ، وهذا - والله المثل الأعلى - بخلاف أي أحد ، لو أن مؤلفا ألف كتابا واحدا فقط لوجدت أن أوله يختلف عن آخره ، فما ظنك لو أنه ألف هذا في وقت الشباب ثم ألفه بعد خمسين سنة أو ستين سنة !! ستجد فرقا كبيرا بين الأسلوبين .

أما القرآن العظيم فإنه نزل من عند الله عز وجل ، تكلم به سبحانه وتعالى ولقنه جبريل عليه السلام ونزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور إلى السماء الدنيا ، ثم بعد ذلك نزل نجوما ومفرقا على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال مدة بعثته إلى أن توفي في ثلاثة وعشرين عاما ، فهذا يدل على أنه قد نزل جملة واحدة في ذلك الوقت أي في أول الوحي ، ثم بعد ذلك نزل نجوما ومفرقا على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم على حسب الأحداث والحاجات .

المسألة الثانية : يقول رحمه الله : في هذه الآية دليل على أن الإباحة من الشرع ؛ لأن قوله تعالى : "أَذِنَ" معناه أبيع ، وهو لفظ موضوع في اللغة لإباحة كل ممنوع ، إذن هذه الآية دليل على أن الإباحة من الشرع ، وهذا طبعاً مذهب أهل السنة والجماعة خلافا للمعتزلة .

✓ القراءات :

❖ " أذِن " :

⇐ قرأ الجمهور " أذِنَ " بضم الهمزة .

⇐ وابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة والكسائي (الأخوان) ، وخلف ، يقرؤون " أذِنَ " بفتح الهمزة .

❖ يقاتلون :

⇐ يقاتلون : قرأ ابن كثير ، وأبي عمر ، وشعبة ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف ، ويعقوب ، بكسر التاء .

⇐ يقاتلون : قرأ الباقر بفتح التاء .

هذا يؤكد لكم ما ذكرته في أول المحاضرة من أن القراءات يتم بعضها بعضاً ، فلدينا القراءة " يقاتلون " أنه وقع عليهم القتال ، ثم قال : **{أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ}** أي أنهم حينما وقع عليهم القتال قاتلوا ، فبالنظر إلى ما وقع عليهم يكون القراءة بـ " يقاتلون " وبالنظر إلى مقابلتهم هذا الظلم بقتال آخر لدفعه تكون القراءة الأخرى .

فإذا القراءات يكمل بعضها بعضاً ، قراءة يقاتلون ويقاتلون هم قوتلوا أولاً ثم قاتلوا ، يقول رحمه الله : يقاتلون بكسر التاء أي يقاتلون عدوهم ، وقراءة يقاتلون بفتح التاء أي يقاتلهم المشركون ، ولهذا قال بأنهم ظلموا ، أي أخرجوا من ديارهم .

✓ الهدايات :

١- حماية الله عز وجل المؤمنين والدفاع عنهم ، وبغض الله عز وجل الخيانة والغدر والتحذير منها أشد التحذير .

٢- وعد الله عز وجل بنصرة المظلوم .

٣- منهج الإسلام في تبليغ الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة إلا إذا اعتدي عليه .

الحلقة (٩)

موضوع الحلقة : تفسير الآية ٤٠ من سورة الحج .

الآيات :

قال تعالى : {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (١).

صلة الآية بما قبلها :

هذه الآية صلتها وثيقة بالآية السابقة ، فإذا كان الله عز وجل ذكر أن المؤمنين أذن لهم بالقتال بسبب ظلمهم ، فقد ذكر الله تعالى وجه هذا الظلم ، أو جانباً من هذا الظلم وهو إخراجهم من ديارهم بغير حق . وهكذا نجد الآيات بعضها يربط بعض كما بينا في المحاضرة السابقة ، و بيننا كيف صلة {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا} وأن هذا نوع من المدافعة وهو أن الله أذن لهم بالمقاتلة، وهنا بيان وجه الظلم.

و المناسبات بين الآيات في القرآن الكريم من العلوم المعتمدة في علم القرآن الكريم وفي التفسير ، لكن لا ينبغي أن يكون هنالك مبالغة في استنباط المناسبات إلى حد التكلف ، لكن ما ظهر من وجوه هذه المناسبات فإننا نلمح إليه ونشير إليه ، وما لم يظهر فإنه قد عُني به بعض العلماء عناية فائقة واهتموا به ، ويمكن أن يرجع فيه إلى كتاب تناسق الدرر للإمام برهان الدين البقاعي، وقد ربط القرآن كله من أوله إلى آخره كلمة كلمة ، وجملة جملة ، و آية آية ، وسورة سورة ، وبيّن ما فيها من وجوه المناسبات.

المسائل :

المسألة الأولى : قوله تعالى : {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ} يقول المفسر : هذا أحد ما ظلموا به ، يشير إلى قوله تعالى في الآية السابقة {بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا} ، يقول رحمه الله : وإنما أخرجوا لقولهم ربنا الله وحده ، فقلوه : إلا أن يقولوا ربنا الله ، استثناء منقطع ، أي ؛ لكن لقولهم ربنا الله .

من أخرجهم ؟ أخرجهم أهل الشرك وأهل الأوثان ؛ لأن أهل الشرك وأهل الأوثان لا يطيقون الوجدانية لله عز وجل ؛ لأن هذا نفسٌ لجميع معبوداتهم وأوثانهم وأصنامهم التي ابتدعوها وورثوها من جاهلية آبائهم ، فلذلك ناصبوا المؤمنين بالعداء وقتلهم وأخرجهم من ديارهم ، بسبب مقولتهم ربنا الله .

القراءات في {دَفْعُ} :

← {ولولا دفاع الله} وهذه قراءة نافع .

← وقراءة بقية القراء : {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ} .

المسألة الثانية : {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} يقول المفسر رحمه الله في كلام محكم ورصين : "لولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما بنته أرباب الديانات من مواضع العبادات، ولكنه دفع بأن أوجب القتال؛ ليتفرغ أهل الدين للعبادة ، فالجهاد أمر متقدم في الأمم وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات، فكأنه قال :

(١) هذه الآية قرأها الأستاذ بقراءة نافع من رواية ورش ؛ لأجل بيان بعض القراءات.

هذه هي الآية بقراءة نافع : {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} ، ولسماع القراءة يرجى الرجوع للمادة الصوتية.

أُذِنَ بالقتال فليقاتل المؤمنون. ثم قَوِيَ هذا الأمر بالقتال بقوله: **{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ}** الآية، أي لولا القتال والجهاد لثَغُلِبَ على الحق في كل أمة، فمن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقض لمذهبه، إذ لولا القتال لما بقي الدين الذي يُذْبُ عنه، وأيضاً هذه المواضع التي اتَّخَذَتْ قبل تحريفهم وتبديلهم وقبل نسخ تلك الملل بالإسلام، إنما ذُكِرَتْ لأجل هذا المعنى، أي لولا هذا الدفع لهدمت في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد عليه السلام المساجد.

■ **{لَهْدَمَتْ}**: أي من هدمت البناء، أي نقضته فانهدم.

هذا كلام الإمام القرطبي وهو كلام نفيس وكلام دقيق - رحمه الله -، يبيّن أن القتال جاء في شريعة الإسلام على مرّ التاريخ، سواء كان في زمن محمد صلى الله عليه وسلم، أو زمن الأنبياء من قبله، خلافاً لما يزعمه أهل الديانات الذين حرّفوا في دينهم وزعموا أن الجهاد إنما كان خاصاً بهذه الأمة -أي أمة محمد صلى الله عليه وسلم-، ذلك أن الدين في الحقيقة دين واحد، دين الله الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي بُعث به نوح، وهو الذي أُرسل به إبراهيم عليه السلام، وهو الذي أُرسل به موسى وعيسى وسائر الأنبياء، فبهذا أكّد المفسر على هذا المعنى وبيّنه في هذه العبارات التي سَطَّر بها بيان هذه الآيات - رحمه الله عز وجل -، ولهذا قال: "فالجهاد أمر متقدم في الأمم وبه صلحت الشرائع".

ثم ينقل رحمه الله **قول خويند منداد** - وهو أحد علماء المالكية -: يقول: تضمنت هذه الآية المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبيعهم وبيوت نيرانهم، ولا يتركون أن يُحْدِثُوا ما لم يكن، ولا يزيدون في البنيان لا سعةً ولا ارتفاعاً، ولا ينبغي للمسلمين أن يدخلوها ولا يصلوها فيها، ومتى أحدثوا زيادة وجب نقضها، ويُنْقَضُ ما وجد في بلاد الحرب من البيع والكنائس، وإنما لم ينقض ما في بلاد الإسلام لأهل الذمة لأنها جَرَتْ مجرى بيوتهم وأموالهم التي عاهدوا عليها في الصيانة ولا يجوز أن يُمَكَّنُوا من الزيادة لأن في ذلك إظهار أسباب الكفر، وجاز أن يُنْقَضَ المسجد ليعاد بنيانه وقد فعل عثمان ذلك بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم.

المسألة الثالثة: هذا الكلام من الإمام خويند منداد يشير فيه إلى ما وقع في البلدان من فتوحات، وذلك أن الفتوحات الإسلامية حينما جاءت إلى بعض البلاد، وجدت فيها بعض هذه المعابد، فهل تُنْسَفُ وتُغْفَلُ وتهدم، أم أنها تبقى؟

يقول ابن خويند منداد: أنها تبقى لكن لا يُزَادُ فيها ولا يُرْفَعُ بانيانها، أما بلاد الإسلام التي من أصلها بلد إسلام وليس فيها هذا الشيء أصلاً، فإنه لا مجال لهذا الحديث؛ لأنها لا يجوز إنشاؤها أصلاً.

المسألة الرابعة: القراءات في {لهدمت}:

⇐ **{لَهْدَمَتْ}** هذه التي قرأت لكم فيها.

⇐ القراءة الثانية هي قراءة **{لَهْدَمَتْ}**، وكلاهما بمعنى واحد؛ لأن هُدِّمَتْ: جاءت على صيغ المبالغة.

✓ المفردات الغريبة:

■ الصوامع: يقول ابن قتيبة: هي للصابئين، والأشهر أنها خاصة برهبان اليهود.

■ والصلوات: يريد بها كنائس اليهود، إذ أن اليهود لهم صوامع لرهبانهم، ولهم صلوات لسائر اليهود.

يقول رحمه الله: والبيع للنصارى، والمساجد للمسلمين.

إذاً أُخِصَّ لكم الكلام مرة أخرى فأقول: الصوامع: الأشهر أنها خاصة برهبان اليهود، والبيع خاصة بالنصارى، والصلوات هي كنائس اليهود، بينما المساجد هي كما هو معروف للمسلمين.

⇐ يقول الإمام القرطبي نقلاً عن النحّاس: **{يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ}** الذي يجب في كلام العرب على حقيقة النظر،

أن يكون **{يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ}** عائداً على المساجد لا على غيرها؛ لأن الضمير يليها، ويجوز أن يعود على الصوامع وما

بعدها، ويكون المعنى وقت شرائعهم وإقامتهم الحق".

إذا الإمام النحاس يريد أن يعيد الضمير في قوله تعالى : {يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ} ،

هل هو يعود إلى الصوامع ، أم إلى الصلوات ، أم إلى المساجد ؟

أولاً: يقول: الذي يجب في كلام العرب على حقيقة النظر، أن يكون {يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ} عائداً على المساجد لا على غيرها؛ لأن الضمير يليها". وهذه قاعدة عند أهل اللغة، أن الضمير يكون لأقرب مذكور، ولهذا نلاحظ أن الآية هكذا جاءت: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهَدَمْتُ صَوَامِعَ وَبِيَعٍ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدَ يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا}. ولهذا يمكن أن يُستحب الوقف على قوله تعالى: {لَّهَدَمْتُ صَوَامِعَ وَبِيَعٍ وَصَلَوَاتٍ} {وَمَسَاجِدَ يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا}، لكن هذا لم يوقفنا عليه المشائخ، وفيه شيء من التكلف كما يتبين لنا بعد قليل؛ لأنه مهما كان، فإن المساجد معطوفة على {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهَدَمْتُ صَوَامِعَ}، الكلام متصل به، فمتى كان الكلام متصلاً فلا ينبغي أن يُقطع أو تُقدَّر له التقادير المحذوفة.

ثانياً: قول آخر في عود الضمير ، يقول النحاس -رحمه الله- : "ويجوز أن يعود على صوامع وما بعدها" ، أي : {يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ} أي يُذكر في الصوامع والبيع والصلوات والمساجد، ويكون المعنى وقت شرائعهم وإقامتهم الحق". أي لما كانت ديانتهم في وقتها قبل مجيء الإسلام بخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، فقد كانت هذه معابد، وكان قائم فيها ذكر الله عز وجل، وكانت مقراً لعبادة الله عز وجل وإحياء ذكره، لكن بعد أن جاء الإسلام بشرائعه وبمساجده فإنه لا يُذكر اسم الله حينئذٍ إلا في بيوت الله عز وجل على ما أَرَادَهُ اللهُ لهذه الديانات ولهذا الدين؛ لأن الله تعالى يقول : {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الآية (٨٥) سورة آل عمران].

إذا الضمير إما أن يعود الضمير إلى أقرب مذكور وهي المساجد فقط ، وإما أن يعود على الصوامع وما بعدها بما فيها المساجد، والأظهر أنه يعود على الصوامع وما بعدها، لكن هنا أمر وهو أنه لا يمكن أن يعود إلى الصوامع وما بعدها دون المساجد ، هذا لم يقل به أحد، ولا يجوز .

المسألة الخامسة^(١): فإن قيل لم قُدِّمَت مساجد أهل الذمة ومصلياتهم على مساجد المسلمين ؟

قيل : لأنها أقدم بناء، وقيل لقربها من الهدم، وقرب المساجد من الذكر .

لكن هنا فائدة جيدة وهي لماذا أُخِّرَ ذكر المساجد ؟

نقول : أُخِّرَ ذكر المساجد لعلتين :

الأولى: من الناحية الوقوعية أو من الناحية الزمنية، فالمساجد في الحقيقة أتت بعد هذه المعابد من الناحية الزمنية؛ لأنها أتت مع مجيء الإسلام، بينما الصوامع وما بعدها- دون المساجد- أتت قبل الإسلام، ولهذا من الناحية الوقوعية ومن الناحية الزمنية أن المساجد جاءت متأخرة.

الثانية: أُخِّرَت المساجد لأجل أن يُعطف عليها اسم الله عز وجل، فنلاحظ أن هذا فيه نوع من المعاني اللطيفة والأساليب الرشيقة، حينما يجاور الاسم معنى معين أو صفة معينة، فإنها تكون أقرب شيء لهذا المذكور ، فحينما نقول: {صَوَامِعَ وَبِيَعٍ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدَ يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} فإن المساجد تكون هي أولى وألصق هذه الأماكن بذكر الله عز وجل ، فلهذا جيء بها متأخرة؛ لأجل أن تكون قريبة من ذكر اسم الله عز وجل .

هذه وجوه بلاغية يُشير إليها أهل التفسير في معانيهم، ويحاولون أن يستنبطوا ما فيها من وجوه الإعجاز وأسرار القرآن البلاغية،

(١) هذا الموضع جرى فيه تقديم وتأخير؛ لأجل الترتيب.

التي تكشف عن معاني القرآن وخفاياه .

فائدة ثالثة: أضافها الإمام رحمه الله ، وهي أن المساجد أقرب لذكر الله عز وجل فكانت أقرب في الذكر لها ، بينما لما كانت الصوامع أقرب للهدم وهي من الأقدم، ناسب أن تجاور الهدم قال: **{لَتَهْدَمْتُ صَوَامِعَ وَبَيْعٌ}**.

هذه كلها من النكت البلاغية - كما يقول العلماء - : " التي تُشَم ولا تعرك " ؛ لأنها عند التمحيص في حقيقة الأمر قد لا تكون بتلك القوة التي يُعتمد عليها ويؤسس عليها؛ لأنه قد يقال لنا إذاً فماذا عن هذا الذي توسط في الكلام؟ ماذا عن البيع و الصلوات؟ هذا قد يرد، ولهذا نقول هذه فوائد تُستنبط ويُستفاد منها .

و يقيس المؤلف على هذا ، كما أحرر السابق في قوله تعالى: **{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}** [الآية (٣٢) سورة فاطر] . فأحرر السابق بالخيرات؛ لأجل ذكر الفضل الكبير؛ لقربه من الفضل الكبير .

المسألة السادسة: ختام الآية : **{وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ}** أي من ينصر دينه و نبيه.

{إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ} أي : قادر . قال الخطابي : القوي يكون بمعنى القادر ، ومن قوي على شيء فقد قدر عليه .

والحقيقة أننا نثبت كل صفة على ما جاءت فنقول : إن لله صفة القوة بما يليق به عز وجل، فلا حاجة لأن تؤول صفة القوة إلى القادر، وإنما تبقى على ما هي عليه، وتكون القدرة أثر من آثار هذه القوة، أما ما جاء من صفات الله عز وجل مثبتاً في كتابه كما في هذه الآية أو في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإننا نثبتها على ما جرى . يقول المؤلف : **{عَزِيزٌ}** : أي جليل شريف، قال الزجاج ، وقيل: الممتنع الذي لا يرام .

الهدايات : ✓

١- فداحة ظلم المشركين وعداوتهم للمؤمنين، **{إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ}**؛ لأجل هذا يفعلون بهم هذه الفعلة الشنعاء، وكلكم يحفظ سورة البروج .

٢- عناية الله عز وجل بالمؤمنين، والحث على الدعوة ونشر الدين في قوله تعالى : **{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ}** .

٣- سماحة هذا الدين ويسره في أنه لم يُعَتَف على الديانات الأخرى، وما كان منها موجوداً فإنه يبقى حتى تغفو آثاره دون مصادمة للآخرين ودون معاندة لهم، فالإسلام جاء باليسر والسماحة، فذكر هذه المعابد هو نوع من الإقرار لها على ما كانت عليه قبل الإسلام، إلى أن يأتي الإسلام فتغفو آثار هذه المعابد، فتطمرها المساجد، ويبقى ذكر الله عامراً .

٤- أن هذا الدين واحد مهما اختلفت الشرائع ، وقد قررنا ذلك في ثانيا هذا الدرس و ما قبله.

الحلقة (١٠)

موضوع الحلقة : تفسير الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ من سورة الحج .

الآيات :

قال تعالى : **{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّ الْحَقَّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤) }** .

المعنى العام للآيات :

هذه الآيات وبالخصوص الآية الأولى من الآيات المُشكلة ، ويسمى ابن العربي النوع من هذه الآيات " الآيات المُعضلة "؛ لما وقع فيها من اختلاف كبير بين أهل التفسير ، وباختصار فإنَّ المعنى العام يتحدث في هذه الآيات عن الأنبياء والمرسلين الذين يُوحى الله إليهم عز وجل بما يوحيه إليهم من الذكر الحكيم ، ويذكر الله تعالى أنَّ هذا الشيطان يحاول أن يدس وأن يتكلم في هذا الوحي من خلال جنوده ، ليُخل ما يلقيه الله عز وجل على الأنبياء ، لكن هيهات هيهات ، إذ يُحكم الله تعالى هذه الآيات وهو الموصوف بالعلم والحكمة ، وإنَّ ما يفعله هذا الشيطان وأعدائه في حقيقة الأمر لا يؤثر على هذا الذكر ، ولا يؤثر على الأنبياء ولا على أتباع الأنبياء ، وإنَّما يكون أثره على من في قلوبهم مرض ، فهم الذين يزيدهم مرضاً إلى مرضهم ، ويزيد قلوبهم قسوة إلى قسوتها .

معاني الكلمات :

■ **{ تَمَتَّى }** : أي قرأ وتلا ، يعني وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيٍّ إلا إذا قرأ أو تلا .

■ **{ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ }** : أي في قراءته وتلاوته .

فالأمنية إذن التلاوة ، أي إذا قرأ النبي أو الرسول ، فإن الشيطان يُلقى في هذه القراءة وفي هذه التلاوة ما يلقيه ، لا أنَّ النبي يتكلم به ، وإنَّما هي محاولة من الشيطان ؛ لأجل أن يشوش على هذا الكلام ، لكن الله تعالى يدحض شبهته ويدمغها ويبقي كلام الله عز وجل محكمًا .

المسائل :

المسألة الأولى : قال العلماء : إنَّ قومًا يرون أنَّ الأنبياء صلوات الله عليهم فيهم مرسلون ، وفيهم غير مرسلين ، وغيرهم يذهب إلى أنه لا يجوز أن يُقال نبي حتى يكون مرسلًا ، هذا الكلام الذي ينقله الإمام القرطبي يريد أن يبحث فيه **{ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ }** ، **فهل الرسول هو النبي والنبي هو الرسول بمعنى واحد ؟ أم أنَّ بينهما فرقاً ؟**

◀ **القول الأول :** يقول رحمه الله : أنَّ قومًا يرون أنَّ الأنبياء صلوات الله عليهم فيهم مرسلون وفيهم غير مرسلين ، أي ليس كل نبي رسول ، فقد يكون النبي رسولًا مرسلًا إلى قوم ، وقد يكون النبي يُوحى إليه دون أن يبلغ دعوته إلى قوم .

◀ **القول الثاني :** يقول رحمه الله : وغيرهم يذهب إلى أنه لا يجوز أن يُقال نبي حتى يكون مرسلًا .

ولهذا قال المؤلف : **والصحيح أنَّ كل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولًا ، وكذا ذكر القاضي عياض في كتاب الشفاء :** "والصحيح والذي عليه الجمع الغفير أنَّ كل رسول نبي وليس كل نبي رسول" ، وهذا بمناسبة مجيء قوله تعالى : **{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ }** .

والآية تدل على هذا ، أن هناك فرق بين النبي والرسول ، الكل يوحى إليه ، لكن هذا قد يكون أرسل إلى قوم وهو المرسل ولا يكون إلا نبيًا ، وقد يكون نبيًا فقط دون أن يُرسل ويبلغ بدعوة إلى قوم وهذا هو النبي .

المسألة الثانية : الإشكال الذي في هذه الآية : هو ما جاء من الروايات الكثيرة في قصة الغرانيق ، وهي قصة مشهورة يذكرها أهل التفسير ، ونذكر طرفًا منها .

يقول رحمه الله : روى الليث عن يونس عن الزُّهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم **{ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) }** [سورة النجم] ، فلما بلغ **{ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) }** [سورة النجم] سها ، فقال : **(إِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ تُرْتَجَى)** ، فلقية المشركون والذي في قلوبهم مرض ، فسلموا عليه .

هذه واحدة من الروايات ، والحقيقة أنَّ هذه الرواية وغيرها من الروايات التي تذكر أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم أقرَّ المشركين على عبادتهم لهذه الأصنام ، وكيف يكون ذلك وقد بُعث بتوحيد الله عز وجل؟!

يقول أبو بكر البزاز: "هذا لا نعلمه يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل يجوز ذكره".

وهنا أيضًا ناقش الإمام القرطبي هذه المسألة في كلام طويل ، وقرر فيها أنَّ هذه الروايات التي تُذكر في سجود النبي صلى الله عليه وسلم لأصنامهم ، لا تثبت ولا تصح ولا يمكن أن تتناسب مع أصول الإسلام الذي جاء بأصل التوحيد .

يقول القرطبي رحمه الله: **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ}** أي في تلاوته ، فأخبر الله تعالى أنَّ من سنته في رسله وسيرته في أنبيائه إذا قالوا عن الله تعالى قولاً زاد الشيطان فيه من قبل نفسه ، كما يفعل سائر المعاصي ، تقول ألقيت في الدار كذا وألقيت في الكيس كذا ، فهذا نص من الشيطان أنه زاد في الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم لا أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم تكلم به ، وهذا هو الكلام الحق ، فهنا يخبر الله عز وجل أنَّ الشيطان نعم يتكلم ، ويُلقى القول فيما يوحى به الله عز وجل للأنبياء ، لكنه لا يُمكن من ذلك ، أي أنه لا يؤثر على الأنبياء ولا يستطيع أن يلجئ الأنبياء إلى أن يتكلموا بما خلطه بما أوحى إليهم ، فإن الله تعالى يُحكم آياته وينزل هذه الآيات وما أنزله من الوحي على قلب الأنبياء وعلى قلب المرسلين ، وينبذ ما سواها مما يلقيه الشيطان فلا يتكلم به النبي البتة ، وإنما ينتفع به إخوان الشياطين .

يقول رحمه الله: **{وَأَمَّا غَيْرِهِ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ مِمَّا حَكَاهُ قَوْمٌ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَكْرَهَهُ حَتَّى قَالَ كَذَا ، فَهُوَ مُحَالٌ ، إِذْ لَيْسَ لِلشَّيْطَانِ قُدْرَةٌ عَلَى سَلْبِ الْإِنْسَانِ الْاِخْتِيَارَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي} [الآية (٢٢) سورة إبراهيم] ، ولو كان للشيطان هذه القدرة لما بقي لأحدٍ من بني آدم قوة في الطاعة ، وهذا في سائر الناس فكيف بالأنبياء؟! والآية واضحة جداً {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} أي أنَّ الله يُذهب ما يلقيه الشيطان ويُحكم آياته .**

روى عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول: **"{إِلَّا إِذَا تَمَنَّى}** قال: إلا إذا حدَّث **{أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ}** قال: في حديثه ، **{فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ}** قال: فيبطل الله ما يلقي الشيطان". قال النحاس: هذا من أحسن ما قيل في هذه الآية وأعلاه وأجله .

■ معنى **{فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ}** أي يبطله .

✖ الآية الثالثة والخمسون :

يقول الله عز وجل معللاً هذا الأمر **{لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}** أي أنَّ الذين يؤثر عليهم قول الشيطان هم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، **{لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً}** فتنة أي ضلالة ، أي أنه يُضِلُّ به الكافرين ، **{لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}** هم الذين في قلوبهم شرك ونفاق ، **{وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ}** فلا تلين لأمر الله عز وجل ، ولكنها تنساق وراء أهواء الشياطين .

يقول الإمام الثعلبي: وفي الآية دليلٌ على أنَّ الأنبياء يجوز عليهم السهو والنسيان والغلط بوسواس الشيطان ، أو عند شغل القلب حتى يغلط ثم يُنبّه ويرجع إلى الصحيح ، وهو معنى قوله تعالى: **{فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ}** ولكن إنَّما يكون الغلط على حسب ما يغلط أحدنا ، فأما ما يُضاف إليه من قولهم (تلك الغرائيق العُلا) فكذبٌ على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنَّ فيه تعظيم الأصنام ، ولا يجوز ذلك على الأنبياء ، كما لا يجوز أن يقرأ بعض القرآن ثم يُنشد شعراً ويقول غلطت وظننته قرآناً .

هنا كلام نفيس للثعلبي يقول: أنه قد يقول الشيطان وقد يورد على بعض الأنبياء والمرسلين بعض القول ، لكن هذا في قولهم عامة ، أما أن يكون في الوحي فإنه لا يمكن أن يكون ، على أنه حتى في كلامهم العام فإنَّ الأنبياء دائماً لهم صفة الكمال ودائماً لهم صفة العصمة ، وخاصةً فيما يتعلق بالوحي ، أمَّا فيما عدا ذلك فإنهم يعدلون ويُصحح لهم .

يقول رحمه الله : فكذب على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن فيه تعظيم للأصنام ، أي أن هذا لا يمكن أن يجري على لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو كان هذا الأمر أي هذا الكلام الذي من الشيطان على لسان الأنبياء في أمور الدنيا مثلاً ، فإنه قد يكون في سائر البشر ، وإن وقع من الأنبياء فإنه لا يكون مما كان من قبيل الوحي ، ومما جاء فيما يتعلق بتبليغ الرسالة ؛ وإنما يكون من طبيعة البشر .

يقول الله عز وجل : { وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } أي الكافرين في خلاف وعصيان ومُشاقَّة ، الشقاق هنا هو الخلاف والعصيان والمُشاقَّة .

✳ الآية الرابعة والخمسون :

ثم يذكر الله عز وجل تعليلاً آخر لُبيّن موقف الجانب الخاص بالمؤمنين ، وهو عكس ما كان من الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، فقال الله عز وجل : { وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ } . يقول رحمه الله : قوله تعالى : { وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } أي من المؤمنين ، وقيل أهل الكتاب . { أَنَّهُ } أي أن الذي أحكم من آيات القرآن هو الحق من ربك .

{ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ } أي تخشع وتسكن ، وهذا يُذكرنا بالآية التي مرت معنا في سياق آيات الحج عند قوله عز وجل { الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) } فوجلت قلوبهم أي خشعت ، وهذا هو أدب المؤمنين أنه إذا ثلّي عليهم ذكر الله عز وجل فإن قلوبهم تخشع وتطمئن لماذا ؟ لثقتهم بأن هذا من عند الله محض ، وأنه ليس فيه من الشيطان أي دخل وأي شائبة ، بل هو كلام من الله عز وجل ، أوحى الله تعالى به للأنبياء فلم يخلطوه لا بكلامهم ولا بكلام الشيطان ولا بكلام أحد من البشر ، بل هو كلام الله عز وجل ، فلما كان هو كلام الله عز وجل فإن قلوبهم تخشع وتطمئن وتخبت وتسكن .

هنا ذكر المؤلف المعنيين الأولين ، قال : { فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ } أي تخشع وتسكن ، وقيل : تخلص أو تُخلص لله عز وجل . يقول الله عز وجل : { وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } أي يُثبتهم على الهداية .

نؤكد على المعنى العام في الآية ؛ لخطورته ؛ لأنه قد تزل القدم به عند قراءة كلام المفسرين ، وخاصة من يقرأ دون أن يتمعن ودون أن يتدبر ، فقد ينساق وراء هذه الأقوال ويظن أن النبي صلى الله عليه وسلم ربما يتكلم بما يوحى به إليه الشيطان ، فنؤكد ونقرر إلى أن الشيطان يحاول أن يدس الكلام ، لكنه لا يمكن أن يؤثر على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلهذا لا يمكن للنبي عليه الصلاة والسلام أن يتكلم بما أدخله هذا الشيطان .

ولهذا أقرأ عليكم النص الدقيق الذي نقله القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن فقال : " وذلك أن الله تعالى قال : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ } أي في تلاوته ، فأخبر الله تعالى أن من سنته في رسله وسيرته في أنبيائه إذا قالوا عن الله تعالى قولاً زاد الشيطان فيه من قبل نفسه كما يفعل سائر المعاصي ، تقول ألقيت في الدار كذا وألقيت في الكيس كذا ، فهذا نص من الشيطان أنه زاد في الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم ، لا أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم به " .

الهدايات :

١- أسوة الأنبياء عليهم السلام .

٢- حفظ الله وحيه وتنزيله وعباده المؤمنين من الزيغ ومن الفساد .

٣- خطر كيد الشيطان ومكره .

٤- أثر الشيطان على أصحاب القلوب المريضة والقساية .

٥- فضل العلم والإيمان وأنَّ فيهما الحماية للإنسان من الشيطان ونزغاته وأهوائه .

الحلقة (١١)

موضوع الحلقة : تفسير الآية ٦٠ من سورة الحج .

الآيات :

قال تعالى : { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) } .

☑ أوجه الوقف والابتداء في كلمة { ذَلِكَ } :

"ذلك" تلاحظون أني في المرة الأولى وصلتها، وفي المرة الأخرى وقفت عليها ؛ لأبين لكم الأمرين ، وهو أنه حينما نبداً بهذه الآية مثلاً - أو بهذا المقطع من بدء هذه الآية - فيستحسن الوصل ، بينما لو كان الكلام متصل بما قبله -أي في درج القراءة جاءت "ذلك" - فإنه يحسن الوقف عليها ؛ لأنها متصلة بما قبلها ، فالذي قبل هذه الآية هو قوله عز وجل : { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ بَرٍّ طَيِّبٍ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ } { ذَلِكَ } أي : ذلك الأمر ، فذلك موضع رفع ، أي ذلك الأمر الذي قصصنا عليك ، تم الكلام وانتهى عنده .

فقوله تعالى : { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ } الواو هنا استئنافية ، وهذا يُذكرنا بالدرس السابق في هذه السورة ، حيث مضى معنا { ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمُ حُرْمَاتِ اللَّهِ } ، { ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمُ شَعَائِرَ اللَّهِ } كلها يحسن الوقف عليها ؛ لأن الواو بعدها استئنافية وليست واو عطف ، بخلاف الآية التالية مثلاً { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ } أو { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ } فلا يحسن الوقف على ذلك ، ثم تبدأ { بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ } أو تقول : ذلك ، { بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ } لأن "ذلك" هنا متصلة بما بعدها وليست مثل "ذلك" التي بعدها واو الاستئناف .

فإعراب { ذَلِكَ } في هذه الآية { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ } في موضع رفع ، أي ذلك الأمر الذي قصصنا عليك .

سبب نزول الآية :

لهذه الآية أكثر من سبب نزول :

الأول : ذكر المؤلف رحمه الله قول مقاتل ، يقول : نزلت في قوم من مشركي مكة ، لقوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم ، فقالوا إن أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم ، فناشدهم المسلمون ألا يقاتلونهم في الشهر الحرام ، فأبى المشركون إلا القتال ، فحملوا عليهم ، فثبت المسلمون ونصرهم الله على المشركين ، وحصل في أنفس المسلمين من القتال في الشهر الحرام شيء ؛ فنزلت هذه الآية .

فكان هذه الآية نزلت تسلياً للمسلمين وإقرار لهم في رد العدوان في الشهر الحرام ، بمعنى أن الشهر الحرام وإن كان القتال فيه محرماً ، فإن ذلك من حيث إنشاء القتال وبدئه ؛ أما أن يُعتدى على الإنسان في الشهر الحرام ، فإنه يجوز له أن ينتصر لنفسه ، فلهذا قال : { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ } وهنا نصرهم الله عز وجل .

الثاني : يذكر الإمام القرطبي رحمه الله سبب آخر في نزول الآية : يقول : نزلت بقوم من المشركين مثلاً بقوم من المسلمين قتلوهم يوم أحد ؛ فعاقبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثله ، فمعنى { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ } أي : من جازى الظالم بمثل ما ظلمه .

إذن هنا الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد حينما وجد أن بعض المشركين مثل بعض المسلمين ، فعل بهم مثل ما فعلوا ،

فأقره الله عز وجل على ذلك ، وبَيَّن أن هذا جائز بما أنه في مقابلة العقوبة بالعقوبة دونما مبالغة ودونما زيادة ، قال : **{وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِقِبَ بِهِ}** أي : من جازى الظالم بمثل ما ظلمه ، أي أن يعتدي على الإنسان ظالم لا أنه ينشئ هذا الظلم ، والظلم محرم سواء بالشهر الحرام أو في الحرم أو غيره ؛ لكن يزداد حرماً وتغلظ حرمة إذا وقع في هذا الزمان المحرم أو في هذا المكان المحرم ؛ أما رد الظلم ؛ فإنه يكون سواء في الشهر الحرام أو في المكان الحرام أو في غيره ؛ لأنه في مثل هذه المعاقبة . ولهذا يقول الإمام القرطبي رحمه الله : "فسمي جزاء العقوبة عقوبة ؛ لاستواء الفعلين في الصورة". لأن كل منهما عقوبة ، لكن الأول عقوبته مذمومة ، والثاني عقوبته حمودة .

فالظالم مُعاقب ، لكنه معاقب على وجه الظلم ؛ والمنتصر مُعاقب أيضاً ، الذي يأخذ حقه هو معاقب أيضاً ، وأوقع العقوبة ، لكن أوقعها في محلها ؛ فهذا سُمي فعلة عقوبة من جهة الصورة ، والمقابلة في مثل هذا تكثر في استعمالات القرآن ، ولهذا قال الله عز وجل : **{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا}** فهل معنى هذا أن عمل الذي وقعت عليه السيئة بأن أخذ حقه من الذي فعل هذه السيئة ، هل يكون وقع في السيئة؟ لا ، يسمى فعلة سيئة من جهة الصورة ، ولكنه هو انتصار وليس سيئة يعاقب عليها ، أما الأول فإنه يعاقب على سيئته؛ لأنه هو الذي أنشأ هذه السيئة ، فمثل قوله تعالى : **{فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}** هو اعتدى ، ويأمرنا الله بالاعتداء عليه بالنظر إلى مقابلة اعتدائه ، وليس اعتداء حقيقي ولكنه مقابلة هذا الاعتداء سمي بهذا الاسم . ونجد في آخر سورة النحل **{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ}** [الآية (١٢٦)] . يقول الله عز وجل : **{ثُمَّ بَغِيَ عَلَيْهِ}** يقول الإمام القرطبي : "البغي بالكلام والإزعاج من وطنه ؛ وذلك أن المشركين كذبوا نبيهم ، وآذوا من آمن به وأخرجوهم من مكة ، وظاهروا على إخراجهم".

إذن بغي المشركين تنوع وتعدد ، فمنه ما يكون بالكلام والإزعاج من الوطن بين الشتم والطرده ومن التكذيب والإيذاء والإخراج والمظاهرة والمعاونة على الإخراج ، فكل هذه وجوه البغي التي نالت الرسول صلى الله عليه وسلم من قبل المشركين ، فلهذا أجاز الله تعالى للمؤمنين أن يقابلوا هذه العقوبة دونما زيادة ؛ لهذا قال : **{وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ}** فالمثلثة تقتضي عدم الزيادة ، لكن هنالك مرتبة أعلى من العقوبة بالمثلثة : مرتبة العفو والإحسان وهذا ما ألمح الله إليه في ختم الآية فقال : **{إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ}** أي فيه حث للمؤمنين وإغراء لهم لأن يتخلقوا بخلق العفو وهو ما اتصف الله به من صفة العفو والمغفرة ، وإن كان المقصود في قوله تعالى : **{إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ}** المؤمنين ، بأن عفا الله عنهم وغفر لهم فيما وقع منهم من القتال في الشهر الحرام أو بتمثيل المشركين ؛ لكنه أيضاً فيه إلماح في أنه ينبغي أن يكون هنالك العفو مع المقدرة ، ولهذا قال الله تعالى : **{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}** (٤٠) **{وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ}** (٤١) **{إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** (٤٢) **{وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}** (٤٣) [سورة الشورى] .

إذن هناك مراتب :

المرتبة الأولى : الظلم ، وهذه محرمة في الشهر الحرام أو في المكان الحرام أو في غير الشهر الحرام على الإطلاق . هنالك مقابلة الظلم بمثله وهو أخذ العقوبة والمجازاة بمثل هذا الظلم دونما مبالغة فهذا أجازة الإسلام وأقره ؛ لكنه ندب إلى ما هو أفضل منه .

المرتبة الثانية : مرتبة الإحسان ، وهي العفو ، وذلك ما نعرفه في الآيات التي قرأتها عليكم من سورة الشورى ، وفي سورة النحل أيضاً قال الله عز وجل : **{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}** (١٢٦) **{وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ}** (١٢٧) **{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}** (١٢٨) . فهذا فيه مدح

لأهل الإحسان وصفة الإحسان ومرتبة الإحسان ، وهذا ما أُلحنا إليه عند قوله عز وجل : **{ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ }** وفي هذا المأحة إلى أنه ينبغي أن يتخلق المؤمن بخلق العفو والصفح ؛ لأن الله تعالى هو العفو الغفور .

يقول المؤلف في بيان هذه الآية **{ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ }** أي: عفا عن المؤمنين ذنوبهم وقتالهم في الشهر الحرام وستر.

إذن هنا عدة معاني، أن الله تعالى عفا عن المؤمنين الذنوب ، وعفا عنهم القتال ، وعفا عنهم أيضاً وستر عليهم ، وهو مأخوذ من قوله تعالى : **{ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ }**.

وهذه الآية من آيات سورة الحج ذات صلة وثيقة بالدروس التي مضت دراستها عند قوله تعالى : **{ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ }** **{ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ }** وهذا متصل بهذا المعنى ، والذين وضعوا المنهج حينما وضعوا هذه الآية بعد هذه الآيات لعلهم راعوا هذا الأمر ، وهو أن السورة بعضها يتصل ببعض ، سواء كان من أولها أو أوسطها أو من آخرها.

فهذا فيه حديث عن العفو وحديث عن المغفرة وحديث أيضاً عن مقابلة العقوبة بمثلاً ، ومما يدل على أن العفو والصفح هو المرغوب وهو الذي حث عليه الإسلام ، ما جاء بعد هذه الآية **{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ }** ذلك بأن تقلب الأزمان وتكور الليل على النهار وتكور النهار على الليل كفيل بأن يظهر الحق ، ويتبين فيه الظلم ، وأنه يعود على صاحبه بالخيبة وبالوبال وبالخسران .

الهدايات :

١- عدل الله عز وجل وفضله وعفوه ومغفرته ، فالله تعالى لا يرضى للمؤمن أن يكون دائماً في محل القهر والذل والهوان، ومن الخطأ أن يُظلم المؤمن ولا يأخذ حقه على وجه الضعف، نعم له أن يدع حقه على وجه القوة ، أن يكون قادر على أخذ حقه لكنه يتنازل عن ذلك طلباً في عفو الله تعالى وفي مغفرته لا خوراً ولا ذلاً ولا استكانةً ، فلهذا ينبغي على المؤمن أن يربي نفسه على خلق العزة والكرامة مضافاً إليها أيضاً خلق العفو والصفح ، أما خلق الذل والهوان فهذا لا يتأتى مع الإيمان ولا ينبغي أن يلجأ إليه المؤمن في أي حال من الأحوال .

هنا عدل الله وفضله وعفوه ومغفرته، فالله بين في أول الآية وجه العدل ، وفي آخرها وجه الفضل والإحسان .

٢- من حق المعتدي عليه أخذ حقه من مثله ممن بغي عليه ؛ لكن دونما زيادة ، وهذا نستشفه من قول الله عز وجل **{ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ }** أي: بالمثلية.

هنا أمر مهم جداً وهو أن أخذ العقوبة لا يكون من الشخص نفسه مباشرة ، قد يكون هذا في الأمور البسيطة واليسيرة ؛ لكن ما يكون من الأمور الكبيرة مثل القتل ، فإن هذا لا يكون إلا عن طريق ولي الأمر، وإلا سادت بين الناس حياة الغابات وعاشوا عيشة حيوانية وبهيمية ، والله تعالى يقول: **{ فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا }** [الآية (٣٣) سورة الإسراء] . فهناك نظام للدولة ، من بغي عليه ومن اعتدي عليه ، فإنه لا يلجأ مباشرة للضرب ومد اليد أو التلفظ بما لا يليق ، بل هنالك سلطة وهنالك من يأخذ حقه عن طريق ولي الأمر ؛ لأجل أن تسير الحياة على نظام ، ولهذا لا يكون التصرف الفردي ، وإلا عمت الفوضى وكانت الخطورة أشد وأدهى وأمر ، وهذا ما نجده في الحياة القبلية والجاهلية التي يكون فيها القتل بين الناس ، حينما يقتل الشخص من القبيلة الفلانية تأتي القبيلة الفلانية لتقتل عشرة أمثاله ، فهذا يكون فيه الخطأ من جهتين: أنه أولاً أعتدي عليه بأكثر مما حدد له ، كان ينبغي أن يكون القتل لمثله ، الأمر الآخر أن هذا وقع من غير جهة السلطان ، والإسلام جعل لنا نظاماً نرجع إليه ونؤول إليه ليحفظ لنا حياتنا ويحفظ لنا حقوقنا .

٣- الترغيب في العفو والستر والحث عليهما .

٤- نصره الله تعالى للمظلوم ولو بعد حين، وأن الله ينتصر للمظلوم في الدنيا قبل الآخرة، وأن الظالم مهما بلغ ومهما عتا ، فإنه سيؤول في حين من الأحيان إلى ظلمه ، وسيخذله هذا الظلم إن عاجلا أو آجلا .

الحلقة (١٢)

موضوع الحلقة : تفسير الآيتين ٧٧ ، ٧٨ من سورة الحج .

الآيات :

قال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)} .

تلاحظون أنه ورد في الآية {وَاسْجُدُوا} ولهذا يستحب بعض العلماء وعلى هذا مذهب الشافعية والحنابلة السجود عند هذه الآية .

بعض خصائص هذه السورة^(١) :

مما اختلفت به هذه السورة أنه اجتمع فيها سجدتان ، هذه السجدة ، وأختها التي في أول السورة عند قوله تعالى : {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)} .

هذه السورة اختلفت بخصائص كثيرة : اجتمع فيها المكي والمدني ، والليل والنهار ، والصيف والشتاء ، والسفر والحضر ، واجتمع فيها أيضاً سجدتان السجدة التي في أولها والسجدة التي في آخرها .

المعنى العام للآيات :

وهذا الأمر الذي هو بالسجود جاء مقترن بجملة أوامر وتوجيهات من الرب عز وجل في هذه الآية وفي الآية التالية ، وهي الركوع والسجود وعبادة الله عز وجل وفعل الخير والمجاهدة في الله حق جهاده ، ثم يخبر الله عز وجل أنه هو الذي اجتباننا واختارنا ولم يجعل علينا من حرج في هذا الدين العظيم ، وإنما أكرمنا الله تعالى به كرامة منه عز وجل ، مذأبينا إبراهيم عليه السلام إلى أن اصطفى لنا نبينا صلى الله عليه وسلم محمداً ليكون لنا شهيدا ونكون نحن أيضاً شهداء على الناس من بعده ، ولهذا أمرنا الله تعالى بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله عز وجل ؛ لأن الخطب عظيم والمسؤولية كبيرة ، ومن هنا أكد على الاستعانة بالله عز وجل ، {هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} ، وهذا يؤكد على المسؤولية المناطة بكل مؤمن وبكل من اتبع هذا الدين .

مسألة : نعود إلى آية السجدة ، حيث الإمام مالك وأبو حنيفة لم يروا بأنها من العزائم؛ يرون أن قوله تعالى : {وَاسْجُدُوا} مقترن بالركوع ، فهي أمر بالصلاة جملة ؛ لأن الأمر بالسجود يأتي على وجوه كثيرة في القرآن الكريم ، فقد يأتي بمعنى الصلاة كما يراها الآن الإمام مالك وأبو حنيفة في هذا الموضع ، وقد يأتي بمعنى الخشوع والخضوع ، قد يأتي بمعنى الركوع ، مثل قوله تعالى : {ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} [الآية (١٥٤) سورة النساء] أي منحنين ، وهذا ليس على هيئة السجود وإنما هو على هيئة الركوع ؛ والعكس ، قد يأتي الركوع بمعنى السجود كما في فعل داود فيما أمره الله عز وجل {فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ} ، وهذا

(١) هذا العنوان والذي يليه وضع من قبل القائمين على إعداد المذكرة.

يحدده السياق ، ولغة العرب واسعة ، والسياق هو الذي يبين ما المراد بإطلاق هذه اللفظة حسب موضعها.

هنا استهل الله عز وجل هذه الأوامر بالركوع والسجود ، واتبعها بالعبادة **{وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ}** أي امتثلوا أمره ، وكأن هذا من نوع العام بعد الخاص ؛ لأن الركوع والسجود من عبادة الله عز وجل .

{وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} أيضًا هذا من عبادة الله ، وكأنه يكون من الخاص بعد العام ، وهذا كثير في كلام العرب أن يخصصوا ويعمموا ، كما في قوله تعالى في سورة التحريم: **{وَأِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ}** ثم قال: **{وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ}** وجبريل من الملائكة ، فهذا استعمل ؛ وإنما يذكر النوع من العبادة أو النوع من العام؛ لأجل الاحتفال به والتحفى به ولبيان مزيد خصوصية له ، أو لبيان أهمية له ، فهنا الركوع والسجود هما من أميز أعمال الصلاة ، فلهذا خصت بالذكر.

يقول الله عز وجل: **{وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ}** وهذا فيما يتعلق بالمندوبات ، كل أمر مستحب حثنا الله عز وجل على فعله .

❖ الآية التالية :

جاءت الآية الأخرى لتتم هذه التوجيهات التي وجه الله تعالى بها المؤمنين وقال: **{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ}**، أي اركعوا واسجدوا وجاهدوا في الله حق جهاده .

✓ المسائل :

المسألة الأولى : الجهاد أيضًا تختلف اطلاقاته - كما ألمحنا عند موضوع السجود- فقد يراد به جهاد الكفار وهو المقاتلة ، وقد يراد به عامة الجهاد من مجاهدة النفس ومن الاجتهاد في الطاعة ونحو ذلك .

ساق المفسر عدة أقوال في بيان المقصود بالجهاد في هذه الآية فقال :

⇐ قيل : عَنَى به جهاد الكفار .

⇐ وقيل : هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به والانتهاز عن كل ما نهى الله عنه ، وهذا يشمل مجاهدة النفس في طاعة الله وردّها عن الهوى ، ومجاهدة الشيطان ورد وسوسته ، ورد الظلمة عن ظلمهم ، ورد الكافرين عن كفرهم .

يقول ابن عطية رحمه الله : "هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}**".

وقوله في الآية الأخرى **{حَقَّ تَقَاتِهِ}** قال : منسوخ بالتخفيف إلى الاستطاعة في هذا الأمر .

قال الإمام القرطبي : "ولا حاجة إلى تقدير النسخ ؛ فإن هذا هو المراد من أول الحكم ؛ لأن حق جهاده ما ارتفع عنه الحرج".

وقد روى سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(خير دينكم أيسره)**.

وقال أبو جعفر النحاس : "هذا مما لا يجوز أن يقع فيه نسخ ؛ لأنه واجب على الإنسان".

بعض العلماء يطلق النسخ بكثرة ، وينبغي أن يُقيد هذا النسخ ؛ لأن النسخ صار مصطلحا وخاصة عند المتأخرين ، فلا ينبغي أن يطلق ما جاء من أوامر الله عز وجل في مثل هذا الموضع بأنه من قبيل المنسوخ ؛ وإنما قال من قال بالنسخ لورود عبارة "حق" ؛ قال: **{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ}** وأن هذا خفف بالاستطاعة ، وأنه خفف أيضًا باليسير ، وفي قوله تعالى: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}**.

وابن القرطبي رحمه الله يذهب إلى خلاف هذا، وهذا هو الصحيح ؛ أنه لا حاجة إلى تقدير مثل هذا ؛ لأن حق الجهاد هو يسر الله عز وجل ، فليس معنى حق جهاده هو التعنت والتكلف ؛ وإنما المقصود بحق الجهاد هو الاستجابة لأمر الله عز وجل ، والله عز وجل لا يأمرنا إلا باليسير وباليسر ، فلهذا من حق المجاهدة أن يؤدي الإنسان عمله قدر استطاعته ، فإذا أدى الإنسان عمله قدر استطاعته واتفق الله قدر الاستطاعة ، فإنه يكون قد جاهد في الله حق جهاده ؛ ولهذا يقول الإمام أبي جعفر

النحاس : "وهذا مما لا يجوز أن يقع فيه نسخ لأنه واجب على الإنسان أن يجتهد ويبذل وسعه وطاقته ، فإذن هذه الآية ليست منسوخة .

في قوله تعالى : **{هُوَ اجْتَبَاكُمْ}** أي اختاركم للذب عن دينه والتزام أمره ، وهذا تأكيد للأمر بالمجاهدة ؛ أي وجب عليكم أن تجاهدوا ؛ لأن الله اختاركم لهذا ، وهذا يدل على أن الإنسان حينما ينعم الله عليه بنعمة ، فإنه تكبر عليه المسؤولية وتكون عليه آكد ؛ لأن شكر النعمة يكون من جنسها ، فإذا كان الله تعالى قد ساق هذا الدين لقلبك وفتح قلبك لهذا الدين وأخرجك من صلب مؤمن وبين أبوين مؤمنين فإن هذه نعمة من الله عز وجل عليك ، تقتضي منك أن تنقل هذا الدين وهذه النعمة إلى غيرك وذلك بالمجاهدة وتبليغ هذا الدين ، أولا في نفسك بامثال أمر الله عز وجل لتكون قدوة في نفسك ، ثم قدوة لغيرك. أي وجاهدوا في الله حق جهاده ؛ لأن الله تعالى اختاركم لهذا الدين وأنعم عليكم بهذه النعمة .

المسألة الثانية : قوله تعالى : **{مِنْ حَرْجٍ}** أي من ضيق ، وهذا يؤكد لنا المعنى الأول الذي رجحه القرطبي ؛ لأن قوله تعالى : **{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ}** جاء بعد قوله **{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ}** ، من مجاهدة الله حق الجهاد أن يكون في هذا الدين الذي ليس فيه حرج ، فهذا دليل على أن قوله تعالى : **{حَقَّ جِهَادِهِ}** مرادا وأنه ليس منسوخا ، ولو كان منسوخا ما جاء بعده مثل هذه الآية **{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ}** ؛ لأن الذين قالوا بالاستطاعة يرون أن حق المجاهدة لا يمكن أن يتأق للشخص بسهولة وبيسر ، أما وقد قال الله عز وجل في تمام الآية : **{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ}** فهذا يدل على أن قوله تعالى : **{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ}** ماض على بابه .

وهذه من خصائص هذه الأمة [رفع الحرج] ، ولهذا يروي معمر بن قتيادة قال : " أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم يعطها إلا نبي ، كان يقال للنبي اذهب فلا حرج عليك ، وقيل لهذه الأمة وما جعل عليكم في الدين من حرج ، والنبي شهيد على أمته ، وقيل لهذه الأمة لتكونوا شهداء على الناس ، ويقال للنبي سل تعطى ، ويقال لهذه الأمة ادعوني استجب لكم" .
هذه كلها خصائص لهذه الأمة ، وأتباعها يتوجب عليهم أن يقدرُوا هذه النعمة ، وأن يكونوا مُثْلاً ونماذج حية وقرآنية تليق بما اختارهم الله تعالى له من هذه المنزلة وهذه المكانة ، فلا يأتوا بما يتناقض معها من سيء القول أو شين الأخلاق أو سيء الأفعال .

المسألة الثالثة : الحرج الذي رفعه الله عز وجل في هذه الآية أطلق كثير من العلماء أنواع منه ، وهذا ما نسميه اختلاف التنوع عند أهل التفسير ، فيقول عكرمة مثلاً : " هو ما احل الله من النساء مثنى وثلاث ورباع ، وما ملكت إيمانكم" .
ويقول آخر هو قصر الصلاة ، ويقول آخر هو رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ، ويقول آخر هو حط الإصر الذي كان على بني إسرائيل .

الحقيقة أن رفع الحرج عام وشامل ، وما ذكره بعض علماء التفسير من اختلاف في العبارات إنما هو من اختلاف التنوع .
يقول الله عز وجل : **{هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ}** أي باجتهادكم من غير حرج يلحقكم .
يقول الإمام القرطبي : وقد روى الأئمة أنه عليه الصلاة والسلام سأل يوم النحر عن أشياء ، فما يسأل عن أمر مما ينسى المرء أو يجهل من تقديم الأمور بعضها على بعض وأشباهاها إلا قال فيها : (افعل ولا حرج) وهذا من تيسير الله عز وجل .

المسألة الرابعة : في قول الله عز وجل : **{مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ}** ما الذي نصب ملة أبيكم ؟

الأصل أن يكون على الابتداء ، وإنما المنصوب يكون هنالك له ناصب ، فما هو الذي نصب هذه الكلمة ؟

يقول الزجاج : " المعنى اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم" .

ويقول الفراء : "أنه انتصب على تقدير حذف الكاف ، كأنه قال كلمة" ، ثم حذفت الكاف فانتصبت ، فصار ملة . فهي أصلا

محرورة بالكاف ، فلما حذفت انتقل إلى الدرجة الأخرى وهي النصب .

وقيل : المعنى : وافعلوا الخير فعل أبيكم .

وهذه كلها تقديرات يجتهد العلماء في بيانها لمعرفة ما هو الذي نصب هذه الملة .

يبقى علينا أن نتدبر قول الله عز وجل : { هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ } .

✑ علام يعود الضمير "هو" في { هُوَ سَمَّاكُم } ؟

اختلف العلماء في مثل هذا ، وأرجح التفاسير هو ما جاء عن الإمام علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "سماكم الله عز وجل المسلمين من قبل ، أي في الكتب المتقدمة ، وفي هذا القرآن" .

إذن علي بن أبي طلحة يرى أن تقدير الكلام { هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ } : أن الذي سمانا هو الله عز وجل ، وليس كما يقول بعض المفسرين هو إبراهيم عليه السلام ، { هُوَ سَمَّاكُم } أي الله عز وجل سمانا مسلمين ، { مِنْ قَبْلُ } أي في الكتب المتقدمة ، وسمانا أيضًا في هذا القرآن { وَفِي هَذَا } أي وفي هذا القرآن .

قال مجاهد وغيره : " { لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ } أي بتبليغه إياكم { وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ } أن رسلكم قد بلغتهم " . وهذا يؤكد مكانة هذه الأمة وشرفها ؛ إذ جعلها الله تعالى شهيدة على الناس من بعد نبيها ، إذ لا نبي بعده ، فهو النبي الخاتم ، وهي الأمة الخاتمة .

✓ الهدايات :

١- الحث على فعل الخيرات وفضل شريعة الإسلام ويسرها .

٢- أن الدين واحد مهما اختلفت هذه الشرائع ، فنجد أن الله عز وجل يربط هذا الدين بالملة السمحة ؛ ملة إبراهيم عليه السلام ومن جاء بعده من الأنبياء ؛ ليبين أن هذا الدين هو امتداد لتلك الأديان ، وأن الدين واحد ، كما قال الله عز وجل : { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } .

سورة النور

الحلقة (١٣)

موضوع الحلقة : تفسير الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٣ من سورة النور

في هذه الحلقة نستهل حلقات سورة النور، السورة العظيمة التي فيها من أنوار الحكمة وأنوار الهدايات وأنوار التربية والمواعظ وما تقوم عليه الأسرة المؤمنة من ركائز، ولهذا كان عمر أمير المؤمنين - رضي الله عنه - يقول : "علموا نسائكم سورة النور" . هذه السورة اشتملت على أحكام العفاف والستر والاستئذان وما يتصل بذلك . وهي تشير إلى عظمة هذا الدين الكريم من مبدأها إلى منتهاها، إذ أحكمها الله عز وجل بهذه الآيات المحكمات وبينها بهذه الآيات المبينات .

سنبحر في أعماق هذه السورة من الآية الحادية عشر إلى آخر السورة ، وهذا في حدود نصف جزء ، فلننصت أولاً إلى مطلع الحديث عن حادثة الإفك التي رُميت بها عائشة - رضي الله عنها - الحصان الرزان أم المؤمنين، فقد جاءت هذه الآيات لتحدث عن قصتها في حادثة الإفك الشهيرة .

✚ الآيات :

قال تعالى : { إِنَّ الدِّينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ

وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣).

✓ المفردات الغريبة :

■ جاؤوا بالإفك : أي بالكذب .

■ لا تحسبوه شرًا لكم بل هو خير لكم : يعني عائشة، أي تؤجرون فيه .

◀ الخطاب لعائشة، وهو وإن كان جمعاً لكن المقصود به في الأول أم المؤمنين - رضي الله عنها - .

■ والذي تولى كبره : الكبر هنا هو عظمه .

■ بأنفسهم خيراً : أي بأمثالهم من المسلمين .

فليس معنى "بأنفسهم" أي بذواتهم، وليس المراد أن الإنسان يظن بنفسه ! بل المقصود أن يظن بغيره من إخوانه المؤمنين، أي يحسن الظن في غيره من إخوانه المؤمنين، واستعمال الأنفس في القرآن الكريم يدل على ترابط المؤمنين وأنهم كالنفس الواحدة، مثل قوله تعالى: { فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ (٦١) } [سورة النور]، أو في مثل سورة البقرة: { فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } أي: ليقتل بعضكم بعضاً، وهذا في قصة بني إسرائيل وله سياق خاص، كذلك مثل قوله تعالى: { وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ } أي: لا يلزم بعضكم بعضاً، وليس معنى هذا أن الإنسان يلزم نفسه ويعير نفسه بنفسه؛ لأن اللزم لا يكون إلا من الغير على وجه التحقير، فلهذا قوله تعالى: { بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا } أي بأمثالهم من المسلمين، وهذا استعمال كثير في القرآن ينبغي أن نتنبه له جميعاً .

■ {لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ} أي هلاً .

لولا تأتي كثيراً في القرآن ، وهي على وجهين :

(١) إما أداة امتناع (بعدها اسم)

(٢) وإما أداة تحضيض (بعدها فعل)

فمتى وجدنا الفعل بعدها، فإنها تكون أداة تحضيض في مثل هذا {لَوْلَا جَاءُوا} أي: هلا جاؤوا، ومتى جاء بعدها غير الفعل فإنها تكون حينئذ أداة امتناع، مثل قوله تعالى: { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ }، هنا جاء بعدها اسم فتكون أداة امتناع، أي : ولولا فضل الله موجود، هذا يدل على أن هناك محذوف، فالعلامة هي أن يكون بعدها فعل فتكون أداة تحضيض ، وإذا كان غير ذلك تكون أداة امتناع.

☑ وأهل الأداء يميزون أداة التحضيض عن أداة الامتناع بالصوت ، كيف ذاك ؟

إذا جاءت مثل هذه {لَوْلَا جَاءُوا} أي: هلا جاؤوا، يرفعون الصوت عند "لو"، ويكون الصوت عند "لا" معتاداً فيقولون: "لولا" يرتفع الصوت قليلاً عند "لو" ويكون معتاداً عند "لا" ، بينما في { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ } يكون العكس يرتفع الصوت عند "لا"، ويكون معتاداً عند "لو"، وهذا بينه علماء التجويد في مصنفاتهم -رحمهم الله-؛ لأن بيان المعاني في القرآن الكريم يعتمد على عدة وسائل، فكلما كان الإنسان أكثر معرفة بهذه الوسائل، كلما استطاع أن يفهم القرآن، وكلما استطاع أن يفهم غيره أيضاً القرآن .

◀ ومن الوسائل معرفة الإعراب - كما بينت لكم قبل قليل - فهذا من الإعراب؛ لأنك إذا عرفت الفعل بعدها أو الاسم، تعرف أن هذا أداة تحضيض أو أداة امتناع .

◀ والأداء يساعد غيرك على الفهم ؛ فإذا وجدك تفرق في النطق بينهما، فإن هذا أيضاً يساعد القارئ على البحث عن معرفة معاني هذه الألفاظ.

وأضرب لكم مثالا آخر على مثل هذا :

"ما" في القرآن الكريم تأتي على وجوه عديدة، فتأتي أحيانا خبرية، وتأتي أحيانا استفهامية، وتأتي تعجبية، وتأتي "ما" جحد، فمثل هذا كله لا يميز إلا بالأداء، تقول مثلا : "ما قلت" بمعنى: الذي قلته وأخبرت به ، أو "ما قلت" أي لم أقل شي ، أو "ما قلت؟" أي أي شيء قلت؟ ، فمثل هذا يعرف بالأداء، فيرتفع الصوت عند "ما" إذا كانت نفياً ، وإذا أخبرت تقول : "ما قلت" يعني الذي قلته كذا وكذا ، وإذا استفهمت يكون فيها نوع التمجيد والتراخي "ما قلت؟" استفهام، فمثل هذا أيضاً يعرف في الأداء.

وَمَا يَسَاعِدُ أَیضًا عَلَى مَعْرِفَةِ الْمَعَانِي : الْوَقْفُ وَالْإِبْتِدَاءُ وَهَذَا كَثِيرٌ، وَلَعَلْنَا أَلْمَحْنَا إِلَى نَمَازِجٍ مِنْ هَذَا عِنْدَ {ذَلِكَ} فِي سُورَةِ الْحَجِّ، وَسَيَأْتِي مَوَاضِعٌ أُخْرَى نَبِينُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي سُورَةِ النُّورِ. عَصَبَةٌ : خَبَرٌ إِنْ ، وَيَجُوزُ نَصْبُهَا عَلَى الْحَالِ .

المسائل :

المسألة الأولى : سبب نزول القصة : ما رواه الأئمة من حديث الإفك الطويل من قصة عائشة -رضوان الله عليها- فعن أم رومان أم عائشة أنها قالت : "لما رُميت عائشة خَرَّتْ مغشيا عليها، فما أفاقت إلا وعليها حمى بنافض -أي أنها ترتعش من شدتها- فَطَرَحْتُ عليها ثيابها فغطيتها، فجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ما شأن هذه؟ فقلت: يا رسول الله أخذتها الحمى بنافض، قال: فلعل في حديث تُحَدِّثُ به؟ قالت: نعم، فقعدت عائشة فقالت: والله لئن حلفت لا تصدقوني، ولئن قلت لا تعذروني، مَثَلِي ومثلكم كيعقوب وبنيه والله المستعان على ما تصفون، قالت: وانصرف ولم يقل شيئا، فأنزل الله عذرها". سقت لكم جزءاً من القصة، وإلا فالقصة طويلة وفيها تفصيلات دقيقة جدا يطول الكلام بسردها، ولا بأس أن نشير إلى ما أخرجه البخاري أيضاً من حديث الزهري عن عروة عن عائشة: {وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ} عبد الله بن أبي. إذن الذي تولى عظم هذا الشيء ونشر هذا الحادث وتحدث به في الأندية وفي المنتديات وفي مجالس القوم، أكثر من تحدث فيه وأثاره وحرص عليه هو عدو الله عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين .

المسألة الثانية : ما هي العصبة ؟ اختلف فيها العلماء ، فقيل : هم ثلاثة رجال، وقيل: ثلاثة إلى عشرة، وقيل: أربعون، وقيل: من عشرة إلى خمسة عشر، والأصل أنها هي مجموعة من الرجال، أو مجموعة من الناس، أو جماعة العرب الذين يتعصبون بعضهم لبعض لأمر معين، فقله تعالى: {عُصْبَةٌ} أي جماعة ممن أثاروا هذه الحادثة غير عبد الله بن أبي ، ذكروا منهم : حسان بن ثابت -رضي الله عنه- وكان قد تورط في هذا ، ومسطح بن أثاثه ، وحمنة بنت جحش، هؤلاء اشتهر عنهم أنه تكلموا فيه ، وقد وقعوا في الزلة وسبحان الله! جل من لا يسهو! وهم وإن كانوا صحابة فالصحابه يوقعون في الخطأ، لكن الله تعالى يصوبهم ويتوبون ويتوب الله عليهم، فقد تاب أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حسان بن ثابت، وإخوانه من أصحاب الرسول -صلى الله عليه وسلم- ممن وقعوا في هذا، وهم عدد قليل ، أما عبد الله بن أبي بن سلول فهذا رأس النفاق مات على نفاقه وعلى كفره.

في قوله تعالى : {بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} يقول الإمام القرطبي : الخير حقيقته ما زاد نفعه على ضره أو ضره، والشر ما زاد ضره على نفعه، وإن خيرا لا شر فيه هو الجنة، وشر لا خير فيه هو جهنم .

إذن في قوله تعالى : {لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ} ^(١) بمعنى أن أكثره خير، وإلا ما أصاب عائشة -رضي الله عنها- من الهم ومن الحزن فهو في ظاهره أنه قد يكون فيه ضرر ، لكن الله تعالى يأجرها على ذلك ويثيبها عليه، فيتبدل هذا إلى الخير.

١ / قال الأستاذ (لا تحسبوه خيرا لكم) ولعله يقصد (لا تحسبوه شرا لكم)

فبه الله تعالى عائشة وأهلها وصفوان، -صفوان هو الذي وُجد مع عائشة رضي الله عنها حينما فقدت عقدها-، جاء صفوان - رضي الله عنه- وأراد أن يتفقد الجيش في تلك الغزوة [غزوة بني المصطلق]، فوجد عائشة - رضي الله عنها- قد نامت؛ لأنها كانت تبحث عن عقدها الذي فقدته، وكانت صغيرة السن، فما رآها - رضي الله عنه- ولا مسّها، ولكنه نقلها إلى الجيش بعد ذلك ولحق بالجيش، فوقع في حادثة الإفك من وقع، وحصلت هذه المشكلة العظيمة، التي بين الله تعالى تبعاتها، وداوى جراح أم المؤمنين - رضي الله عنها- من خلالها في هذه الآيات الكريمة من السورة.

المسألة الثالثة: {لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ} أي من تكلم بالإفك، ولم يسم من أهل الإفك إلا: حسان، ومسطح، وحمنة، وعبد الله بن أبي بن سلول، وجُهل الغير، فالذين سُموا في أكثر الروايات هم هؤلاء.

وأما قوله تعالى: {لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} هم عائشة وصفوان، وعائلة أبي بكر الصديق أم رومان - أم عائشة- رضي الله عنها وأبو بكر الصديق، فهؤلاء من نالهم هذا وهو خير لهم، أما الذين اكتسبوا الإثم فهم من سُموا.

المسألة الرابعة: يقول الله تعالى: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا} هذا عتاب من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين في ظنهم حين قال أصحاب الإفك ما قالوا.

قال ابن زيد: "ظن المؤمنون أن المؤمن لا يفجر بأمه".
وهنا {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ} هي أيضاً أداة تحضيض بمعنى "هلا"، مثل قوله تعالى: {لَوْلَا جَاءُوا}، إذن "لولا" إذا جاء بعدها اسم تتمحض لأداة الامتناع، أما إذا أتى بعدها فعل، أو ما في حكم الفعل في مثل {إِذْ سَمِعْتُمُوهُ}، لأن "إذ" هنا متصلة بـ "سمعتموه" فما جاء مثل هذا تكون فيه "لولا" بمعنى هلا.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: {بِأَنفُسِهِمْ} يقول النحاس: معنى بأنفسهم أي بإخوانهم. فأوجب الله على المسلمين إذا سمعوا رجلاً يقذف أحداً أو يذكره بقبیح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه ويكذبوه وتواعد من ترك ذلك ومن نقله.
يقول الإمام القرطبي: "قلت ولأجل هذا قال العلماء: إن الآية أصل في أن درجة الإيمان التي حازها الإنسان، ومنزلة الصلاح التي حلها المؤمن، ولبسه العفاف التي يستتر بها المسلم لا يزيلها عنه خبر محتمل وإن شاع، إذا كان أصله فاسداً أو مجهولاً". أي الأصل أن نحمل الناس على الخير، ما دام أنه مؤمن فالظن به السلامة من الوقوع في مثل هذه الأفعال المشينة، فما الظن إذن بأم المؤمنين رضي الله عنها؟! هو أكمل وأحسن الظن - رضي الله عنها-.

المسألة السادسة: يقول الله تعالى: {لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ} نلاحظ أنه مرة يلتفت إلى المؤمنين ومرة يلتفت للمنافقين أو من تأثر بهم.

يقول القرطبي: "هذا توبيخ لأهل الإفك، و"لولا" هنا بمعنى: هلاً، أي: هلاً جاءوا بأربعة شهداء على ما زعموا من الافتراء؟! لأن مثل هذه الأمور التي فيها القذف والرمي بالزنا وما شابه ذلك لا يكون إلا بالشهادة الحقيقية، وبمثل هذا العدد التي قد لا يتأتى لأحد، وهذا من عظمة هذا الدين لأنه يدرأ الحدود بالشبهات.

المسألة السابعة: يقول الله عز وجل: {فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ} أي هم في حكم الله كاذبون، وقد يعجز الرجل عن إقامة البينة وهو صادق في قذفه، أي: قد يرى الإنسان أن شخصاً يفعل الزنا مثلاً وهو صادق، لكنه عندنا في حكم الشريعة لا يُصدّق ما لم يأت بأربعة الشهداء، ولهذا الأصل ألا تنتشر هذه الفواحش وأن لا تُثار.

يقول الإمام القرطبي: "لكنه في حكم الشرع وظاهر الأمر كاذب لا في علم الله، وهو سبحانه إنما رتب الحدود على حكمه الذي شرعه في الدنيا لا على مقتضى علمه الذي تعلق بالإنسان على ما هو عليه، وإنما يبنى على ذلك حكم الآخرة".

يقول الإمام القرطبي: "قلت ومما يقوي هذا المعنى ويعضده، ما خرجه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال:

"أيها الناس إن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرا أمثاه وقربناه، وليس لنا من سريره شيء، الله يحاسبه في سريره، ومن أظهر لنا سوءا لم نؤمنه ولم نصدق، وإن قال إن سريره حسنة".
وأجمع العلماء أن أحكام الدنيا على الظاهر، وأن السرائر إلى الله عز وجل.

الهدايات:

- ١- مقصد السورة ذكر أحكام العفاف والستر.
- ٢- أن الحفاظ على أعراض المؤمنين من أوجب الواجبات.
- ٣- مكانة أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -.
- ٤- أدب المؤمن عند سماع قذف أخيه، والمؤمنون كالنفس الواحدة في ترابطهم وتعاطفهم.
- ٥- أن الابتلاء ظاهره الضر، وباطنه الخير لمن صدق فيه.

الحلقة (١٤)

موضوع الحلقة: تفسير الآيات ١٤، ١٥، ١٦ من سورة النور.

هذه الآيات تكملة لما سبقها، تتحدث عن حادثة الإفك الذي رميت به عائشة أم المؤمنين وصفوان وهما منه براء.

الآيات:

يقول الله تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦)}.

أداء كلمة "لولا" (١):

لاحظتم عند تلاوتي للآيتين {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ} {وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ} كيف قرأتهما! حين أقول إن الرفع في الصوت في "لا" عند أداة الامتناع ويكون معتادا في "لو"، أو رفع الصوت في "لو" عند أداة التحضيض، فلا أعني برفع الصوت أن يكون هنالك نشازا، أن يكون فيه مبالغة في رفع الصوت؛ وإنما هو الرفع بلطف، والتنقل بين الأدوات والحروف والكلمات والجمل والمعاني بلطف عند الأداء، حتى إذا وصلت إلى السامع وطرقت سمعه، فإنها تطرقه بأدب المستأذن بهدوء، فلا تدخل إلا قلب متدبر، أما القلب الغافل فإنه لا ينتفع من هذه الوجوه الأدائية مهما رفع صوت القارئ، ولهذا ما يكون من بعض الوعاظ من الزجر والصراخ، كل هذا ليس من أدب القرآن.

الأصل في أدب القرآن أن يكون هنالك الهدوء والسمت واليسر، كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - بذلك، نعم يتناسب مع جمل الوعظ إذا كانت ترغيبا أن تكون على وجه معين لا يتطابق مع وجه التهديد، لكن لا يصل إلى النفور والنشاز في أساليب الأدب، فلاحظتم في قوله تعالى {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ} أنها هنا أداة امتناع، بينما {وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ} أنها أداة تحضيض.

المفردات الغريبة:

■ قوله تعالى: {فِي مَا أَفَضْتُمْ} أي خضتم فيه.

■ {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ} أي تقبلونه.

✚ يقول الإمام ابن قتيبة: ومن قرأ {تَلْقَوْنَهُ} أخذه من الوَلَق وهو الكذب، ولذلك كانت عائشة أم المؤمنين تقرأ {إِذ تَلْقَوْنَهُ} أي تكذبون به، أي تقولون قولا كذبا، وهذه القراءة قراءة شاذة.

وحينما نقول القراءة الشاذة فإنما نعني بها شيئا معينا، وهو أن هذه القراءة خرجت عن العرضة الأخيرة، أو خرجت عن القراءات المتواترة، ولا نعني بالشذوذ أن هذه القراءة ليست صحيحة المعنى، فينبغي أن نفهم ما هو المقصود بالشذوذ وهو ما خرج عن القراءات المتواترة، فقد يخرج من القراءات المتواترة قراءات منسوبة للرسول صلى الله عليه وسلم أو إلى الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - أو إلى بعض القراء المشاهير وهذا لا يضر، فإن هذا مما كان قبل العرضة الأخيرة؛ لأن القرآن الكريم عرضه النبي صلى الله عليه وسلم - وعرض به جبريل، بحيث يستمع إليه ثم يقرأ عليه، كان يعارضه به كل سنة مرة، وفي السنة التي توفي بها عارضه مرتين، فنسخت العرضتين الأخيرتين ما كان مأذونا به من الأحرف السبعة في أول الأمر.

الأصل أن ما نجهده من القراءات الشاذة مما يروى عن الصحابة أو عن غيرهم من مشاهير القراء ويطلق عليه قراءات شاذة، أن هذا كان قبل العرضة الأخيرة، فيستفاد من مثل هذا في التفسير، في بيان المعاني، كما في معنى {تَلْقَوْنَهُ} ونعلم علما يقينا أن هذه القراءات كان مأذونا بها في أول الأمر، ثم بعد ذلك لما جاءت العرضة الأخيرة نُسخَت هذه القراءات وبقي العمل على ما كان في العرضة الأخيرة وهو الأكثر من حرف قريش، ولهذا عثمان بن عفان - رضي الله عنه - جمع الناس على حرف قريش، أو على ما كان في العرضة الأخيرة، وكتب المصاحف ووزعها على الأمصار وفق هذه العرضة ووفق تلك القراءات المتواترة، ولم ينسخ ولم يكتب القراءات الشاذة، وبقيت هذه القراءات الشاذة في بطون أمهات الكتب، كما نجد في مثل هذه المصادر، يستفاد منها في التفسير واللغة، ويستفاد منها في أساليب لهجات العرب مما كان يتكلمون به على هذا النحو، أما ما يُقرأ به ويُتعد به فهو ما كان بين الدفتين في المصاحف المتواترة التي عليها قراءات الأئمة السبعة والعشرة المشهورين.

✓ المسائل:

المسألة الأولى: يقول الله تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ} هذا في سياق حادثة الإفك، إذ يعاتب الله تعالى المؤمنين، ويبين ما كان ينبغي أن يكونوا عليه، وأن يستقبلوا مثل هذه الأحداث، فيقول {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} وهذا من لطف الله تعالى بالمؤمنين ومن رحمته بهم، إذ لم يأخذهم أخذة واحدة حينما وقع بعضهم فيما وقع، فأنزل الله تعالى لأجل أن يتوبوا ويقلعوا عن ما يكون من مثل هذه المواقف.

قوله تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ} "فضل" رفع بالابتداء، والخبر محذوف، تقديره: موجود، أي: ولولا فضل الله عليكم موجود لكان كذا وكذا، والعرب لا تذكر الخبر المحذوف في مثل هذا عند "لولا" التي هي أداة امتناع، لا تظهره ولا تقول: ولولا فضل الله موجود أو ما شابه ذلك.

يقول رحمه الله: "وحذف جواب "لولا" لأنه قد ذكر مثله بعد، قال الله تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ} أي بسبب ما قلتم في عائشة، وهذا عتاب من الله تعالى بليغ، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا ويرحم في الآخرة من أتاه تائبا".

المسألة الثانية: يقول الإمام القرطبي: "قوله تعالى: {وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ} مبالغة وإلزام وتأکید"، لأن قوله تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ} أتى بعد حديث عن حادثة الإفك وأنهم قالوا هذا القول، لكن كون الله عز وجل يصف هذا القول بأنه "بأفواههم" - لأن القول لا يمكن أن يكون إلا بالأفواه في الدنيا - لكن كونه يأتي بهذا فيه مبالغة وإلزام وتأکید؛ لأنه كان يمكن أن يستقيم الكلام "وتقولون" بدون وصف الأفواه.

✚ الضمير في {وَتَحْسَبُونَهُ} عائد على الحديث والخوض فيه والإذاعة له.

أي تحسبون الحديث وتحسبون الخوض فيه وتحسبون الإذاعة له، هذه الأمور تظنونها هينة ويسيرة وأنها من صغائر السيئات وأنه لا يلحقكم فيها إثم ، لكنها عند الله عظيمة ، أي عند الله تعالى في الوزر عظيمة، وهذا مثل قوله -عليه الصلاة والسلام- في حديث القبرين: **(إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير)** أي بالنسبة إليكم .

معنى هذا أن مقياس الذنوب وقيم الأعمال - سواء كانت صالحة أو سيئة - مقياسها وقيمتها ليست على حسب مقاييس البشر، وإنما حسبما يقدرها الله -عز وجل- فقد يتكلم الإنسان بالكلمة من رضوان الله فيكتب الله تعالى له رضوانه إلى يوم القيامة ، وقد يتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم القيامة ، ولهذا ينبغي على الإنسان أن يكون حذر في أقواله وفي ألفاظه والله -سبحانه وتعالى- يقول : **{مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)}** [سورة ق .]

إذا كان المؤمن يوقن يصدق بالقرآن الكريم ويعلم أن عليه رقيب كاتب أمين ، مستعد لأن يكتب كل ما يكون منه فإنه حينئذ ينبغي عليه أن يختار ما يُكتب له مما يحسن أن يراه يوم القيامة على الوجه الحسن ، لا أن تكتب عليه الأمور التي لا يحبها الله -عز وجل- ، فهذا ينبغي على المؤمن أن يكون متحفظاً ، وأن يكون دائم اليقظة في أقواله وفي أفعاله ، ولا يتهاون في مثل هذه الأمور ، وهذا ما أدبنا الله تعالى به في مثل هذه الآية وقال : **{وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ}** .

من الأشياء التي تتهاون بها بعض الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- أنهم ربما كانوا يتحدثون في مثل هذا في المجالس، وأنهم يقولون : قيل كذا وقيل كذا ، فهذا هو الهين الذي قد يظنه الناس، إنما هم ينقلون خبراً لا أكثر ولا أقل، ومع هذا فقد نبه الله تعالى أنه ما كان ينبغي أن يصدر هذا، وإنما كان الذي ينبغي أن يصدر هو حسن الظن بالمؤمنين، لا أن يقال ، ولهذا ستأتينا آية أخرى **{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا}** فمن إشاعة الفاحشة أن يتحدث بالشيء وأن يتكلم بالكلام اليسير في المجالس ويُنقل هذا كلام، ثم يزداد ويزيد الناس فيه ويعظمونه ويبالغون فيه، إلى أن يصل إلى أنه صار من الأمور الواقعة، فهذا ينبغي على المؤمن أن يأخذ بأدب القرآن.

المسألة الثالثة : في قوله تعالى : **{وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨)}**.

هذا عتاب لجميع المؤمنين ، كما يقول الإمام المفسر ، وكنا في الآية السابقة أيضاً ذكرنا أن في هذا عتاب، فكأن الآيات الثلاثة التي نحن بصدددها كلها تعاتب المؤمنين وتعاتب من وقعوا في مثل هذا الأمر؛ لئلا يقع منهم مرة أخرى؛ لأن الله تعالى قد تاب على من تاب منهم .

يقول القرطبي : أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه، ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى أن يقع هذا من زوج نبيه -عليه الصلاة والسلام- وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان .
والبهتان: أن يقال في الإنسان ما ليس فيه ، والغيبة: أن يقال في الإنسان ما فيه .

والذي رُميت به عائشة -رضي الله عنها- وصفوان -رضوان الله تعالى عليه- هو من البهتان وليس من الغيبة؛ لأن الغيبة والبهتان وإن كانا محرمين إلا أن البهتان أشد حرمة ؛ لأنه أن تتهم أخاك المؤمن أو أختك المؤمنة بشيء لم يقع منه أصلاً، فتتكلم فيه في غيبته، فهذا قد جمع بين البهتان وقد جمع بين الغيبة ، فهذا البهتان في الغالب يشمل البهت ويشمل الغيبة .

بينما الغيبة هو أن تذكر أخاك المؤمن بما فيه لكن في غيبته ، وهذا أيضاً قد ذمه الله عز وجل ، ونهى المؤمنين أن يكون عندهم مثل هذا، فالغيبة محرمة على سائر الوجوه ، فما ظنكم بالبهتان !! ولهذا سمي الله تعالى هذا الأمر بهتاناً فقال : **{قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ}** أي أن هذا أصلاً لم يقع ، وهذا هو ما ينبغي أن يكون حال المؤمن

حينما يجد مثل هذه المقالات التي يُقذف بها إخوانه من المؤمنين أو أخواته من المؤمنات .

✓ الهدايات :

- ١- فضل الله تعالى ورحمته الواسعة على المؤمنين، فسبحان الله العظيم ! هذا الحادث مع أنه في ظاهره فيه ضرر وفيه الشر، لكنه قد كبح ما بعده من الشرور، فلهذا سينتفع كل مؤمن من كل حادثة تقع بعده؛ ليجعل هذه الحادثة معيارا ونبراسا له في أن يتعامل مع كل حدث بما يليق به، وبما يليق بالمؤمن، وسيأتي لهذا نظائر وحديث إن شاء الله في الآيات الأخرى .
- ٢- صيانة الألسن من الكلام الباطل، مهما كان هذا الباطل، سواء كان غيبة أو بهتان أو كذب أو غيره .
- ٣- التحذير من القول بدون علم .
- ٤- عظم ذنب من تكلم في عرض المؤمنين ، وأن الناس يتكلمون في أعراض غيرهم يظنون أن هذا الأمر من الأمور اليسيرة ، لكنه في الحقيقة عند الله عظيم .
- ٥- تقدير معيار الذنب لدى الشرع لا حسبما يقدره الإنسان .

الحلقة (١٥)

موضوع الحلقة : تفسير الآيات ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠ من سورة النور .

✚ الآيات :

قال تعالى : {يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنْ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠)}.

✓ صلة الآيات بما قبلها :

هذه الآية متصلة تمام الصلة بالآيات السابقة، بعد العتاب - كما مر معنا في الدرس السابق أن العتاب توالى إثر العتاب - جاء الوعظ ، فهنا جاء الوعظ صريحا في اللفظ والمعنى ، ثم تلاه التهديد ؛ لأن الأمر يمس شخص الرسول -صلى الله عليه وسلم- ويمس أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- ، وهذا الأمر -وهو رمي المؤمن- محرم بالاتفاق ، لكنه حينما ينال رمزا عظيما، ورمز الإسلام الذي جاء بهذا الدين ، ويمس أهله، فإن هذا نفس لهذا الدين ، وهذا يشكك في بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويقوض أركانه ، فلهذا جاءت هذه الآيات لتنير المؤمنين ، وتبين ما ينبغي أن يكون موقفهم نحو بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خاصة ، وبيوت المؤمنين عامة ، فلهذا جاء هذا الوعظ .

✓ المسائل :

المسألة الأولى : يقول الله تعالى : {يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} أي أن تعودوا لمثل هذه الحالة من إشاعة أو التحدث أو إساءة الظن في المؤمنين .

وفي قوله تعالى : {يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا} مفعول من أجله ، أي كراهية أن تعودوا ، أي جاء الله تعالى بهذه الموعظة لأجل ألا تعودوا، أو كراهية أن تعودوا ، أو نحو هذا من التقديرات كلها تقديرات جائزة .

المسألة الثانية : {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} هذا توقيف وتوكيد ، كما تقول "ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلا" ، مثل هذا لو أنك تحدث غنيا فتقول "ينبغي أن تنفق كذا وكذا إن كنت غنيا" ، ولو هددت مثلا شخصا قويا فإنيك تقول "ينبغي إن كنت قويا أن تصرع كذا وكذا" وهكذا، وهذا التأكيد جاء من جهة الإيمان؛ لأن الإيمان هو أغلى ما يملكه المؤمن وهو أثمن ما يكون

عند المؤمن ، لأن الإنسان بدون إيمان يكون قد فقد قيمة عظيمة ، وقد قطع العلاقة بينه وبين ربه عز وجل ، فهو في مهب الريح ، كما قال الله تعالى في سورة الحج: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)} .

قوله تعالى : {يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا} يقول : "يعني في عائشة".

وهنا أعاد الكلام مرة أخرى إلى المثلية ، أي كأن المثل إن أردت المثلية العامة وهي الحادثة ككل ، أي أن تعودوا لمثل هذه الحوادث ، فهذا ينصرف إلى الحادثة ككل ، أما إن أردت المثلية الخاصة فهي ما يتعلق بعائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- أو من كان في مرتبتها من أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-، فمثل هذا لا يجوز أن يعود فيه المؤمن البتة ، وفي هذا كرامة لبيت الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأنه لا يجوز لأي مؤمن كائناً من كان أن ينال من بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، ولا يجوز لأحد أصلاً أن ينال من بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ؛ لأن هذا لا يمكن أن يصدر وأن يقع من بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام.

فلهذا الإمام القرطبي يقول : " يعني في عائشة ؛ لأن مثله لا يكون إلا نظير القول في المقول عنه بعينه أو في من كان في مرتبته من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم".

يقصد نظير القول في المقول عنه بعينه لوجود عبارة المثلية ، فالله تعالى يقول : {يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ} فالمثلية تقتضي أن يكون هذا، أن يُعاد إلى أم المؤمنين عائشة وتُرمى بمثل هذا في مناسبة أخرى ، أو من كان في منزلتها ، وهذا يؤكد لنا أهمية حرمة بيت الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، وأن هذا الباب قد أوصد، فليس لأحد بعد هذا أن يقول إنه قرأ في التاريخ أو أنه ظهر له كذا ، هذا أمر سماوي ! قد أعلنه الله جل وعلا من فوق سبع سماوات يبرئ فيه، ويبين فيه الحق -سبحانه وتعالى- طهارة بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- .

استطرد / وإذا كنا بهذا الصدد فإننا حينما نجد من يتهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمثل هذه المعايير في عصر قد انتشر فيه الإعلام وتوسعت فيه المعلومات ، وما نجده من بعض من رموا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو أزواجه بما لا يليق ؛ فإن هؤلاء أعداء لله عز وجل وأعداء لرسوله -صلى الله عليه وسلم- ، وقد عرضوا أنفسهم للعقوبة ، بل لأعظم العقوبة ، ولهذا ينبغي على المؤمن أن يكون في حذر وفي احتياط لئلا ينساق وراء هذا الإعلام الذي يسوق لأولئك الذين ينالون من بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أصحاب الملل الأخرى أو من غيرهم ممن يقدحون في شخصيته -عليه الصلاة والسلام-؛ لأن هذا كفر من فاعله ، لهذا يقول الإمام القرطبي : " لما في ذلك من إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في عرضه وأهله، وذلك كفر من فاعله ". فلهذا من سب عائشة فهو كافر بنص القرآن الكريم كما نجد في مثل هذه الآية وغيرها .

❖ بعد ذلك جاء التهديد الذي أشرت إليه في المحاضرة ، يقول الله عز وجل : {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}.

المسألة الأولى : تشيع : أي تفشو ، يقال : شاع الشيء شيوعاً وشياعاً ، وشيوعه : أي ظهر وتفرق ، {فِي الَّذِينَ آمَنُوا} أي في المحسنين والمحسنات ، والمراد بهذا في الدرجة الأولى عائشة -رضي الله عنها- وصفوان ، فهم المقصودون في هذه الآية مقصوداً أولياً وأساسياً ثم يندرج بعد ذلك كل مؤمن عفيف وطاهر ونقي .

☑ **والفاحشة تطلق في القرآن على استعمال عديدة :**

⇐ تطلق الفاحشة ويراد بها البخل ، كما في قوله تعالى : {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ} أي بالبخل كما جاء في بعض التفسير.

﴿ بينما في هذه الآية المراد بها الفعل القبيح، المفرط القبح، وهو الزنا والقذف، ومنه اللواط أيضًا والسحاق وغيرها من الفتن . فالذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، هذه المحبة القلبية وما يتبعها من سلوكيات، كل هذا قد جاء الوعيد الشديد عليه والتهديد الأكيد، قال الله تعالى: {لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

﴿ هنا قول للإمام القرطبي بين المقصود بالفاحشة فيقول : "وقيل : الفاحشة في هذه الآية القول السيء" وهو ما ذكرناه لكم من القذف ؛ لأن القذف يكون منه القول السيء.

المراد بالعذاب الأليم هنا : الذي يكون في الدنيا هو : الحد ؛ لأنهم قد حُدوا أولئك الذين قذفوا عائشة -رضي الله عنها-، ومنهم حسان، ومسطح، وحمئة، والتي مضى ذكرهم في الدرس السابق.

وأما عذاب الآخرة فإن هذا يكون في النار، وهذا للمنافقين، فهو مخصوص ؛ لأن المؤمن بإذن الله تعالى يطهر بإقامة الحد ، ولهذا قيل : إنه لم يُجد عبد الله بن أبي بن سلول ؛ لأنه هو المراد بالعذاب في الآخرة ، وهو قد ادخر الله تعالى له من عذاب الآخرة ما يستحقه إذ أشاع هذه الفتنة ، وأشاع هذه الفاحشة وشوش على أهل الإسلام ، ونال من بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإذا العذاب الأليم في الآخرة الذي جاء في هذه الآية هو خاص بالمنافقين ، وأما حد المؤمنين فإنه يكون كفارة وطهرة لهم بإذن الله تعالى .

ولهذا نقل الإمام القرطبي قول الإمام الطبري شيخ المفسرين فقال : " {لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} معناه: إن مات مصرًا غير تائب". فمن قذف آخر بأي جرم من أنواع الجرم أو من أنواع الفواحش التي مضى ذكرها وهو يعلم أنه ليس فيه هذا الوصف ومات مصرًا على ذلك ، فهو معرض لعقوبة الله عز وجل .

المسألة الثانية : يقول الله تعالى : {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} هذا هو ما عقده الإمام القرطبي في تفسيره في المسألة الأخيرة من هذه الآية فقال : " أي يعلم مقدار عظم هذا الذنب والمجازاة عليه ، ويعلم كل شيء" أي لا تظنوا أن الله تعالى قد خفي عليه هذه الأقوال السيئة، وتلك الأخبار التي تنشر ولو سرا؛ لأن إشاعة الفاحشة قد يكون بأساليب معلنة ، وقد يكون بأساليب خفية ، فمهما أخفى الإنسان ومهما لحن في قوله ، أو أراد أن يوري في قوله وهو يريد ما يريد من إيذاء أخيه المؤمن ، فإنه على خطر - نسأل الله السلامة - ؛ لأن الله تعالى يعلم هذه الأشياء وهو يعلم السر وأخفى ، أي ما هو أخفى من السر ، ما يكون أخفى من السر هو ما يحدث به الإنسان نفسه مما لا يعلمه من هو بجواره ، فإذا انتشرت الفاحشة بين الناس بأساليبها الظاهرة والخفية، فإن هذا من إشاعة الفاحشة الذي جاء عليه الوعيد والذي لا يخفى على الله عز وجل ، فالله تعالى يعلم ، قال الله تعالى : {وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}.

يسوق المؤلف هنا حديثا قال : روي من حديث أبي الدرداء أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : (أيما رجل شدَّ عُصْدَ امرئٍ من الناس في خصومة لا علم له بها ، فهو في سخط الله حتى ينزع عنها ، وأيما رجل قال بشفاعته دون حد من حدود الله أن يقام ، فقد عاند الله حقا وأقدم على سخطه وعليه لعنة الله تتابع إلى يوم القيامة ، وأيما رجل أشاع على رجل مسلم كلمة وهو منها بريء يرى أن يشينه بها في الدنيا ، كان حقا على الله تعالى أن يرميه بها في النار ، ثم تلا مصداقه في كتاب الله تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا}).

هذا حديث عظيم الذي ساقه الإمام القرطبي عند ختم هذه الآية في {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} وهو يذكر أولئك الرجال الذين يعصّدون غيرهم فقط ، لا أنهم هم الذين ينشرون هذه الفاحشة ، لكنهم يعززون هذا الشيء ويقرونه ، فهذا من إشاعة الفاحشة ، وهذا مما يعلمه الله عز وجل ، مهما حاول الإنسان أن يخفيه عن الله عز وجل فإن الله تعالى يطلع عليه .

هذه الآيات فيها موعظة ينبغي على المؤمن أن ينتفع منها في كل حدث من حياته، لهذا قال الله تعالى: {يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا}،

ومع الأسف أن الإنسان ربما يعود إلى مثل هذه الحالات أو ما يشابهها في اليوم أكثر من مرة - نسأل الله السلامة-، بعض الناس هكذا وظن نفسه على إشاعة الفاحشة وعلى نشر الغيبة وعلى النيل من أعراض الناس وعلى هذه الأفعال القبيحة والمشيئة، ولكثرة ممارسته لهذه الأعمال صارت عنده من الصغائر ومن الأمور الهينة لكنها عند الله عظيمة، فلهذا ينبغي على المؤمن أن ينتبه بعد أن يقرأ هذه الآية ويتدبر ما فيها من المعنى.

{يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا} هذه هي فائدة القرآن أن ينتفع من مثل هذه المواعظ ومن مثل هذه العبر ، فإن الله تعالى يسوق المواعظ والعبر لتالي القرآن لأجل أن ينتفع منها في حياته فلا يكرر أمثالها.

✓ الهدايات :

١- منزلة أم المؤمنين -رضي الله عنها- ، فنجد هذا الحشد العظيم من الآيات، إذ يتكلم الله تعالى من فوق سبع سماوات نصرَةً لأمتنا السيدة عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- .

٢- صيانة المجتمع المسلم من فشو الفاحشة ، والعقوبة الرادعة لكل من سعى في نشر الفاحشة .

الحلقة (١٦)

موضوع الحلقة : تفسير الآيتين ٢١ ، ٢٢ من سورة النور .

الآيات :

قال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)}.

نسأل الله تعالى أن يغفر لنا وأن يرحمنا برحمته إنه هو الغفور الرحيم.

✓ المفردات الغريبة :

- {مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ} أي : ما طهر .
 - {اللَّهُ يُزَكِّي} أي : يطهر .
 - {وَلَا يَأْتَلِ} أي : لا يحلف ، وهو يفتعل من الألية ، وهي اليمين ، وقُرأت أيضًا {وَلَا يَتَأَلَّ} على يتفعل .
- ⇐ {أَنْ يُؤْتُوا} : أراد "ألا يؤتوا" فحذف لا ، {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ} {أَنْ يُؤْتُوا} تقدير الكلام : ألا يؤتوا، يعني حلفوا على أن لا يعطوا ولا ينفقوا ، وكان أبو بكر حلف ألا ينفق على مسطح وقرابته الذين ذكروا عائشة رضي الله عنها.

✓ موضوع الآيات :

تحدث عن التعليق على قصة حادثة الإفك والتداعيات والتبعات التي ظهرت بعدها ، فإن هذه الحادثة حينما تبين فيها الحق وظهر فيها أمر الله عز وجل بعد أن أنزل الله تعالى فيها قرانا يتلى ، بعد هذه العشر الآيات التي مضت ، تحدث الله تعالى عن الآثار ، وما ينبغي على المؤمن نحو المواقف التي وقف منها ، ومنها كان موقف لأبي بكر الصديق -رضي الله عنه- وكان الله تعالى في مطلع هاتين الآيتين قد نهى عن إتباع خطوات الشيطان ؛ لأن الشيطان ينصب شراكه في كل مرحلة من مراحل حياة الإنسان وفي كل هدف من أهدافه، فلهذا حذر الله عز وجل من خطواته ومن إتباع أهوائه ومسالكه التي يحاول أن يصطاد فيها ما يستطيع أن يصطاده .

المسائل:

المسألة الأولى: يقول الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ} أي: مسالكه ومذاهبه.

المعنى: لا تسلكوا الطريق الذي يدعوكم إليها الشيطان، وواحدتها (الخطوات)، خطوة، وهو ما بين القدمين، إذا الشيطان يدعو، لكن هل له من سلطان؟ لا يستطيع، هو فقط يدعو ويزين، **كيف تكون دعوته؟** بالتزيين، وبتحريك دواعي الشهوة، ومحاولة التقليل من شأن فعل الخير والصد عن سبيل الله عز وجل، وإشغال الإنسان بكل ما حوله مما يمكن أن يصرفه عن ذكر الله عز وجل وعن الصلاة وعن الاتصال بالله عز وجل، وإلا الشيطان لا يستطيع، كما قال الله عز وجل فيما حكاه عن خطبة الشيطان التي سيقولها يوم القيامة: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ} [الآية (٢٢) سورة إبراهيم].

فإذا الشيطان ليس له سلطان كما قال الله عز وجل: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا} ليس له سلطان وليست له تلك القوة، بل كيده ضعيف ولا يستطيع أن يجبر الإنسان على عمل ما، ولكنه يزينه، فقد تنخدع نفسه الأمانة بالسوء، فإذا لم يكن على يقظة دائمة ولم يكن على أهبة الاستعداد في مواجهة هذا العدو اللدود في كل لحظة وفي كل حين وفي كل أوان؛ فإنه قد يكون عرضة لأحد أهدافه التي نصبها ضده.

فالخطوات كما قال المؤلف رحمه الله: خطوة، وهو ما بين القدمين.

القراءات:

خطوات:

الجمهور قراءتهم {خطوات} بضم الطاء {لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ}.

وقرأ بعض القراء ومنهم الشاطبي رحمه الله يقول: "وقل ضمه عن زاهد كيف رُتِل"، "عن زاهد" هو رمز لحفص، و"الزاي" رمز لقنبل، و"الكاف" من كيف لابن عامر، و"الراء" للكسائي، هؤلاء يقرؤون بالضم، وهم الذين عبر عنهم المؤلف بالجمهور، الحقيقة أن التعبير بالجمهور هنا فيه شيء من التجوز والتسامح في التعبير، وإلا فإن القراء السبعة أو العشرة انقسموا قسمين فمنهم من يقرأ: {خطوات} بضم الطاء وهم من سميتهم لكم.

والفريق الآخر يقرأ بالإسكان، وهما قراءتان متواترتان.

ما زكا:

قوله رحمه الله: (وقرأ الجمهور ما زكى بتخفيف الكاف) هذا صحيح.

وقراءة التشديد هي قراءة شاذة، أي {ما زكى} وهي قراءة الحسن، وأبي حنيفة من التابعين.

وعلى كل بالنسبة لقراءة "خطوات"، وخطوات "الإسكان" لأجل التخفيف، وإلا الأصل خطوات.

و"ما زكى منكم"، التشديد للمبالغة في تزكية الله عز وجل، وهو إصلاحه سبحانه وتعالى.

المعنى العام للآية:

يقول الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ} أي: من يجتهد في طلب الزكاء والنماء ويبذل الوسع ويأخذ بالأسباب، فإن الله تعالى يعينه عليها، والله كريم عز وجل، إذا وجد من العبد إقبال فإنه يقبل عليه، ولهذا جاء في الأحاديث القدسية أنه "من أتاني يمشي أتيتته هرولة، ومن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا" وهكذا كما جاء في

الأحاديث. أو ما جاء في معناه، "ففضل الله واسع، والله تعالى سميع عليم.

يحذر الله تعالى من إتباع خطوات الشيطان، هذا يكون متعلق بالآية السابقة، وأيضا متعلق بالآية التالية فكأنها وقعت في تدليل للآيات السابقة، وأن ما مضى كله هو من خطوات الشيطان، فيحذر الله تعالى من مغبته ومن خطورته وأن هذا القذف وراءه الشيطان وهو الذي زين هذا الأمر وسوقه في المجتمع المسلم أذ ذاك.

وأیضا هذه الآية هي مقدمة للتحذير أو النهي عن الأعمال التي تبعت هذا الشيء -وأقصد به حادثة الإفك-، فكأن هذه الآية تعلقها بالسياق، منه ما هو بالسباق ومنه ما هو باللاحق، أما السباق فقد تحدثت لكم عنه وهو فيما يتعلق بالقصة السابقة لهذه الآية، وأما اللاحق فهي توطئة للتحذير من مكر الشيطان وكيد في صده عن الإنفاق في سبيل الله عز وجل، كما في قصة أبي بكر الصديق مع مسطح، وأيضا في بيان التحذير من قذف المحصنات المؤمنات الغافلات.

↩ الآية التالية: يقول الله تعالى: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ}.

✓ سبب نزول الآية:

المشهور من الروايات أن هذه الآية نزلت في قصة أبي بكر بن أبي قحافة -رضي الله عنه- ومسطح بن أثاثه، وذلك أنه كان ابن بنت خالته، وكان من المهاجرين البدرين المساكين، وكان أبو بكر -رضي الله عنه- ينفق عليه لمسكنته وقربته، فلما وقع أمر الإفك وقال فيه مسطح ما قال، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبدا، فجاء مسطح فأعتذر وقال: إنما كنت أغشى مجالس حسان فأسمع ولا أقول، فقال له أبو بكر: لقد ضحكت وشاركت فيما قيل، ومر على يمينه أي حلف بهذا اليمين، فنزلت هذه الآية بتوجيه أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-.

إذاً مسطح كان ممن شارك في حادثة الإفك بالقول أو بالرضا، كما جاء في هذه الرواية أنه ضحك أو قال: شاركت فيما قيل، فغضب أبو بكر عليه، فهنا نزلت هذه الآية لتبين ما ينبغي على أبي بكر في هذا العمل، وأن الشيطان ربما يحاول أن يمنع أبي بكر من هذا العمل الخيري ومن هذه النفقة الخيرية التي كان يتصدق بها على مسطح، وهذا يبين لكم علاقة هذه الآية بما قبلها، فجاءت هذه الآية أيضا لتبين ما ينبغي على أبي بكر الصديق في الاستمرار في نفقته.

✓ المسائل:

المسألة الأولى: يقول الإمام القرطبي رحمه الله: "غير أن الآية تتناول الأمة إلى يوم القيامة، بأن لا يغتاظ ذو فضل وسعة فيحلف ألا ينفق من هذه صفته غابر الدهر.

وروي في الصحيح أن الله تبارك وتعالى لما أنزل {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ} -العشر آيات- قال أبو بكر -وكان ينفق على مسطح لقربته وفقره-: والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ} إلى قوله: {أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ}، قال عبد الله بن المبارك: هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى، فقال أبو بكر -رضي الله عنه-: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فأرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: لا أنزعها منه أبدا.

هنا نلاحظ أن الإمام القرطبي رحمه الله يجعل الآية للأمة كافة، ويدخل فيها أبو بكر دخولا أساسيا -رضي الله عنه-، واستشف الإمام القرطبي هذه القصة من التعبير بالخطاب الجماعة {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى} فهذا خطاب للأمة جميعا، وأن المؤمن حينما ينفق فإنما هو ينفق لأجل الله عز وجل، وخطأ من يُنفق عليه لا يحول بينه وبين هذا العمل الصالح؛ لأن المغفرة لا تطلب من هذا المخطئ، وإنما تطلب من الله عز وجل، فأنت حينما تتصدق على شخص ما وتجد منه جفاء عليك، أو ربما يقع في بعض المعاصي؛ فإنه لا ينبغي عليك أن تمسك عنه هذه النفقة، والله تعالى

يجب الصدقة الجارية ويجب العمل الدائم ، ولهذا الرجل الذي حلف أن يتصدق ، ثم لما أصبح تبين أنه تصدق على غني فكأنه جاء في نفسه ما حاك فيها ، فقيل له: لعله أن يعف ، أي هذا الغني ، فأنت على بابك من الإحسان ومن طلب الاحتساب من الله عز وجل ، لا أن تطلب العوض من تنفق عليه ، فهذه هي مقامات الصالحين وهذه هي مقامات المحسنين الذين يتصدقون لأجل الله عز وجل .

المسألة الثانية : يقول الإمام القرطبي رحمه الله : " في هذه الآية دليل على أن القذف وإن كان كبيرا لا يحبط الأعمال ؛ لأن الله تعالى وصف مسطحا بعد قوله بالهجرة والإيمان " ، أي وصفه بالهجرة والإيمان في قوله : { وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } .

يقول رحمه الله : " لأن الله تعالى وصف مسطحا بعد قوله بالهجرة والإيمان ، وكذلك سائر الكبائر ولا يحبط الأعمال غير الشرك بالله ، قال الله تعالى : { لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ } " .

إذا هذه من رحمة الله عز وجل أنه يقبل توبة العاصي مهما كانت معصيته ، حتى القتل في سبيل الله عز وجل ، من قتل ثم تاب فإن الله تعالى يتوب عليه ، وهذا هو رأي الجمهور وهو الذي حققه أهل التحرير وهو الرأي الأخير لابن عباس كما يرى بعض العلماء ، المهم أن الوقوع في المعصية مهما كبرت فإنه لا يحول بينها وبين التوبة أبدا ، فإذا وقع الإنسان في المعصية فإنه عليه أن يبادر بالتوبة ، فيتوب الله عز وجل عليه ، إلا الشرك إذا مات على الشرك فإنه يحبط عمله ، أما لو كان كافرا أو وقع في الشرك ثم تاب منه قبل أن يموت فإن الله تعالى يغفر له ما دام أنه قد مات على الإيمان ، وهذا يؤخذ من مجموع الآيات الواردة في القرآن الكريم .

المسألة الثالثة : قوله تعالى : { وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ } قال بعض العلماء: هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى من حيث لطف الله بالقذفة العصاة بهذا اللفظ ، وقيل : أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله تعالى : { وَكَثُرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا } [الآية (٤٧) سورة الأحزاب] ، وقد قال الله تعالى في آية أخرى : { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } ، فشرح الفضل الكبير في هذه الآية ، وبشر به المؤمنين في تلك ، ومن آيات الرجاء قوله تعالى : { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ } وقوله : { اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ } .

الهدايات :

- ١- الحذر من مسالك الشيطان ومذاهبه .
- ٢- أن العفو والصفح من شيم أهل الفضل .
- ٣- فضل الصديق - رضي الله عنه - فقد نزل فيه أكثر من آية - ومنها هذه الآية - كلها تنوه بفضله ومكانته وكرامته عند الله عز وجل .

الحلقة (١٧)

موضوع الحلقة : تفسير الآيات ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ من سورة النور .

هذه الآيات هي ختام الحديث عن حادثة الإفك ، ثم ننتقل بإذن الله تعالى في درس لاحق إلى قصة أخرى .

الآيات :

قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) }

الْحَيِّثَاتُ لِلْحَيِّثِينَ وَالْحَبِيثُونَ لِلْحَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) .

✓ موضوع الآيات :

هذه الآيات الكريمات تتحدث عن قذف المؤمنات، وعقوبتهم في الآخرة عند الله عز وجل، وقبل ذلك في الدنيا، حيث أجمل الله تعالى عقوبتهم في الدنيا، ثم فصلها في الآخرة، ثم بين بعد ذلك أقسام الناس نحو هذه الفواحش، فمنهم من يصدق عليه هذا القذف، ومنهم من لا يصدق عليه هذا القذف، بل هو من الطيبين أو من الطيبات .

❖ الآية الأولى : الثالثة والعشرون.

✓ المسائل :

المسألة الأولى : يقول الله تعالى: {الْمُحْصَنَاتُ} أجمع العلماء على أن حكم المحصنين في القذف كحكم المحصنات قياساً واستدلالاً ، هنا يتحدث الله تعالى ويسمي المحصنات؛ لأن هذا أكثر ما يقع، القذف يقع على النساء، فعبر بالنظر إلى الأكثر وخاصة أن المقصود بالقذف في أول الأمر هي عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأكثر ما يؤدي أو ينال من المرأة هو أن تُقذف، فلهذا جاء الحديث بخصوص المحصنات، وربما يقدم الله تعالى أو يخص النساء بالذكر لأمر ما، ربما يكون لكثرة كما في قوله عز وجل: {لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ} {وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ}، فالنساء يدخلن في القوم لكن الله خصهن بذلك؛ لأن السخرية تقع منهن أكثر، أي تقع في أوساطهن أكثر؛ لأنهن أكثر احتكاك ببعضهن من الرجال. فالإمام القرطبي يقول: أن الحكم يشمل المحصنين أيضاً في القذف، فمن قذف محصناً رجلاً بما ليس فيه، فإنه تصدق عليه هذه العقوبة وتنطبق عليه أحكام القذف المذكورة في السورة.

يقول رحمه الله: اختلف فيمن المراد بهذه الآية :

هنا اللفظ عام أو جمع، لكن قد يراد به مفرد، وقد يراد به أكثر من مفرد .

❖ **القول الأول :** هم رمة عائشة خاصة رضوان الله تعالى عليها، أي أن اللذين حق عليهم هذا العذاب وهذه العقوبة هم

الذين رموا عائشة فقط وأن هذا حكم خاص بهم، هذا قول، ويروي عن سعيد بن جبير .

❖ **القول الثاني :** أن هذا عام لجميع الناس القذفة من ذكر أو أنثى إلى يوم القيامة، ويكون التقدير: إن الذين يرمون الأنفس

المحصنات، وهذا اختاره الإمام النحاس.

❖ **القول الثالث :** أنها نزلت في مشركي مكة؛ لأنهم يقولون للمرأة إذا هاجرت إنما خرجت لتفجر.

إذا المقصود بالمحصنات: إما أن يكون عام، وإما أن يكون خاص .

فالعام هو القول الثاني الذي اختاره النحاس، ويكون المقصود يرمون الأنفس المحصنات .

وأما القول الخاص فقليل: إنه خاص برمة عائشة، وقيل: إنه خاص برمة المهاجرات من المؤمنات .

ويظهر أن القول الأخير فيه بعد بعض الشيء لذلك أخره المؤلف وجعله في المرتبة الثالثة، وأما القول الثاني فإنه يدخل في القول الأول في حقيقة الأمر؛ لأنه وإن كان المقصود بهم رمة عائشة فهم يدخلون دخولاً أولياً، كما ذكرنا في قصة أبي بكر الصديق مع مسطح بن أثانة في قول الله تعالى: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ} أن هذا ليس خاصاً بأبي بكر، وإنما يشمل أيضاً كل من حلف؛ فإنه عليه أن يكفر ثم يستمر في نفقته.

المسألة الثانية: قوله عز جل: {لَعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} .

قال المؤلف رحمه الله: قال العلماء:

﴿ إن كان المراد بهذه الآية المؤمنين من القذفة، فالمراد باللجنة الإبعاد وضرب الحد واستيحاش المؤمنين منهم وهجرهم لهم ، وزوالهم عن رتبة العدالة ، والبعد عن الثناء الحسن على السنة المؤمنين. ﴾
 ﴿ وعلى قول من قال هي خاصة لعائشة ، تترتب على هذه الشدائد في جانب عبد الله بن أبي وأشباهه. ﴾
 ﴿ وعلى قول من قال نزلت في مشركي مكة ، فلا كلام أنهم مبعدون ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، ومن أسلم فالإسلام يجب ما قبله. ﴾

قال أبو جعفر النحاس: "ومن أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية أنه عام لجميع الناس القذفة من ذكر وأنثى، ويكون التقدير: إن الذين يرمون الأنفس المحصنات، فدخل في هذا المذكر والمؤنث ، وكذا في الذين يرمون؛ إلا أنه غلب المذكر على المؤنث".
 هنا يريد أن يتحدث المؤلف عن المقصود بالذين لعنوا في الدنيا والآخرة، فيذكر إن كان المقصود المؤمنين فإن هذا المراد به إقامة الحد عليهم واستيحاش المؤمنين منهم ، وزوالهم عن رتبة العدالة وما إلى ذلك من الأشياء التي تقع على المؤمن لكنها لا تخرجه عن حد الإسلام أو عن حد الإيمان ، أي وجوه أنواع العقوبة من الطرد ومن الضرب وما إلى ذلك؛ أما إن كان المراد بها عبد الله بن أبي بن سلول وأشباهه فلا شك أن اللعنة هي الطرد من رحمة الله عز وجل ومن جنته؛ لأن هؤلاء وأشباههم من مشركي مكة لهم في الآخرة عذاب عظيم.

إذا كان الآية في قوله تعالى: {لَعَنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} إما أن يقصد بها المؤمنون ، وإما أن يقصد بها الكافرون ، والإمام النحاس يرى أن الآية تنطبق على الفئتين ، على المؤمن وعلى الكافر إن كان من القذفة ، أما المؤمن فعقوبته فقط مقصورة على {لَعَنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} ، وأما الكافر فإنها تشمل العقوبة في الدنيا ، وتشمل العقوبة أيضاً في الآخرة ، خاصة إذا علمنا أن عبد الله بن أبي بن سلول لم يُجد ؛ لتراكم عليه العقوبة يوم القيامة -نسأل الله السلامة-.

❖ **قوله عز وجل: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (٢٤).**

✓ **القراءات في {تَشْهَدُ}:**

﴿ قراءة الجمهور {تَشْهَدُ}. ﴾

﴿ وقراءة حمزة والكسائي {يشهد} وكلاهما قراءتان سبعيتان ، وهي أيضاً قراءة خلف من العشرة. ﴾

﴿ وهنا أبو عبيد يختار قراءة {يشهد} لماذا؟ ﴾

قال : لأن الجار والمجرور قد حال بين الاسم والفعل.

ننظر إلى اختيار أبي عبيد^(١) ، اختيار أبو عبيد {يشهد} ، {يوم يشهد عليهم ألسنتهم} قال : لأن الجار والمجرور -لفظ (عليهم)- قد حال بين الاسم والفعل ، أبو عبيد يقول: {يوم يشهد ألسنتهم وأيديهم} يقول: لأن (عليهم) حال بين الفعل وبين الفاعل ، وإذا حيل الفعل بين الفعل والفاعل؛ فإنه يجوز المغايرة بين التذكير والتأنيث، كقوله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} فهذا لما فصل {مِنْهَا} جاز أن يقول {يُقْبَلُ} ولم نقل (تقبل) -هذا طبعا على القراءة الأخرى-، نقول (يقبل) شفاعاة ، فالفاصل يغير بين التذكير والتأنيث.

والمعنى -كما ذكر القرطبي:- "يوم تشهد السنة بعضهم على بعض بما كانوا يعملون من القذف والبهتان" -لأن القذف لا يصدر إلا من اللسان، فهذا ذكره الله عز وجل وبينه من بين الأعضاء- "وقيل: تشهد عليهم ألسنتهم ذلك اليوم بما تكلموا به".
{وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ} أي وتكلم الجوارح بما عملوا في الدنيا.

(١) جرى في هذا الموضع تقديم وتأخير؛ لأجل الترتيب.

❖ الآية الخامسة والعشرون ، يقول الله عز وجل : {يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} (٢٥).

⇐ أي: يوفيههم حسابهم وجزاءهم.

✓ القراءات في {الحق} :

⇐ قراءة مجاهد برفع الحق {الحق} على أنه نعت لله عز وجل ، {الحق} هنا صفة لله عز وجل {يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ} {الحق} وهي قراءة شاذة .

⇐ وقراءة الجمهور أحسن {يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ}.

يوجهها الإمام القرطبي يقول : وعلى قراءة العامة {دِينَهُمُ الْحَقَّ} يكون الحق نعتا للدين ، لأن الجزء الحقيقي (الذي يكون حقا) هو ما يكون في الآخرة؛ لأنه لا يقع إلا موقعه. أما الجزء الذي يكون في الدنيا، فقد يجازى الإنسان على ذنب لم يقتضيه أصلا، قد يُظلم، فالدنيا قد يكون فيها جزاء حق ، وقد يكون فيها جزاء غير حق ، أما الآخرة فلا يكون فيها إلا الجزاء الحق.

يقول الله عز وجل : {وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} هذان {الحقُّ الْمُبِينُ} اسمان من أسمائه سبحانه وتعالى، والله تعالى الأسماء الحسنى ومنها هذان الاسمان.

❖ الآية السادسة والعشرون يقول الله عز وجل : {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ}.

■ من المقصود بالخبيثين والخبيثات والطيبين والطيبات ؟ فيها عدة أقوال:

⇐ القول الأول : يقول ابن الزيد : المعنى : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، وكذا الخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، وكذا الطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء ، هذا القول الأول {الْخَبِيثَاتُ} أي: النساء الخبيثات أو الخبيثات من النساء .

⇐ القول الثاني : للإمام مجاهد وعطاء وأكثر المفسرين، يقول: الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الناس، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول، وكذا الكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من القول ، قال النحاس في كتاب معاني القرآن : "وهذا من أحسن ما قيل في هذه الآية".

وهذا قول مجاهد بن جبر، ومجاهد إذا قال في التفسير، فحسبك به - كما قال الإمام أحمد بن حنبل -، وهذا هو قول الجمهور. إذا المقصود بالخبيثات: القذف والقول الخبيث هو المناسب للخبيثات؛ لأنه يصدق عليهن، خاصة المجاهرات بالخبيث، والقول الطيب والثناء الحسن هو المناسب للطيبات الذي يليق بهن، أمثال عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

يدل الإمام النحاس على صحة هذا القول فيقول: {أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ} فكأن الخبيث هنا والطيب، من القول، لذلك قال: {مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ} فعبّر بالقول ، يقول الإمام النحاس: "ودل على صحة هذا القول: {أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ} أي عائشة وصفوان ، مما يقول الخبيثون والخبيثات".

⇐ القول الثالث : أن هذه الآية مبنية على قوله: {الرَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً} فالخبيثات الزواني، والطيبات العفاف، وكذا الطيبون والطيبات، واختار هذا القول أيضا النحاس.

وهذا القول يبدو أنه قريب من القول الأول -الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال-، لكن يبدو أنه اختلاف تنوع واختلاف في التعبير.

رُوي عن علي بن زيد عن جدعان عن جدته عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : "لقد أعطيت تسعا ما أُعطيتهن امرأة ، لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتي في راحته^١ ، حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوجني" ، ولقد تزوجني بكرةً ، وما تزوج بكرة غيري ، ولقد توفي صلى الله عليه وسلم وإن رأسه لفي حجري ، ولقد قُبر في بيتي ، ولقد حَفَّت الملائكة ببيتني ، وإن كان الوحي لينزل عليه وهو في أهله فينصرفون عنه ، وإن كان لينزل عليه وأنا معه في لحافه فما يُبينني عن جسده ، وإني لابنة خليفته وصديقه ، ولقد نزل عذري من السماء ، ولقد حُلقت طيبة وعند طيب ، ولقد وُعدت مغفرة ورزقا كريما". تعني قوله تعالى: **{لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}** وهو الجنة.

وهذا من التحدث بنعمة الله عز وجل ، وإلا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من أشد الناس تواضعا وأدبا ، فقد تربت في بيت النبوة وفي بيت الصديق رضي الله عنه ، وهذا يدل على فضل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعلى براءتها ، ولا شك أن ختم الإمام القرطبي هذه الصفات لأم المؤمنين في ختام حادثة الإفك له مناسبتة الظاهرة .

✓ الهدايات :

- ١- عظم عقوبة القاذف في الدنيا والآخرة .
- ٢- التنفير من القذف .
- ٣- أن الأعضاء شهود على صاحبها يوم القيامة ، وذلك يورث خلق الحياء عند المؤمن ، فالمؤمن إذا علم أنه لديه رقيب عتيد ، وأن أعضاءه أيضًا ستشهد عليه؛ فإنه ينبغي عليه أن يحتاط، وأن يكون دائم اليقظة في تعاملها وفي تسخيرها لله عز وجل؛ لتكون شاهدة له لا عليه .

الحلقة (١٨)

موضوع الحلقة : تفسير الآيتين ٢٧ ، ٢٨ من سورة النور .

هاتان الآيتان تتحدثان عن موضوع الاستئذان ، وهو وثيق الصلة بهذه السورة ؛ لأن السورة أصلا تتناول الآداب ، وبالخصوص آداب البيوت .

والاستئذان هو أول أدب ينبغي على المؤمن أن يأخذ به قبل أن يدخل بيته أو أي بيت آخر، ومن ثم تتوالى بعد ذلك الآداب والأحكام داخل ردهات البيت ، وهذا يدل على العناية الفائقة لدى الإسلام بهذه الجوانب ؛ لأهميتها في وقاية البيوت من أن تهتك أستارها ، أو أن يُرى فيها ما لا يحبه صاحبه ، ولهذا جاءت هذه الآيات لتؤكد هذا الموضوع ، وأيضا لها صلة وثيقة بموضوع القذف ، فهي بأذن الله تعالى تحمي البيوت وتقيها من أن تقع الأبصار على ما لا يليق ، فإذا كان الإنسان في بيته ويعلم أنه سيراه أجنبي ، فإنه يتحفظ ويكون أشد تحفظاً مما لو كان بمفرده أو مع ذويه فقط ؛ فإنه يتجوز في بعض الأشياء .

✚ الآيات :

قال تعالى : **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)}**.

✓ المسائل :

^١ أي: صورة عائشة رضي الله عنها رآها الرسول صلى الله عليه وسلم في راحة يده

المسألة الأولى: يقول الإمام القرطبي في مطلع تفسير هذه الآيات : لما خصص الله سبحانه ابن آدم الذي كرمه وفضله بالمنازل، وسترهم فيها عن الأبصار، وملّكهم الاستمتاع بها على الانفراد ، وحجر على الخلق أن يطلعوا عليها من خارج، أو يلجوا فيها من غير إذن أهلها ، أدبهم بما يرجع إلى السترة؛ لئلا يطلع أحد منهم على عورة .
وهنا حديث في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: (مَنْ أَطْلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَقَدْ حَلَّ لَهُمْ أَنْ يَفْقَهُوا عَيْنَهُ).
وهذا الأمر فيه تفصيل لدى العلماء^(١) :

❖ **القول الأول:** بعض العلماء يرى أنه ليس على ظاهره، ولا يجوز أن يفقأ العين؛ وإنما المقصود أمور أخرى سيأتي بيانها في الأقوال الأخرى.

❖ **القول الثاني:** يرى أنه على ظاهره، وأنه يجوز أن تفقأ العين على من اعتدى وملأ عينه بجوف البيت.

فعلى قول أنه ليس على ظاهره (القول الأول):

❖ يحتمل أنه يكون خرج على وجه الوعيد لا على وجه الحتم، أو التهديد بفقأ العين، ويُرفع عنه إلى ولي الأمر أو نحو ذلك.
❖ وأيضاً يحتمل أن يكون ذكر فقأ العين أن يعمل بها عملاً حتى لا ينظر بعد ذلك في بيت أو غيره، "يعمل بها عملاً" بمعنى أن تضرب مثلاً دون أن تفقأ فقأً كاملاً؛ لأن هذا ربما يؤدي إلى أخذ القصاص منه، ولهذا يرى بعض العلماء أنه لا ضمان عليه ولا قصاص في مثل هذا.

المسألة الثانية: سبب نزول الآية :

ما رواه الطبري وغيره عن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت: "يا رسول الله إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليه أحد لا والد ولا ولد ، فيأتي الأب فيدخل علي ، وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا على تلك الحال ، فكيف أصنع؟" ، فنزلت الآية.

قال أبو بكر: يا رسول الله، أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام ليس فيها ساكن؟! فأنزل الله {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ}.

المسألة الثالثة: قال المؤلف : مد الله سبحانه التحريم في دخول بيت ليس هو بيتك إلى غاية هي الاستئناس، وذلك بقوله تعالى: {حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا} ، والاستئناس المقصود به الاستئذان ، وإنما التعبير بالاستئناس فيه إشارة وفيه لمحة قرآنية دقيقة جداً، وهو أنه لا بد أن يكون هناك أنس مشترك بين صاحب البيت ومن يريد الدخول في هذا البيت ، فلا بد أن يأذن صاحب البيت من هذا المستأذن راحة نفسية ويطمئن إلى أنه أهل لأن يدخل بيته، فإذا لم يجد هذا الأنس فيه ولم ترتاح إليه نفسه، فله أن يصرفه وله أن لا يأذن له ، فلهذا عبر بالاستئناس، فالاستئناس المقصود به هنا الاستئذان.

وقيل: الاستعلام، أي تستعلم من في البيت، حتى تستأنسوا: أي حتى تستعلموا.

يقول ابن مجاهد: يكون "بالتنحج، أو بأي وجه أمكن، ويتأني قدر ما يعلم أنه شعر به، ويدخل إثر ذلك".

فالمقصود أنه لا يدخل بيت حتى يستأنس وحتى يستأذن من صاحب البيت، وهنا يُورد المؤلف حديثاً في بيان هذا المعنى يقول: في سنن ابن ماجه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن واصل بن السائب عن أبي ثور عن أبي أيوب الأنصاري قال: قلنا: يا رسول الله ما الاستئناس؟ قال: (يتكلم الرجل بتسبيحة، وتكبير، وتحميدة، ويتنحج، ويؤذن أهل البيت). قلت: وهذا نص أن الاستئذان غير الاستئناس، كما قال مجاهد ومن وافقه.

^(١) هذه الفقرة جرى فيها تقديم وتأخير وحذف؛ لأجل الترتيب والتوضيح.

فكأن الاستئناس قدر زائد على الاستئذان ، فسر الرسول صلى الله عليه وسلم بما يكون من التسيحة والتكبير والتحميدة، وهذه فيها إحياء لذكر الله عز وجل، وتكون سبب في دخول الأنس إلى صاحب البيت ، وأن هذا المستأذن إنما هو صاحب سلم وصاحب أمن وصاحب خير لا أراد مقاتلة ولا غيرها .

المسألة الرابعة : تورد بعض الكتب رواية عن سعيد ابن جبير أنه قال حتى تستأنسوا، خطأ أو وهم من الكاتب، إنما هي حتى تستأنسوا! يقول أن الكاتب الذي كتب المصحف الأصل أن يكتب تستأنسوا فوهم وكتب تستأنسوا، وهذا القول خطير جدا ! وهو غير صحيح ولا يثبت عن سعيد ابن جبير ولا عن أمثاله من أتباع التابعين و من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا قول لا يصح ولا يثبت، وهذه مقالة غير صحيحة وغير ثابتة ، وما يروى عن سعيد ابن جبير أو ابن عباس أو غيرهما هذا كله لا ينبغي أن يلتفت إليه ؛ لأنه يطعن في أصل الدين ، والله تعالى يقول: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [سورة فصلت آية (٢٤)] . وقال: {إِنَّا نَحْنُ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [سورة الحجر آية (٩)] .

وهنا ينظر الإمام القرطبي قول ابن عطية : "ومما ينفي هذا القول عن ابن عباس وغيره أن تستأنسوا متمكنة في المعنى، بيّنة الوجه في كلام العرب". وقد قال عمر للنبي صلى الله عليه وسلم: أستأنس يا رسول الله ، وعمر واقف على باب الغرفة، الحديث المشهور. وذلك يقتضي أن طلب الأنس به صلى الله عليه وسلم، فكيف يُخطئ ابن عباس أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم في مثل هذا؟! فهذا قول غير صحيح .

المسألة الخامسة : ما مقدار الاستئذان؟ هل هو لمرة أو أكثر؟

الاستئذان كما في بعض الآثار ثلاثا، وصورته أن يقول: السلام عليكم، أَدْخَلَ؟ يبدأ بالسلام ثم يثني بطلب الدخول، فإن طُلب منه تحديد شخصيته فإنه يبين باسمه أو لقبه أو بأي صفة يُعرف بها وتميزه عن غيره، لا كما يقول بعض الناس أنا ، أو نحو هذا، وينبغي أن يستخدم العبارات المناسبة والعبارات الرقيقة ، كما في تعبير هذه الآثار "السلام عليكم، أَدْخَلَ؟". ولهذا لما قال رجل وهو عند بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أُلْجَ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أُخْرِجْ إِلَى هَذَا فَعَلِمَهُ الاستئذان)، فقال له: قل السلام عليكم أَدْخَلَ؟. هذه هي السنة في طلب الاستئذان.

المسألة السادسة : صفة الدقي : أن يكون دقا خفيفا ، وقد قيل إن أبواب رسول الله كانت تطرق بالأظافر، لا كما يفعله بعض الناس، يطرقون الباب بالعصي أو بالحجر أو ما شابه ذلك. روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كانت أبواب النبي صلى الله عليه وسلم تفرع بالأظافر).

❖ **ننتقل إلى الآية التالية وهي قوله تعالى :** {فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} .

✓ **صلة الآية بما قبلها :**

الآية الأولى تتحدث عن البيوت المسكونة (التي فيها سكنى)، وأنه لا يجوز لأحد أن يدخل إليها حتى يستأذن، فإن أذن له وإلا رجع ، فيقول الله تعالى: {فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} .

وسياقي في الدرس التالي -إن شاء الله- أن الآيات الأخر ستحدث عن البيوت غير المسكونة، فهذه الآية لا يزال الحديث فيها عن البيوت المسكونة، فلما تحدث عن البيوت المسكونة أنه يطلب من أصحابها الاستئذان، وأن هذا مطلب لأجل الدخول في البيت ، فإن لم يؤذن أو لم يوجد فيها أحد، أي لا يُرد أحد، فللمستأذن أحد حالتين : أما أن يؤذن له فيدخل ، وإما أن لا يؤذن له ، إما بلسان الحال أو بلسان المقال .

أما لسان الحال فهو أن يُسكت عنه، فهذا يصدق عليه قوله تعالى: **{فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ}** أي إن لم يرد عليكم أحدا فلا يجوز أن تدخلوها؛ لأنه قد يكون هو داخل البيت لكنه لا يريد أن يفتح لك أصلا. **{وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ}**. والمقالة هنا تكون بلسان الحال وتكون بلسان المقال أيضا، فلا ينبغي على شخص أن يلح في طلب الإذن بأكثر من ثلاث مرات.

المسألة الأولى: قال الله تعالى: **{فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا}** الضمير في "تجدوا فيها": للبيوت التي هي بيوت الغير المذكورة في الآية السابقة. فإن لم تجدوا فيها أحدا يأذن لكم، فلا تدخلوها حتى تجدوا إذنا.

المسألة الثانية: ختم الله هذه الآية بقوله عز وجل: **{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}** وهذا فيه وعيد شديد لمن تهاون في آداب الاستئذان أو قصر فيها، وقد يكون هذا هو المقصود، وهو أن يتجاوز آداب الاستئذان! أن يتجسس أو أن يملأ عينه بجوف البيت أو يرى ما لا يحل مما لا يؤذن له، أو أن يتسور البيت، فهذا من الوعيد الشديد.

يقول الإمام القرطبي: "توعّد لأهل التجسس على البيوت، وطلب الدخول على غفلة للمعاصي، والنظر إلى ما لا يحل ولا يجوز، ولغيرهم ممن يقع في محذور".

إذن هذه الآية عند الإمام القرطبي تتوعّد ثلاثة أصناف،

◀ الصنف الأول: أهل التجسس على البيوت، وطلب الدخول على غفلة للمعاصي، هذا الأمر الأول هو توعّد لأهل التجسس.
 ◀ الأمر الثاني النظر إلى ما لا يحل ولا يجوز.

◀ "ولغيرهم ممن يقع في المحذور"، وهو الوقوع في محظورات الاستئذان.

فهذه أمور ثلاثة قد ذكرها الإمام القرطبي كلها فيها وعيد، وفيها تهديد شديد.

وأیضا قد يتضمن قوله تعالى: **{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}** قد يكون فيه ترغيب لمن أخذ بأدب القرآن وأخذ بالاستئذان ورجع حينما قيل له ارجع، أو حين لم يجد أحدا فإنه يرجع؛ فإن الله تعالى يعلم مجيئه ويعلم استجابته لهذا الأدب القرآني الرباني الذي رُئي عليه، فهو وإن لم يعلم به أهل البيت أنه قد جاء، أو أنهم صرفوه ثم انصرف واستجاب لهذا، فإن هذا يثاب عليه، حيث يقول الله تعالى: **{وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}**. ومما يؤكد أن هذا فيه وعد أيضا، أن قوله تعالى: **{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}** أتى بعد قول الله تعالى: **{فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ}**.

إذن الآية تضمنت وعد ووعيد.

✓ الهدايات:

١- أن القرآن ضمن لأهل البيوت حقوقهم في الاستئذان، فليس لأحد أن يتجاسر وأن يتسور هذه الأسوار دون إذن من أهل البيت، وهذه أصلا عادة كانت في الجاهلية، كان أهل الجاهلية يهجم الشخص على أخيه وربما على أهل بيته دون أن يشعرهم بالإذن لا من قريب ولا من بعيد، وكانت بيوتهم مفتوحة بعضها على بعض، فربما يكون الرجل قد كشفت عورته أو يكون مع أهله في حالة لا يجب أن يراه فيها أحد أو هكذا، هذه الأمور كانت في الجاهلية مستباحة وكانت الأعراض تنتهك أو الستور تنتهك؛ لأنه لم يكن هناك رادع يردعهم أو حائل يحول وبين مآربهم، فأتى الله بهذا الأدب الحضاري الراقي الذي يُشير إلى حضارة الإسلام وإلى رقيه.

٢- أن الخير والنماء باتباع هدي القرآن في الاستئذان.

٣- أن الاستئذان والسلام شرطان أساسان في دخول بيوت الغير، لدينا عند دخول البيت أمران لابد أن نراعيهما، الأمر الأول الاستئذان، ثم بعد ذلك السلام، فهذان هما الشرطان لدخول البيوت، وهذه هي السنة التي دلنا عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الحلقة (١٩)

موضوع الحلقة : تفسير الآيات ٢٩، ٣٠، ٣١ من سورة النور.

هذه الآيات فيها تنمة في الحديث عن أدب الاستئذان وما يتصل به من غض البصر؛ لأن المقصود من الاستئذان هو حماية البيوت من ألا تقع الأبصار على ما لا يستحبه أصحابها، غض الأبصار امتداد للحديث عن موضوع الاستئذان.

الآيات :

قال تعالى : {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)}.

المفردات الغريبة :

- {أَوْ نِسَائِهِنَّ} : يعني المسلمات ، ولا ينبغي لمسلمة أن تتجرد بين يدي كافرة.
- {أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ} : يريد الأتباع الذين ليس لهم إربة في النساء، أي حاجة، مثل: الخصى ، والخنثى، والشيخ الهرم، هؤلاء كلهم غير أولي الإربة.
- {أَوِ الطِّفْلِ} يريد الأطفال ، يدل على ذلك قوله تعالى: {الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ} أي لم يعرفوها ولم يفهموها، فكأن الطفل اسم جنس لهذا أتى بعده بالجمع {الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ}.
- {وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ} أي لا يضربن بإحدى الرجلين على الأخرى ليصيب الخلخال الخلخال فيعلم أن عليها خلخالين ، هذا كله في الزينة .

❖ قوله تعالى : {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)}.

المسائل :

المسألة الأولى : روي أن بعض الناس لما نزلت آية الاستئذان تعمق في الأمر ، فكان لا يأتي موضعاً خرباً ولا مسكوناً إلا سلم واستأذن ؛ فنزلت هذه الآية ، أباح الله تعالى فيها رفع الاستئذان في كل بيت لا يسكنه أحد ؛ لأن العلة في الاستئذان إنما هي لأجل خوف الكشفة على الحرمات ، فإذا زالت العلة زال الحكم .

❑ يعني أن هذا في الأماكن العامة ، لكن أي الأماكن العامة ؟

المسألة الثانية : اختلف العلماء في المراد بهذه البيوت ؛ فقال محمد بن الحنفية ، وقتادة ، ومجاهد : "هي الفنادق التي في طرق السابلة" . قال مجاهد : "لا يسكنها أحد بل هي موقوفة ليأوي إليها كل ابن سبيل ، وفيها متاع لهم .

وقال جابر بن زيد : "ليس يعني بالمتاع الجهاز ، ولكن ما سواه من الحاجة ؛ إما منزل ينزله قوم من ليل أو نهار ، أو خربة يدخلها لقضاء حاجة ، أو دار ينظر إليها ، فهذا متاع ، وكل منافع الدنيا متاع" .

قلت - أي القرطبي - : واختاره أيضًا القاضي أبو بكر بن العربي وقال : "أما من فسر المتاع بأنه جميع الانتفاع ، فقد طبق المفصل وجاء بالفيصل ، وبين أن الداخل فيها إنما هو لما له من الانتفاع ، فالطالب يدخل في الخانكات وهي المدارس لطلب العلم ، والساكن يدخل الخانات وهي الفنايق ، أي الفنادق ، والزبون يدخل الدكان للابتياح ، والحاقن يدخل الخلاء للحاجة ؛ وكل يؤتى على وجهه من بابه" .

إذن الاستئذان خاص بالبيوت المسكونة المملوكة لأناس معينين ، أما التي هي عامة مثل الفنادق مثل ما ذكر المؤلف ، أو المساجد ، المدارس ، فهذا لا يحتاج إلى استئذان ، بل يحتاج إلى سلام إذا كان فيه من يُسلم عليه ، فالسلام ليس لقصد الاستئذان وإنما لأجل السلام ذاته ، لإحياء سنة السلام ، لا باعتباره جزء من الاستئذان ، فالمقصود أن الاستئذان خاص بالبيوت المسكونة الخاصة .

❖ قوله تعالى : {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ} قال قتادة : "عما لا يحل لهم ؛ {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ} خاتمة الأعين من النظر إلى ما نهي عنه .

✓ المسائل :

المسألة الأولى : قوله تعالى : {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} أي عما لا يحل ، أما ما هو مباح وما فيه النظر للعبارة وما فيه النظر للعلم وما فيه النظر للفائدة ، فهذا أمر مطلوب لا حرج فيه ، بل هو مندوب إليه ، لهذا جاء التعبير {مِنْ أَبْصَارِهِمْ} يعني أنه ليس كل شيء يُغض منه البصر ، وإلا كان خلق الله الناس عريان ! هناك أمور محرمة {يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} أي يغضوا من الشيء القليل وهي الأمور المحرمة التي نهى الله عنها ، وأما ما عدا ذلك فإنه من المباحات أو المندوبات ، أو قد يكون من الواجبات خاصة إذا كان في شهادة ، أو ما شابه ذلك .

المسألة الثانية : قوله تعالى : {مِنْ أَبْصَارِهِمْ} يبين المؤلف أن : "من" هنا زائدة ؛ كقوله تعالى {فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} (٤٧) [سورة الحاقة] . وقيل : "من" للتبعية ؛ لأن من النظر ما يباح . وقيل : الغض النقصان ؛ يقال : غض فلان من فلان أي وضع منه ؛ فالبصر إذا لم يمكن من عمله ، فهو موضوع منه ومنقوص . فـ "من" صلة للغض ، وليست للتبعية ولا للزيادة .

من رأى أنها للتبعية واضح ، لكن من يرى أنها زائدة أو صلة فإنه يرى أن التبعية حصل من عبارة {يَغُضُّوا} ؛ لأن غض البصر يكون عن شيء دون شيء ، يعني أن التبعية متحقق بالتعبير بالغض ، فلا يحتاج إلى "من" ، لهذا اعتبر بعضهم أن {من} هنا زائدة ، كقوله تعالى : {فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} (٤٧) [سورة الحاقة] أي : فما منكم أحد عنه حاجزين .

المسألة الثالثة : البصر هو الباب الأكبر إلى القلب ، وأمر طرق الحواس إليه ، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته ، ووجب التحذير منه ، وغضه واجب عن جميع المحرمات ، وكل ما يخشى الفتنة من أجله ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : (إياكم والجلوس على الطرقات ... الحديث) . وفي صحيح مسلم ، عن جرير بن عبد الله قال : (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة ؛ فأمرني أن أصرف بصري) . وهذا يقوي قول من يقول : إن "من" للتبعية ؛ لأن النظرة الأولى لا تملك فلا تدخل تحت خطاب تكليف .

إذن كأن المؤلف يميل إلى هذا خاصة أنه قرره في مناسبة أخرى كما في هذا السياق .

وحرام على الرجل أن ينظر إلى ذات محرمه نظر شهوة يرددها ، فكأنه يجوز للرجل إذا وقع بصره على أمر حرام أنه لا يأثم به ، إنما يأثم إذا أدام النظر في هذا.

المسألة الرابعة : قوله تعالى : **{وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ}** أي يستروها عن أن يراها من لا يحل .

وقيل : ويحفظوا فروجهم أي عن الزنا ؛ وعلى هذا القول لو قال : "من فروجهم" لجاز .

والصحيح أن الجميع مراد واللفظ عام .

على القول أن يستروها عن أن يراها من لا يحل ، هذا فيه منع للبعض دون الآخر ، بمعنى يجوز له هو أن ينظر إلى فرجه مثلاً ، أو أن يرى فرج زوجه - كما سيأتي إن شاء الله - ، لهذا لو عبر المؤلف في غير القرآن "ويحفظوا من فروجهم" لجاز ذلك ، لكن هناك فرق بين "يغضوا من أبصارهم" و "يحفظوا فروجهم" ؛ لأن الأصل في البصر الحل ، بينما الأصل في الفرج الحرمة ، لهذا اختلف التعبيران .

❖ **قوله تعالى {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ... (٣١)} .**

الحقيقة أن الخطاب حينما يقول تعالى **{قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ}** يدخل فيه المؤمنات ، وهذا في جميع القرآن .

المسألة الأولى : ولهذا قال المؤلف : خص الله سبحانه وتعالى الإناث هنا بالخطاب على طريق التأكيد ؛ فإن قوله **{قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ}**

يكفي ؛ لأنه قول عام يتناول الذكر والأنثى من المؤمنين ، حسب كل خطاب عام في القرآن .
وقد بينا شيئاً من هذا عند قوله تعالى **{إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ (٢٣)}** [سورة النور] . وأن الأصل أن يؤتى بالخطاب للتذكير على وجه التغليب ، لكنه قد يُنص على النساء لأجل مزية أو خصيصة أو نحو ذلك ، فيأتي الذكر لهن ، وإلا فالنساء شقائق الرجال في كل ما أمر الله به ، ونهى عنه في القرآن الكريم .

المسألة الثانية : يقول المؤلف رحمه الله : أمر الله سبحانه وتعالى النساء بألا يبدين زينتهن للناظرين ، إلا ما استثناه من الناظرين في باقي الآية ؛ حذاراً من الافتتان ، ثم استثنى ما يظهر من الزينة .

في قوله تعالى : **{وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا}** ما هو الذي يجوز أن يظهر من المرأة من زينتها ؟

في هذا خلاف طويل ، قال ابن عطية : "ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بألا تبدي وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه ، أو إصلاح شأن ونحو ذلك . ف "ما ظهر" على هذا الوجه مما تؤدي إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه ."

أي: قد يظهر من المرأة أشياء يسيرة ، قد يظهر على يدها مثلاً الخاتم ، شيئاً من أظفارها ، شيئاً مما يصعب عليها أن تخفيه من حركتها ، أو من كلامها ، فالمرأة قد تظهر زينتها في كلامها ؛ لأن من النساء جمالها في صوتها لكنها لا بد أن تتكلم ، فهذا مما لا بد منه ، لذلك قال تعالى : **{وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا}** فمثل هذا يتجاوز فيه ويتسامح فيه ، وهذا من يسر الشريعة السمحة .

المسألة الثالثة : يقول رحمه الله : من الزينة ظاهر وباطن ؛ فما ظهر فمباح أبداً لكل الناس من المحارم والأجانب ؛ وقد ذكرنا ما للعلماء فيه . وأما ما بطن فلا يحل إبدائه إلا لمن سماهم الله تعالى في هذه الآية .

المسألة الرابعة : هنا تعبير بـ "خُمْرٌ" بعض الناس يقرؤها "بخمورهن" وهذا غلط ! والصحيح : **{بِخُمْرِهِنَّ}** .

الخُمْرُ : جمع خِمَار ، وهو ما تغطي به رأسها ؛ ومنه : اُخْتَمَرَتِ المرأة وتَخَمَّرَت ، وهي حسنة الحُمْرَةِ .

{وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ} والجيوب : هي الصدور ، يعني على مواضع جيوبهن .

المسألة الخامسة : المستثنون الذين أشار إليهم القرطبي رحمه الله في قوله تعالى : **{إِلَّا لِيُعَوِّلَهُنَّ}** البعل : هو الزوج والسيد في كلام

العرب .

المسألة السادسة: اختلف الناس في جواز نظر الرجل إلى فرج المرأة ؛ يعني الزوج هل يجوز له أن ينظر إلى فرج امرأته؟ والمرأة هل يجوز لها أن تنظر إلى فرج زوجها؟ **ذكر قولين:**

أحدهما : يجوز ؛ لأنه إذا جاز له التلذذ به فالنظر أولى .

وقيل : لا يجوز ؛ لقول عائشة - رضي الله عنها - في ذكر حالها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ما رأيت ذلك منه ولا رأيت ذلك مني)** .

يقول المؤلف رحمه الله : والأول أصح ، وهذا محمول على الأدب ؛ قاله ابن العربي .

المؤلف يرجح أنه يجوز للرجل أن ينظر إلى فرج المرأة ، والعكس أيضًا ، ويقول : ما كان من قول عائشة أنها لم تر هذا الشيء ، فإن هذا إنما هو من كمال الأدب ، لا أنه على المنع وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله .

المسألة السابعة: قوله تعالى : **{أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ}** يريد ذكور أولاد الأزواج ، ويدخل فيه أولاد الأولاد وإن سفلوا ، من ذكران كانوا أو إناث ؛ كبني البنين وبني البنات . وكذلك آباء البعولة والأجداد وإن علوا من جهة الذكور لآباء الآباء وآباء الأمهات ، وكذلك أبنائهن وإن سفلوا . وكذلك أبناء البنات وإن سفلن ؛ فيستوي فيه أولاد البنين وأولاد البنات .

أي عامة الأصول والفروع ، الأصل مهما علا من الآباء ، والفروع مهما نزل^(١) من الأبناء وأيضًا من البنات .

المسألة الثامنة: قوله تعالى : **{أَوْ نِسَائِهِنَّ}** أي المسلمات ، ويدخل في هذا الإماء المؤمنات ، ويخرج منه نساء المشركين من أهل الذمة وغيرهم ؛ وهذا سبق بيانه في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة .

المسألة التاسعة: قوله تعالى : **{أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ}** ظاهر الآية يشمل العبيد والإماء المسلمات والكتاتيات . وهو قول جماعة من أهل العلم .

قال سعيد بن المسيب : "لا تغرنكم هذه الآية أو ما ملكت أيمانهن ، إنما عني بها الإماء ولم يعن بها العبيد" . وكان الشعبي يكره أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته . وهو قول محاهد ، وعطاء .

قوله تعالى : **{أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ}** المرأة قد يملك يمينها رجل ، وقد يملك يمينها امرأة ، أي يكون عندها عبيد وإماء ، فيجوز لها أن تكشف للإماء ، هذا أمر متفق عليه ، لكن الكشف للعبيد الرجال؟؟

بعض العلماء يرى جوازه وبعضهم يرى منعه .

المسألة العاشرة: قوله تعالى : **{أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ}** سبق بيان هذا في تفسير غريب القرآن قيل : هو الأحمق الذي لا حاجة له في النساء ، وقيل الأبله . وقيل : الرجل يتبع القوم فيأكل معهم ويرتفق بهم ؛ وهو ضعيف لا يكثرث للنساء ولا يشتهيهن . وقيل العنين . وقيل الخصي .. إلى قوله رحمه الله : وهذا الاختلاف كله متقارب المعنى ، ويجتمع فيمن لا فهم له ولا همة ينتبه بها إلى أمر النساء . يعني هذا من اختلاف التنوع .

المسألة الحادية عشر: قوله تعالى : **{أَوِ الطِّفْلِ}** اسم جنس بمعنى الجمع ، والدليل على ذلك نعتة بـ **{الَّذِينَ}** .

وفي مصحف حفصة {أو الأطفال} . **{الَّذِينَ لَمْ يَطْهَرُوا}** معناه يطلعوا بالوطء ؛ أي لم يكشفوا عن عوراتهن للجماع لصغرهن وقيل : لم يبلغوا أن يطيقوا النساء ؛ يقال : ظهرت على كذا أي علمته .

المسألة الثانية عشر: قوله تعالى : **{وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ}** أي لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت لتسمع صوت خلخالها ؛ فإسماع

(١) قال الأستاذ : والفروع مهما علا من الأبناء ... لعله سبق لسان !

صوت الزينة كإبداء الزينة وأشد ، وهذا سبق بيانه.

قوله تعالى: **{وَتُوبُوا}** أمر . ولا خلاف بين الأمة في وجوب التوبة ، وأنه فرض متعين .

التوبة في قوله تعالى : **{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا}** على وجه الوجوب .

✓ الهدايات :

١- غض البصر يحمي المؤمن في الوقوع فيما حرم الله.

٢- رحمة الله بالمؤمنات إذ أباح لهن ظهور ما لا بد منه، ومنع كل ما من شأنه إحداث الفتنة سدًا للذرائع.

الحلقة (٢٠)

موضوع الحلقة : تفسير الآيات ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ من سورة النور .

وهي امتداد لموضوع الستر والعفاف ، والإسلام قد اتخذ في البناء التربوي وسيلتين مهمتين نستخدمهما جميعاً في التربية وهما :
(أ) وسيلة المنع . (ب) وسيلة الدفع .

➡ أما وسيلة المنع : فهي أن يحال بين الشخص وبين ما يكون سبباً في إغوائه أو في ضلالته أو في الوقوع في أي إثم من الآثام ، وهذا قد تبين معنا في ما يتعلق مثلاً في موضوع الاستئذان وموضوع غض البصر ، فكل هذه وسائل منع تحول بين البصر وبين أن يقع على شيء ممنوع أو يجزُّ إلى شيء محرم .

➡ أما وسائل الدفع : فهي التي تساعد الإنسان على عمل الخير وعلى بذل المعروف وعلى سلوك الهدى والصرط المستقيم، فهي بذل جهد من المؤمن؛ لأجل أن ينال هذا الخير ويثبت عليه وأن يتزود منه ، وهي ما أسميناه "وسائل دفع".
هذه الآيات التي نحن بصدددها وهي قوله تعالى: **{وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُم وَإِمَائِكُم}** هذه وسيلة دفع ، تعين الإنسان على العفاف والستر ، على أن يُحصَّن فرجه فيما أحله الله له ، وهي البدائل لما حرمه الله؛ لأجل أن يتمتع بها فيما أباحه الشارع .

✚ الآيات :

قال تعالى : **{وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُم وَإِمَائِكُم إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلَيْسَتَعَفِيفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم فَكَاتِبُوهُمْ إِن عِلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُم وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِن أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُم آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)}**

✓ المسائل :

المسألة الأولى : يقول المؤلف : "هذه المخاطبة تدخل في باب الستر والصلاح ؛ أي زوجوا من لا زوج له منكم فإنه طريق التعفف".

من المخاطب في قوله تعالى : **{وَأَنكِحُوا}** ؟

الخطاب للأولياء **{وَأَنكِحُوا}** ، وقيل للأزواج .

والصحيح الأول ؛ إذ لو أراد الأزواج لقال "وانكحوا" بغير همز ، وكانت الألف للوصل ؛ لأنه إذا كان بهذه الصيغة "وانكحوا" فإنه يكون إنكاح من الغير لمن يقع عليه النكاح ، وهذا لا يكون إلا من الأولياء . وإما أن يكون نكاح من المخاطب

نفسه وهذا يكون بهمة الوصل ، أي دون وسيط : "وانكحوا" أي أيها الأزواج ، فهما معنيان ، والصحيح الأول وهو أن الخطاب للأولياء.

ويستدل المؤلف بهذا على أن المرأة ليس لها أن تُنكح نفسها بغير ولي ؛ يعني كأن أمر الزواج مرتبط بوجود الولي ، وهذا على رأي غير الأحناف كما هو مشهور .

المسألة الثانية : من هم الأيامي؟ الأيامي هم من لا أزواج لهم من الرجال والنساء.

{وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى} أنكحوا أبناءكم وبناتكم فهو يشمل الذكور والإناث ، وإن كان أكثر استعماله في النساء ، إلا أنه يستعمل أيضاً للرجال.

المسألة الثالثة : المقصود من قوله تعالى : {وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ} هم الحرائر والأحرار ؛ يعني من أولادكم وأولاد المسلمين وبنات المسلمين ، وإنما قلنا أنه خاص بالحرائر والأحرار لقول الله: {وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ} .

فقوله {وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ} هذا خاص بالعبيد ، سواء كان من الإناث "الإماء" أو من الذكور "المماليك" فالمماليك منهم الذكور وهم العبيد ، ومنهم الإناث وهن الإماء .

المسألة الرابعة : يرغب الله تعالى في النكاح ويعد بعدة ربانية في قوله: {إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} وهذا وعد بالغنى للمتزوجين طلب رضا الله.

والغنى هنا غنى النفس ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس). فهذا فضل من الله ؛ لذلك قال تعالى: {يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}. وفي الحديث: (ثلاثة كلهم حق على الله عون: المجاهد في سبيل الله ، والناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء).

❖ الآية التالية :

قوله تعالى: {وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا} هنا باب آخر من أبواب الخير التي تعين المؤمن على السترو على العفاف ، فقد لا يجد النكاح ، أي لا يستطيع أن يجد ما ينكح به من المال أو من القدرة ، فقال تعالى : {وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}.

المسألة الأولى : قوله تعالى : {وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ} الخطاب لمن يملك أمر نفسه - وهذا خاص بالحر - أي من زمامه بيده ، وأما الأمة والعبد فإن زمامه بيد سيده ، فقوله تعالى: {وَلَيْسَتَغْفِرَ} خطاب للأحرار.

فأمر الله تعالى بهذه الآية كل من تعذر عليه النكاح ولا يجده ، بأي وجه تعذر أن يستغفر. إذا لم يجد المرأة الصالحة مثلاً ، أو لم يكن عنده المال القادر عليه أو حيل بينه وبين الزواج لأي سبب من الأسباب ، فإن هذا لا يسوغ له الوقوع في الفاحشة ، بل ذكر الله تعالى خياراً آخر يصون المؤمن ويصون إيمانه وهو "الاستغفار"

، فليس لأحد أن يقول أنه لم يتيسر له الزواج أو لم يستطع أو لم يجد المرأة الصالحة فيقع فيما حرمه الله ، بل عليه أن يستغفر.

المسألة الثانية : قوله تعالى : {لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا} أي طول نكاح ؛ لأنه لا بد أن يقدر محذوف "طول النكاح" أو "القدرة على النكاح" أو ما شابه ذلك من التقادير التي يفهم منها النص.

ثم عاد مرة أخرى إلى العبيد والإماء ؛ لأنهم كان لهم وجود في وقت نزول القرآن الكريم بكثرة بين أوساط الناس ، وليس معنى هذا أن الإسلام يشجع على الرقيق وعلى وجوده في المجتمعات ، كلا ، بل الإسلام - كما سنلاحظ في الآيات التالية - أنه شجع على عتق الرقيق ، وجعل وجوهاً ومنافذ كثيرة للتقليل من الرقيق والمماليك في المجتمعات وذلك من خلال عتق الرقبة في الكفارات وفي غيرها .

❖ **قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ}**.

في هذه الآية مساعدة وتشجيع على العتق، **ونسنتوضح هذا من خلال بيان تلك المسائل:**

المسألة الأولى: يقول المؤلف: "لما جرى ذكر العبيد والإماء فيما سبق، وصل به أن العبد إن طلب الكتابة فالمستحب كتابته؛ وربما يقصد بالكتابة أن يستقل ويكتسب ويتزوج إذا أراد، فيكون أعف له".

أي لما كانت المكاتبه -وهي طلب العتق- سبيل إلى الزواج فقد رغب الإسلام في هذا الأمر **{وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ}** أي أن العبد يطلب من سيده أن يتكاتب وإياه، أن يسدد مبلغا من المال، إما على أقساط، وإما على نحو آخر، فمتى قضى هذا السداد فإنه يُعتق، وهذا هو المقصود بالمكاتبه في الآية.

يقول المؤلف: وعلى الجملة فإن الله تعالى أمر المؤمنين كافة أن يُكاتب منهم كل من له مملوك وطلب المملوك الكتابة وعلم سيده منه خيرا -يعني إذا كان صالحًا-.

المسألة الثانية: يقول المؤلف: الكتاب والمكاتبه سواء؛ مفاعلة مما لا تكون إلا بين اثنين، أي بين العبد وسيده، لأنها معاقدة بين السيد وعبده؛ يقال: كاتب يكاتب كتابا ومكاتبه، كما يقال: قاتل قتالا ومقاتلة. فالكتاب في الآية مصدر كالقتال والجلاد والدفاع -كلها على وزن "فَعَال" - فهي مفاعلة بين العبد وبين سيده.

المسألة الثالثة: ما المراد بـ {خَيْرًا} في قوله تعالى: {إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا}؟

اختلف العلماء في ذلك اختلافا كثيرا، وهذا طبعاً شرط في المكاتبه.

⇐ منهم من ذكر أن المقصود بالخير: المال والأداء. بمعنى أنه عنده قدرة على أن يسدد هذه المكاتبه.

⇐ ومنهم من قال: أن الخير هو الدين والأمانة.

⇐ وقال بعضهم: الاكتساب والأداء.

يقول الإمام الطحاوي: "وقول من قال إنه "المال" لا يصح عندنا؛ لأن العبد مال لمولاه، فكيف يكون له مال؟! والمعنى عندنا: إن علمتم فيهم الدين والصدق، وعلمتم أنهم يعاملونكم على أنهم متعبدون بالوفاء لكم بما عليهم من الكتابة والصدق في المعاملة فكاتبوهم".

قال أبو عمر - يعني ابن عبد البر -: "من لم يقل إن الخير هنا "المال" أنكر أن يقال "إن علمتم فيهم مالا"، وإنما يقال: إن علمتم فيهم الخير والصالح".

فإذا أردنا أن نقدر في قوله تعالى: {إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا} فإما أن نقدر: فكاتبوهم إن علمتم فيهم مالا، أو: فكاتبوهم إن علمتم فيهم صلاحا، فلا شك أن الأظهر والأوفق هو: إن علمتم فيهم صلاحا. وحديث بريرة يرد على قول من قال أن الخير هو المال.

المسألة الرابعة: تقول عائشة رضي الله عنها: (دخلت عليّ بريرة فقالت: إن أهلي كاتبوني على تسع أواق في تسع سنين كل سنة أوقية، فأعينيني... الحديث). فهذا دليل على أن للسيد أن يكاتب عبده وهو لا شيء معه؛ ألا ترى أن بريرة جاءت عائشة تخبرها بأنها كاتبت أهلها وسألتها أن تعينها، وذلك كان في أول كتابتها.

أي أن بريرة حينما طلبت المال من عائشة لم يكن عندها مال أصلا، وقد طلبت الكتابة من سيدها، فهي حينما طلبت المكاتبه لم يكن عندها مال أصلا، لهذا قال الله تعالى: {إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا} إذن فالمقصود ليس المال.

يقول المؤلف: وفي هذا دليل على جواز كتابة الأمة، وهي غير ذات صنعة ولا حرفة ولا مال.

وفي ختام هذه المسألة يقول المؤلف : وفي هذا الحديث ما يدل على أن من تأول في قوله تعالى { **إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا** } أن المال الخير ، ليس بالتأويل الجيد ، وأن الخير المذكور هو القوة على الاكتساب مع الأمانة . والله أعلم .

المسألة الخامسة : سبب نزول قوله تعالى : { **وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا** } :

روى جابر بن عبد الله ، وابن عباس - رضي الله عنهم - أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبي ، وكانت له جارتان إحداها تسمى معاذة ، والأخرى مسيكة ، وكان يكرههما على الزنا ويضربهما عليه ابتغاء الأجر وكسب الولد ؛ فشكتا ذلك إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فنزلت الآية فيه وفيمن فعل فعله من المنافقين .

المقصود بالفتيات هنا: الإماء ، والبغاء: هو الزنا .

والقول هنا { **إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا** } راجع للفتاة ، يعني أن الفتاة لا ترغب هذا الشيء خاصة إذا كانت مؤمنة فإن هذا محرم في شريعتها .

قوله تعالى { **لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } أي أنكم تكرهون فتياتكم على البغاء ؛ لأجل طلب عرض الحياة الدنيا ، وهو الشيء الذي تكسبه الأمة بفرجها ، والولد يسترق فيباع .

ابن سلول رأس النفاق كان يطلب من جواريه الوقوع في الزنا ؛ لأجل أن يجمع المال من جراء الزنا ، وأيضاً لأجل أن ينجب الأولاد فيجعلهم رقيقاً ، وهذا يتنافى مع مقاصد الإسلام ، لذلك ذم الله ذلك فقال: { **لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } .

قوله تعالى : { **وَمَنْ يُكْرِهْنَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } أي من بعد إكراههن : أي "لهن غفور رحيم" أي أن الله تعالى يغفر ويرحم الفتيات ، لا من أكرههن ! ولهذا جاء في قراءة ابن مسعود : (لهن غفور) يعني للمكروهات ، وليس للمكروه .

ثم عدد تعالى على المؤمنين نعمه فيما أنزل إليهم من الآيات المنيرات ، وفيها ضرب لهم من أمثال الماضين من الأمم ليقع التحفظ مما وقع أولئك فيه .

✓ الهدايات :

- ١- حث الإسلام على الزواج والإعانة عليه.
- ٢- الصلاح مطلب في إنكاح الأيامى.
- ٣- المقدرة على النكاح أساس في طلبه ، وإلا فالعفاف والتصبر .
- ٤- سعة فضل الله تعالى ، وعلمه أن آيات القرآن الكريم اشتملت على الآيات البينات والهدى والمواعظ ممن سبق لمن ينتفع بها وهم المتقون.

الحلقة (٢١)

موضوع الحلقة : تفسير الآية (٣٥) من سورة النور .

وهي الآية التي سميت السورة باسمها { **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } .

✚ الآيات :

قال تعالى : { **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)** } .

قبل أن نشرع في تفسير هذه الآية أود أن أنبه أننا بعون الله تعالى سنبدأ اعتباراً من هذه الآية بالرجوع إلى تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير، حيث أمضينا رحلة علمية وإيمانية تفسيرية في تضاعيف الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ومن باب التنوع وتتميماً للمنهج الذي قرّر حيث إن أحد مصادره المعتبرة هو تفسير القرآن العظيم لابن كثير، من هنا سنبدأ إن شاء الله بالرجوع لتفسير القرآن العظيم لابن كثير، إضافة إلى تفسير غريب القرآن لابن قتيبة في بيان المفردات الغريبة.

✓ لمحة عن تفسير ابن كثير^(١):

ويمتاز تفسير القرآن العظيم لابن كثير بأنه يعنى بتفسير القرآن بالقرآن، وهذا المنهج قد سار عليه وهو من المؤسسين والسابقين في هذه المنهجية العلمية في تفسير القرآن الكريم، وأيضاً يمتاز تفسيره في أنه مبني على الأثر، وهو ينتقي من الآثار أصحها وأجودها وأحسنها والمقبول منها، وأما المردود والضعيف والذي لا يعول عليه فإنه يتعقبه بالرد، وبهذا يعتبر تفسيره من أنقى التفاسير من الإسرائيليات ومن الأشياء الدخيلة؛ ولهذا يعتبر تفسير القرآن العظيم لابن كثير من أنفع التفاسير وأدقها وأكثرها تحذيراً وتحقيقاً، وسيتبين لنا هذا من خلال قراءة هذا التفسير والاطلاع على ما فيه.

وهذا التفسير يمثل لونا مهما من ألوان علم التفسير، وهو التفسير بالمأثور، فالجامع لأحكام القرآن للقرطبي يمثل التفسير بالرأي، وإن كان قد اشتمل كل منهما على رأي ومأثور، لكن ما يرد من الرأي في تفسير القرآن العظيم لابن كثير فإنه على وجه التبعية، وإلا فالأساس هو المأثور، بينما ما جاء في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي الأصل فيه أن يكون من قبيل التفسير بالرأي المحمود والمقبول والحسن، وهو أيضاً لا يخلو من الآثار ومن الأحاديث كما اطلعنا عليه وقرأنا فيه.

✓ تفسير الآية:

يستهل المؤلف رحمه الله تفسير الآية بقول علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول: "هادي أهل السموات والأرض". وهذه الصحيفة من أشهر الصحف في التفسير وأثنى عليها الإمام أحمد بن حنبل، وهي معروفة، كانت موجودة في مصر، يقول: "لو رحل إليها الشخص فإن ذلك ليس بكثير"، وهي من أصح أو من أشهر التفاسير، وهي من التفاسير المقبولة التي اعتمد عليها أهل التفسير في تفسير القرآن العظيم.

علي بن أبي طلحة يروي عن ابن عباس يقول: "هادي أهل السموات والأرض"، وهي طبعاً لا تقارن بما جاء في تنوير المقباس كما عن ابن عباس، فذاك قد ذكره الفيروز آبادي بإسناد لا يثبت ولا يصح، أما ما جاء عن ابن عباس عَنِ عَلِي بْنِ أَبِي طَلْحَةَ وَمَجَاهِدِ بْنِ جَبْرِ وَعَطَاءٍ وَأَمثالهم فهذا هو الذي يعول عليه.

يذكر ابن جريج عن ابن عباس وعن مجاهد: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} "أي يدبر الأمر فيهما، نجومهما وشمسهما وقمرهما".

وعن أنس ابن مالك قال: "إن إلهي يقول (نوري هداي)". واختار هذا القول ابن جرير الطبري.

إذن علي ابن طلحة يفسر الآية عن ابن عباس: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي هادي أهل السموات والأرض.

وكذلك أنس ابن مالك رضي الله عنه يقول: إن إلهي يقول (نوري هداي)، اختار هذا القول ابن جرير الطبري.

أما القول الآخر الذي يروي عن ابن عباس في رواية أخرى وعن مجاهد ابن جبر "أي يدبر الأمر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما"، فهذا قول آخر، لكن ما اختاره ابن جرير هو الأظهر.

هنا أقوال أخرى أيضاً: عَنِ الضَّحَّاكِ: "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ". نور السماء بالملائكة ونور الأرض بالأنبياء^(٢).

(١) هذا الموضوع وضع من قبل القائمين على إعداد المذكرة.

(٢) كذلك هذه العبارة من تفسير البغوي.

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يقول: (اللَّهُمَّ لك الحمد، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن) الحديث.

■ إذن يتلخص من هذا أنه على قراءة {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أن هناك قولين:

➤ الهادي أو المدبر الأمر فيهما ونجومهما وشمسهما وقمرهما.

➤ وأما المختار فهو قول {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ} أي هادي أهل السموات، أو نوري هادي، كلاهما بمعنى واحد.

➤ وأما على القراءة الأخرى {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ} فهذا فعل.

■ {مَثَلُ نُورِهِ} أيضًا في هذا الضمير قولان: هل هو نور الله عز وجل أو نور آخر؟

➤ القول الأول: يذكر المؤلف عن ابن عباس: أنه عائد إلى الله عز وجل، أي: مثل هداة في قلب المؤمن، {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ}، وهذا قد يكون أقرب؛ لأن الضمير يعود إلى مذكور سابق، والمذكور السابق هو الله عز وجل في قوله تعالى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، {مَثَلُ نُورِهِ} أي في قلب المؤمن.

➤ القول الثاني: يقول إن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام؛ لأنه قد يعاد الضمير على شيء لم يسبق له كلام لكن السياق يدل عليه، مثل قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١)} لم يسبق ذكر للقرآن، لكن حينما عبر الله عز وجل بهذا بالإنزال عرفنا أن المنزل هو القرآن الكريم.

وحينئذ يكون تقدير الكلام: "مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة"، فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه، كما قال تعالى: {أَقْمَنَ كَأَن عَلَى بَيْنِنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ} [الآية (١٧) سورة هود] فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف.

قوله تعالى: {كَمِشْكَاةٍ} قال ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغير واحد: هو موضع الفتيلة من القنديل هذا هو المشهور، ولهذا قال بعده: {فِيهَا مِصْبَاحٌ} وهو الذبالة التي تضيء.

إذن كمشكاة موضع الفتيلة من القنديل، فإذا كان هذا هو القنديل فإن موضع الفتيلة الذي هو في الجوف هاهنا هو المشكاة، والمصباح هو ما يكون من هذه الفتيلة، يقول: {فِيهَا مِصْبَاحٌ} هو النور الذي في الذبالة، الذبالة التي تضيء والتي يوقد فيها ما يستضاء به.

وهنا يبين وجه المثل أبي بن كعب الصحابي الجليل رضي الله عنه يقول: "المصباح هو النور، وهو القرآن والإيمان الذي في صدره".

{كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ} هو القرآن والإيمان الذي في صدره.

إذن المشكاة هي أشبه ما تكون بصدر المؤمن، تشبيه الصدر بالمشكاة، الصدر شبه بالمشكاة وهو موضع الفتيلة الذي هو القلب، قال هنا أبي بن كعب: المصباح هو القرآن والإيمان الذي صدر منه، أي ما يصدر من القلب من إيمان ومن توحيد ومن إخلاص، كل هذا هو هذا النور المقصود، أو هذا المصباح المقصود.

ثم يقول: {الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ} أي هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية.

قال أبي بن كعب وغير واحد: "وهي نظير قلب المؤمن".

إذن الزجاج هنا {الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ} بعد أن شبهنا موضع الصدر بأنه هو المشكاة، ثم شبهنا المصباح هو ذلك الإيمان الذي ينقذ وذلك النور الذي يضيء من قلب المؤمن وهو التوحيد، {الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ} هو قلب المؤمن كما فسر أبي بن كعب.

{الزَّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ}.

✓ القراءات في {دُرِّي} :

اختلفت القراءة في {دري} :

✍ فقرأ بعضهم بضم الدال من غير همز {دُرِّيٌّ} كما في قرأتنا، من الدر، أي كأنها كوكب من درة .

✍ وفي القراءات الأخرى "دريء" و "دُرِيء" مع الهمز، يعني بكسر الدال أو بضمهما مع الهمز، وهو الدفع .

أي أن هذا الكوكب يدفع ، يسير، يقول: "وذلك أن النجم إذا رمي به يكون أشد استنارة من سائر الأحوال، والعرب تسمي ما لا يعرف من الكواكب دراري". فالكواكب التي في السماء فيها إضاءة، لكن حينما يندفع الكوكب ويسير وخاصة عندما يهوي فإنه تكون له إضاءة شديدة جداً تعرف من بين الكواكب، ويكون نورها قوي جداً، فشبهت هذه الإنارة بهذا الكوكب من بين سائر الكواكب، وهذا فيه ثناء على هذا النور الذي في قلب المؤمن.

وقال أبي ابن كعب : "كوكب مضيء". وفسره قتادة بأنه : "مضيء مبين ضخم".

ثم يبين الله عز وجل مزايا هذه الإضاءة ، وهذا كله مدح طبعاً لهذا الإيمان الذي في قلب المؤمن أو هذا النور الذي هو هدى الله عز وجل، كما في القولين السابقين .

يقول الله عز وجل: {يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ} أي من زيت الشجرة المعروفة بالزيتون، هذا الزيت الذي يؤخذ منها يوقد به ، فهو يوقد من زيت من أجود أنواع الزيوت .

يقول الله عز وجل: {زَيْتُونَةٍ} بدل ، أو عطف بيان .

{لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ} أي أنها ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار، ولا في غربيها فيتقلص عنها الفياء قبل الغروب ، بل هي في مكان وسط تفرعه الشمس من أول النهار إلى آخره ، فيجيء زيتها معتدلاً صافياً مشرقاً. هنا يرى المؤلف وهو ابن كثير أن معنى {لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ} أنها في مكان وسط تأتية الشمس من أول النهار إلى آخره، فهي ليست متطرفة لا من جهة شرق ولا من جهة غرب، وهذا يعطيها قوة وهذا أنفع للشجر .

بناء على الأقوال التي سردناها بعد تفسيره لهذا المعنى ذكر عدة أقوال :

✍ عن عكرمة وعن ابن عباس وعن أيضاً مجاهد يقول : "تلك بأرض فلاه ، إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها ، وإذا غربت عليها ، وذلك أصفى ما يكون من الزيت".

✍ القول الآخر يرى أن {زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ} أنها وسط الشجر، لا تصيبها الشمس شرقاً ولا غرباً ، وهذا قول آخر يرى أن هذه الزيتون مكنفة بين الشجر ومحمية من الآفات ، فهذا هو قول سعيد بن جبير .

✍ قول آخر يرى أنها {لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ} هي القبليَّة ، التي تكون في القبلة .

✍ وزيد بن اسلم يقول : {لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ} هي التي تكون في الشام .

✍ وما اختاره ابن كثير رحمه الله هو القول الأول، وهو أنها في مستوى من الأرض في مكان فسيح بارز ظاهر ضاح للشمس ، ولهذا قال : {يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ} يعني لضوء إشراق الزيت.

{نُورٌ عَلَى نُورٍ} يعني بذلك إيمان العبد وعمله.

يقول السدي رحمه الله : "نور النار، ونور الزيت، حين اجتماعاً أضواء، ولا يضيء واحد بغير صاحبه".

فلدينا نوران: الزيت هو أصلاً مضيء، فكيف إذا أشعل فيه النار ليضيء في المصباح ؟! هذا نور على نور.

يقول : "كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماعاً ، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه".

فالمؤمن إذا اجتمع فيه نوران نور الإيمان ونور القرآن وهو العلم وما فيه من الهدى وما فيه من الدلالات البينات الباهرات، فإنه نور على نور.

{يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ} أي يرشد الله إلى هدايته من يختاره.
{وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

✓ الهدايات :

- ١- أن الله نور يليق بجلاله عز وجل ليس كأنوار الخلق .
- ٢- ومن أعظم آثار أنوار الله ، هدايته ودلالاته الباهرة .
- ٣- أن مصدر الهداية من الله ، فعلى المؤمن أن يرجع إلى الله ويأخذ بالأسباب الموصلة إليها.

الحلقة (٢٢)

موضوع الحلقة : تفسير الآيات ٣٦، ٣٧، ٣٨ من سورة النور.

✚ الآيات :

قال تعالى : {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)}

✓ صلة الآيات بما قبلها :

هذه الآية كما تلاحظون شديدة الصلة بالآية السابقة، فإن الله قد ذكر في الآية السابقة {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} نوره عز وجل، و نور المؤمن، ثم ذكر في هذه الآيات محل هذا النور فقال: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ} أي أن مصدر هذا النور في هذه المواقع، وتلك القلوب تكون معلقة بهذه المساجد، ونور الله عز وجل يكون منبثقا ويكون مضيئا في هذه البيوت العظيمة {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ}.

وهذه البيوت [المساجد] هي أحب البقاع إلى الله تعالى في الأرض ، - كما ذكر المؤلف - ؛ لأنه يعبد الله تعالى فيها ويوحّد .

{أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ} ما هو المقصود بالرفع هنا ؟

المقصود بالرفع : هو تطهيرها من الدنس ومن اللغو ومن الأفعال والأقوال التي لا تليق فيها. فالمقصود إذا هو الرفع المعنوي. وهذا هو تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية، يقول: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ} قال: "نهى الله سبحانه عن اللغو فيها". ثم ذكر المؤلف عدداً من علماء التفسير الذين قالوا بهذا القول.

أيضاً ليس المقصود بالارتفاع ما قد يتبادر إلى ذهن بعض الناس هو ارتفاع البنيان فقط ، ولا شك أن ارتفاع البنيان وإقامة المساجد من الأمور المحمودة ، وسنلمح إليه إن شاء الله إذا اتسع الوقت لهذه المحاضرة من خلال الأحاديث الواردة في فضل بناء المساجد ، لكن المقصود الأول في هذه الآية هو تطهيرها من اللغو ومن الدنس ومن الأفعال والأقوال التي لا تليق فيها.

قال قتادة : "هي هذه المساجد أمر الله تعالى ببناؤها ورفعها ، وأمر بعمارتها وتطهيرها".

وقد ذكر لنا أن كعباً كان يقول : "إن في التوراة مكتوباً: ألا إن بيوتي في الأرض المساجد، وأن من توضع فأحسن وضوءه ثم زارني في بيتي أكرمت، وحق على المزور كرامة الزائر".

هذا كما تلاحظون يعتبر من الروايات الإسرائيلية، والمؤلف رحمه الله يذكر منها ما كان مقبولا، وما كان يستقيم به النص أو

يُستأنس به في بيان معنى النص القرآني، وهذا قال به الرسول صلى الله عليه وسلم (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) ، فالحديث عنهم في حدود المعقول، وفي حدود الشرع الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت في كتاب الله عز وجل، هذا مما يقبل؛ أما ما جاء متناقضا معه أو جاء بأسانيد واهية و مكذوبة و مختلقة فكل هذا لا يلتفت إليه، ولهذا نقى الإمام بن كثير تفسيره من تلك الأقوال ومن تلك المرويات الضعيفة في الإسرائيليات وخاصة التي تنال من مكانة الأنبياء أو تنقص من قدرهم .

قوله عز وجل: {وَيَذْكُرُ فِيهَا اسْمُهُ} أي اسم الله عز وجل، كقوله تعالى: {وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [وقوله: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨)}] قال ابن عباس: {وَيَذْكُرُ فِيهَا اسْمُهُ} يعني يتلى فيها كتابه . إذا تلاوة كتاب الله عز وجل هي من اسم الله عز وجل ؛ لأن القرآن هو كلام الله عز وجل، فاسم الله يذكر بالدعاء ، بالتسبيح ، بالتكبير ، بالتهليل ، بتلاوة القرآن ، بالعلم ، فكل هذا من إحياء ذكر اسم الله عز وجل في بيوت الله عز وجل، يعني أن هذه البيوت لا يصح فيها إلا ما كان من هذا القبيل ، وأنها ترفع بهذا الشأن ، وينبغي أن تنقى و تطهر مما لا يليق بها .

وقوله عز وجل: {يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} أورد المؤلف هنا عدة أقوال استهلها بقوله : "الغدو أي البُكُورَات والعشيات، والآصال جمع أصيل وهو آخر النهار". إذا الغدو هو البُكُورَات، بمعنى ما يكون في الصباح ، والآصال هو ما يكون قبل العصر آخر النهار .

ينقل عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: "يعني بالغدو صلاة الغداة -صلاة الفجر- ، ويعني بالآصال صلاة العصر، وهما أول ما افترض الله من الصلاة فأحب أن يذكرهما وأن يذكر بهما عباده". وهذا طبعاً يعود للقول الأول بمعنى أن من يقول أنها هي البكرات والعشيات هو شبيه بقول من قال أن الغدو هي صلاة الفجر والآصال هي صلاة العصر؛ لأن الآصال تبدأ من صلاة العصر والغدو يبدأ من صلاة الفجر .

وكذا قول الحسن والضحاك: " {يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} يعني الصلاة". مطلق الصلاة، وهذا قول ثالث.

والحقيقة كلها أقوال متقاربة وكلها أقوال محتملة، لأن التسبيح يكون لله عز وجل في جميع هذه الصلوات، لكنه يكون في هذين الوقتين أي في الغدو والآصال أكثر، ولهذا يستحب كثرة الذكر، والأوراد المشهورة والمعروفة التي تكون في أول النهار وفي أول المساء، تكون في هذين الوقتين، تكون في الغدو وتكون في الآصال، وبقية الصلوات أيضاً يذكر فيها اسم الله عز وجل لكن يدخل دخولاً أساسياً صلاة الفجر وصلاة العصر .

قال : ومن قرأ "يُسَبِّحُ" بفتح الباء، وهذه قراءة شعبة وابن عامر وهي قراءة متواترة ، على أنه مبني لما لم يسم فاعله. لما وقف على قوله {وَالْآصَالِ} ، يرى المؤلف أن من يقرأ "يُسَبِّحُ" {فِي بُيُوتٍ أذنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} يسبح {لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} يرى أن المعنى تم هنا.

ثم يبتدئ {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ} فإن قيل: من يسبح له فيها؟؟ قيل : رجال !!

فإذا على قراءة "يُسَبِّحُ" يستحسن الوقف على الآصال، فيكون رجال متصل بالآية السابقة، لكن نحن نقف على رأس الآية وإن كان المعنى متصلاً؛ لأن السنة الوقوف على رؤوس الآيات، ولذلك يمكن التفريق بينهما بطول حصة الوقف أو قصرها. حصة الوقف في عند قراءة "يُسَبِّحُ" أطول من حصة الوقف في قراءة {يُسَبِّحُ}.

لكن أهم شيء أن نعلم أنه على قراءة "يُسَبِّحُ" أن الكلام ينتهي هنا ويبدأ كلام جديد رجال، فحينئذ يكون الوقف، وأما على قراءتنا {يُسَبِّحُ} فيكون الوصل، لكننا وقفنا لأجل رأس الآية.

هنا التعبير بكلمة "رجال" فيه إشعار بالهمم السامية التي يتمتع بها الرجال، وأن وصف الرجال يصدق على أولئك الذين

يذكرون اسم الله عز وجل ويتفرغون للعبادة، لهذا قال المؤلف: "فيه إشعار لهمهم السامية ونياتهم وعزائمهم العالية التي بها صاروا عمارة للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه، فأما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن لما رواه أبو داود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها)". هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال بشرط أن لا تؤذي أحداً من الرجال بظهور زينة أو ريح طيب، كما ثبت في الصحيحين عن بن عمر أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله) رواه البخاري ومسلم، ولأحمد وأبي داود - (وبيوتهن خير لهن).

إذاً التعبير بكلمة "رجال" يدل على إن الذين يكونون في المساجد هم من قبيل الرجال لا من النساء، والنساء صلاتهن في بيوتهن أفضل من صلاتهن في المساجد.

قوله تعالى: {رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ} كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ} وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ} أي لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملأد بيعها وربحها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بين أيديهم؛ لأن ما عندهم ينفذ وما عند الله باق ولهذا قال: {لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ} أي يقدمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم.

■ **فمن نزل قوله تعالى: {رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ}؟**

روى عمر بن دينار يروي حديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المساجد، فقال بن عمر فيهم نزلت {رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ}.

ما هو المقصود بإقام الصلاة؟؟

يذكر المؤلف عدة أقوال في معنى إقام الصلاة:

عن سعيد بن الحسن الضحاك قال: "لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها". إذاً إقام الصلاة: المقصود أدائها في وقتها وإقامتها في وقتها.

ويقول علي بن أبي طلحة: {لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ} يقول: "عن الصلاة المكتوبة". إذا المقصود بالصلاة هنا الصلاة المكتوبة.

ويري السدي أن المقصود بإقام الصلاة: "الصلاة في جماعة".

ويجمع مقاتل بن حيان هذه الأقوال في عبارة محكمة يقول: "لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة، وأن يقيموها كما أمرهم الله، وأن يحافظوا على مواقيتها وما ستحفظهم الله فيها".

إذاً جمع قول مقاتل بن حيان عدة معاني، فالمقصود بإقام الصلاة إذاً حضورها، إقامتها، المحافظة عليها. وهذا شمل الأقوال السابقة كلها، أما الأقوال السابقة فإنها اختارت واحداً من هذه الأقوال، كل واحد اختار نوع منها، وهذا الذي يعبر عنه علماء التفسير باختلاف التنوع وهو لا تضاد فيه عند أهل السلف.

يقول الله عز وجل: {يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} أي يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار من شدة الفزع وعظمة الأهوال، كما قال تعالى: {وَأَنذَرُهم يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ}، تلاحظون أن المفسر يهتم بتفسير القرآن بالقرآن، وقال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}. وقال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا.

(٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وقال هاهنا: {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا} أي هؤلاء من الذين يتقبل الله منهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم.

يكثر المؤلف رحمه الله من بيان الآيات بعضها ببعض، وهذا ما يعرف عند أهل التفسير بتفسير القرآن بالقرآن، ونجد ذلك في المثال التالي أيضًا،

يقول: {وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} أي يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم، كما قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠)} وقال تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} وقال: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} وقال: {وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ}، كما قال هاهنا: {وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}.

هكذا نجد ابن كثير يهتم بتفسير القرآن بالقرآن، وهذا لا يكاد يتوفر عند كثير من المفسرين، وهو من الخصائص التي امتاز بها هذا الإمام.

هنا يورد أيضًا المفسر رحمه الله بعد الآيات الأحاديث، فيذكر مثلاً: ما رواه الطبراني عن بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} قال: ({أُجُورُهُمْ} يدخلهم الجنة، {وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة، لمن صنع لهم المعروف في الدنيا).

فهذه طريقة الإمام بن كثير في التفسير، وقد وعدنا في أول المحاضرة أن نذكر جملة من الأحاديث التي تدل على فضل المساجد وبنائها وعمارته وأحكامها، والمؤلف قد كفانا هذه المؤونة وذكر بعض الأحاديث.

◀ بعض الأحاديث التي تدل على فضل عمارة المساجد :

عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة) أخرجه في الصحيحين.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عمر بن الخطاب: (من بنى مسجداً يذكر فيه اسم الله بنى الله له بيتاً في الجنة). وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد في الدور وأن تنظف وتطيب). وعن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد). وروى من حديث مسلم أن رجلاً أنشد في المسجد فقال: من دعا إلى الجمل الأحمر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا وجدت، إنما بنيت المساجد لما بنيت) يعني لإحياء ذكر الله عز وجل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد فقولوا لا رد الله عليك). وهذا يدل على أن ما يفعله المتسولون في المساجد ممن يطلبون المال من خلال بيوت الله عز وجل أنهم خالفوا هذه الأحاديث وأتوا بما يتناقض معها، فللمساجد حرمتها وكرامتها التي تليق بها بإحياء ذكر الله عز وجل، وما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من العلم ومن الدعوة ومن الخير والإصلاح.

✓ الهديات :

١- أن الخوف من الله يورث الأعمال الصالحة، فقال الله عز وجل: {يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ}، إذا عملهم هذا كان خوفاً من الله عز وجل وخشية لله.

٢- فضل الله على المؤمنين الذين لا تلهيهم تجارة أو نحوها عن ذكر الله وما يتصل به.

الحلقة (٢٣)

موضوع الحلقة : تفسير الآيات ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ من سورة النور.

بعد أن ضرب الله عز وجل الأمثال للمؤمنين ، بيّن أحوال الكافرين في أمثلة أخرى تقرب صورتهم لتنفّر من أحوالهم ومن أخلاقهم ، ومن البعد عن طريقهم ومناهجهم ومسالكهم ، فاستمعوا إلى هذين المثليين ، وما أعقبهما الله عز وجل من خضوع المخلوقات - سائر المخلوقات - سوى العالمين من الجن والإنس لله عز وجل تعظيماً وإجلالاً .

الآيات :

قال تعالى : {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢)}.

في الآيتين الأوليين نجد أن الله تعالى ضرب مثليين لنوعين من الكفار، في المثليين المائيين {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ} {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ}.

يقول المؤلف رحمه الله : الأول من هذين المثليين فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم ، الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال و الاعتقادات ، وليسوا في نفس الأمر على شيء ، فمثلهم في ذلك كالسرّاب الذي يرى في القيعان من الأرض عن بعد كأنه بحر طام ، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء حسبه ماءً فقصده ليشرب منه ، فلما انتهى إليه لم يجده شيئاً ، فكذلك الكافر يحسب أنه عمل عملاً وأنه قد حصل شيئاً ، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها وتوقش على أفعاله ، لم يجد له شيئاً بالكلية قد قبل ، إما لعدم الإخلاص أو لعدم سلوك الشرع.

إذا هما شرطان لقبول العلم الصالح :

الشرط الأول : الإخلاص .

والشرط الثاني : موافقة الشرع .

كما قال تعالى : {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (٢٣)} وفي الصحيحين أنه يقال يوم القيامة لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد عزير ابن الله ! فيقول : كذبتُم ما اتخذ الله من ولد ، ماذا تبغون ؟ فيقولون أي ربنا عطشنا فاسقنا، فيقال ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سرّاب يحطم بعضها بعضاً فينطلقون ويتهافتون فيها.

المفردات الغريبة :

■ السراب : ما رأيته من الشمس كالماء نصف النهار ، هذا نجده خاصة عند شدة الحر يظهر لنا [ما تراه من الشمس كالماء حينما تكون الشمس في نصف النهار، يراها الرائي من بعيد، يرى الأرض التي على امتداد نظره كأنها قد غمرت بالماء] فهذا هو السراب .

■ {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ} فالقِيعَةُ القاع .

يقول المؤلف رحمه الله : وأهل النظر من أصحاب اللغة يذكرون أن القِيعَة جمع القاع ، قالوا: والقاع واحد مذكر ، والثلاثة أقواع ، والكثيرة منها قيعان وقِيعَة ، وهي كما قال ابن كثير الأرض المنبسطة ، {كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ} في أرض منبسطة .

لا يكون ضوء الشمس الساقط على هذه الأرض كالسراب إلا إذا كان في منطقة منبسطة في قيعان الأراضي .

■ نتقل إلى بيان المثل الثاني .

المثل الثاني لذوي الجهل المركب : وهم المقلدون للفئة الأولى ، الفئة الأولى هم صناديد الكفر والعتاة والمتعصبون للكفر والدعاة إليه ، فهؤلاء مثلهم { كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً } .

وأما أمثال أتباعهم فهم { كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ } .

يقول المؤلف رحمه الله : وأما أصحاب الجهل البسيط وهم الطماطم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر ، الصم ، البكم ، الذين لا يعقلون ، فمثلهم كما قال تعالى : { أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ } . قال قتادة : هو العميق ، إذا البحر اللجي هو العميق . طبعاً العميق عمقاً من جهة العمق .

{ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدِ يَرَاهَا } يقول ابن كثير : لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام ، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يدري أين يذهب ! ولا يعرف حال من يقوده ، بل كما يقال في المثل الجاهلي أين تذهب ؟ قال معهم ، قال إلى أين تذهبون ؟ قال لا أدري !! وهنا لاحظ الفرق بين المثليين .

مثل المؤمن ، قلب المؤمن في { مُصْبَاحُ الْمِصْبَاحِ فِي زُجَاجَةِ الزُّجَاجَةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ } قلب متوقد ، قلب حي .

بينما هذا قلب مظلم في { ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ } .

أما قلب المؤمن فهو في أنوار ، { نُورٌ عَلَى نُورٍ } وهذا يقرب لك الفرق بين الفريقين وبين القلبين ، مما يحفزك على أن تكون من أصحاب الفئة الأولى ، وأن تنفر من أصحاب القلوب الميتة المظلمة .

يقول العوفي ، عن ابن عباس : { يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ } يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر .

انظروا إلى هذا القلب كيف أظلم بعضه فوق بعض ، وانظروا إلى قلب المؤمن الذي في صدره ، كيف أثار بنور التوحيد ونور القرآن ! كتلك الزجاجاة التي كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة .

يقول المؤلف رحمه الله : وهي كقوله تعالى : { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } (٧) [سورة البقرة] . { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ } .

وقال أبي بن كعب في قوله تعالى : { ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ } هو يتقلب في خمسة من الظلم : كلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار . فإذا هذا هو حال الكافر { ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ } .

يقول رحمه الله : { وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ } أي من لم يهده الله فهو هالك ، جاهل حائر ، بائر ، كافر . كل هذه المواصفات تنطبق على من لم يجعل الله له نور ، فالكافر ليس هو بآء في كفره فقط ، لكنه بآء أيضاً بخسارات كثيرة وبخسران كبير ، حيث هلك ، وجهل ، وتحير ، وبار ، فليس المقصود أن الكافر حينما يكفر أنه ينتهي به الأمر إلى أن يكفر فحسب ؛ بل هو يدخل في نفق مظلم ، ظلمات بعضها فوق بعض .

❖ نتقل إلى الآية الحادية والأربعون :

بعد أن بينت أحوال الكافرين ، بينت ما عليه سائر الخلق ، فقال تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجَعُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ } وهذا فيه إلهاب لحماس المؤمنين ، أن يكونوا على هذه الشاكلة في خشوعهم وخضوعهم لله عز وجل ، فهذه

السموات والأرض وما فيها وتلك الطيور والبهائم السابحة في السماء والتي تهيم على الأرض ، كلها خاشعة لله عز وجل ، وهذا يدعوا إلى الخشوع لله وإلى عبادته وإلى توحيده وإلى الاهتداء بهدية والاستضاءة بنوره عز وجل .

يقول المفسر رحمه الله : يخبر تعالى أنه يسبحه كل من في السموات والأرض ، أي من الملائكة والأناسي والجان والحيوان ، حتى الجوامد ، {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)} .

{وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ} يفسرها ابن قتيبة رحمه الله قال : "قد صفت أجنحتها في الطيران".

أي في حال طيرانها تسبح ربها وتعبد بتسبيح ألهما وأرشداه إليه ، وهو يعلم ما هي فاعلة ولهذا قال : {كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ} أي كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عز وجل .

ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، ولهذا قال : {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)} .

إذاً الأول هو علم تلك الطير وتلك الجمادات وتلك المخلوقات العظيمة ، كلها قد علمت صلاتها وتسبيحها ، وقد عرفت كيف تصلي وكيف تسبح لله عز وجل .

ثم أخبر الله عز وجل أنه يعلم هذا التسبيح فقال : {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} .

ثم أخبر تعالى أنه له ملك السموات والأرض ، فهو الحاكم المتصرف الذي لا معقب لحكمه ، وهو الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له {وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ} أي يوم القيامة ، فيحكم فيه بما يشاء {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١)} فهو الخالق المالك الذي له الحكم في الدنيا والآخرة وله الحمد في الأولى والآخرة.

هذه الآية تجيء بعد ذكر أصناف الخلق ، أي بعد أن ذكر الله عز وجل أحوال القلوب ، قلوب المؤمنين وقلوب الكافرين وأثرها على أولئك ؛ فقلوب المؤمنين تؤثر على صاحبها بأن تجعله خائفاً ، راجياً ، محبباً لله عز وجل {يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧)} فيحفزها على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإحياء ذكر الله عز وجل ، بينما أهل الكفر هم يهيمون في ظلمات بعضها فوق بعض .

ثم ذكر الله عز وجل ما في سائر تلك المخلوقات وعبادتها لله عز وجل .

بعد هذا ذيل هذا كله بأنهم كلهم في ملكوت الله عز وجل ، المؤمن والعاصي ، والكافر والمسلم ، والجماد والحي ، كل هؤلاء في ملكوت الله عز وجل ، وكلهم صائرون إلى الله عز وجل ، وسيجزى كل فاعل بما عمل ، وكل قائل بما قال ، وكل من عمل خيراً فله الخير ، ومن أساء فله ما يقابله أيضاً من الإساءة .

✓ الهدايات :

١- نجد في هذه الآيات أن الله عز وجل يستعمل ضرب الأمثلة فنجد أن الأمثال تتوالى ، مثل المؤمن ، ومثل الكافر ، ومثل آخر للكافر ، وهذا يربي في أنفسنا وفي قلوب المربين أن يستخدموا هذه الأمثلة ؛ لأنها تقرب البعيد ، وتصور الأمر المعنوي في شيء محسوس .

فنحن مثلاً : لا نرى القلب ولا نرى ما في القلب من الإيمان وما فيه من الهدى وما فيه من الخير ، وكذلك لا نرى الظلمات التي في قلب الكافر وما يكتنفها من الشكوك والتفائق والشرك ، فيُقرّب الله لنا هاتين الصورتين في صورتين محسوستين لدينا ومعروفة لدينا ، وهي صورة ذلك المصباح الذي {يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مَبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ} الآية . وفي ذلك الذي يسعى وراء سراب ، كلنا يعرف هذا السراب ، كلنا يجده وكلنا يراه ، وهكذا الكافر ، وكذلك هذا البحر اللجي المتلاطم ، كلنا يجده ، وكلنا يعرف الظلمات التي تكون فيه ، فهذا يُقرب لنا ظلمة الكفر ، وظلمة ما يتردى فيه الكافر من هذه الظلمات {ظُلُمَاتٌ

بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أُخْرِجَ يَدُهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا}.

ولهذا ينبغي على المربين أن يستفيدوا من ضرب الأمثلة في تعليمهم وفي توجيههم ، وأن يستفيد منها الوعاظ ، وأن يستفيد منها أهل التوجيه والإرشاد ، كل هذا يساعد على تقريب تلك الصور ، إما أن يُرْعَب فيها كما هو في حال المؤمن ، وإما أن يُنْفَر منها كما هو حال الكافر وما شابههما .

٢- هنا لابد من الحديث عن تسبيح هذه الكائنات ، لقوله تعالى : **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}**.

فهل الكائنات فعلاً تسبح أم أن هذا أمر مجازي كما يقوله بعض علماء التفسير؟؟

المؤلف هنا ذكر لنا أنه تسبيح حقيقي ، لكننا لا نفقه هذا التسبيح وهذا هو قول الجمهور ، وقول السلف وقول أهل التحقيق : أن هذه الكائنات وهذه الجمادات وهذه الأشجار وهذه الحيوانات ، تسبح لله عز وجل تسبيح يعلمه الله عز وجل ، لكننا لا نفقهه ، فنحن نثبت هذا التسبيح بل نثبت حتى ركوعها وسجودها لله عز وجل كما في قوله : **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ}** فهذه الأشجار حتى وإن لم نرها ساجدة على هيئتنا فإن لها سجود يناسبها يعلمه الله عز وجل ، تقوم به بين يدي الله عز وجل ، كما الشمس تسجد أيضاً عند غروبها لله عز وجل حتى يأذن لها فتنبعث .

فنحن نؤمن بهذه الأشياء ونقر بها ، نقر بهذا التسبيح بناء على ما جاء في كتاب الله عز وجل وما جاء في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كنا لا نعرف حقيقته أولاً نعرف كلفيته .

٣- هذه الآيات تدل على سعة ملك الله عز وجل ، وأن الله هو المتصرف في هذا الكون وأنه ليس لكافر وليس لأحد أن يخرج عن هذا الملكوت العظيم ، فالله عز وجل الذي خلق هذا الخلق وأقام هذا الملك العظيم ، أقامه لأجل عبادته عز وجل ، فمن أبي وخرج عن هذا الأمر ، فإنه يكون قد خرج عن طاعة ماله .

٤- نستفيد من هذه الآيات أن المرجع والمصير لله عز وجل ، لله وحده ، وهذا يورث في قلب المؤمن وفي قلب المتيقظ والحي ، أن يعمل لهذا المرجع ، وأن يعمل لهذا المصير ؛ لأجل أن يلقاه وهو على أحسن حال وأن ينتهي به إلى أفضل مصير .

الحلقة (٢٤)

موضوع الحلقة : تفسير الآيات ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ من سورة النور .

هذه الآيات تتحدث عن ملكوت الله عز وجل ، وإن الله قد ذكر في الآية السابقة ملكه . ثم تحدث عن جملة مما يعمر هذا الكون ، وهذا الملك العريض من مخلوقاته ، وما فيه من القدرة والتدبير من الله عز وجل وأنه لم يخلق هذا الخلق هماً ؛ بل يدبره ويصرفه حسب مشيئته وحكمته .

الآيات :

قال تعالى : **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦)}**.

تلاحظون هذه الآيات تتكلم عن قدرة الله الباهرة الدالة على وحدانيته ، فالرؤية في **{أَلَمْ تَرَ}** هي تشمل : الرؤية العلمية ، والرؤية البصرية أيضاً ؛ لأننا نرى هذا السحاب كيف يتجمع ، وكيف يتراكم بعضه فوقه بعض ، ولا شك أن المقصود الأولي

أيضاً هي الرؤية الإيمانية ، الرؤية المُعْتَبَرَة ، الرؤية العلمية التي تنفع صاحبها وتعود عليه بالنفع ، وهي رؤية القلب ؛ لأن الله تعالى قد ذم أولئك الذين يَمُرُّون على آيات الله وهم عنها معرضون ، أي معرضون عنها بقلوبهم وإن كانوا يرونها ، كما قال الله تعالى : **{وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)}** فالكل يرى هذا السحاب وينظر إليه كيف يتراكم بعضه على بعض ، ولكن الذي ينتفع منه هو من يراه بقلبه ، بنور قلبه ، وينور إيمانه.

قال الله تعالى : **{أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا}** يقول الإمام ابن كثير رحمه الله : " يذكر تعالى أنه بقدرته يسوق السحاب أول ما يُنشِئُها وهي ضعيفة وهو الإزجاء . وهذا ما فسره الإمام ابن قتيبة فقال : يزجي سحاباً أي يسوقه ، فالإزجاء هو السوق . قال : **{ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ}** أي يجمعه بعد تفرقه ، فبقدرته الله عز وجل يسوق هذا السحاب المتفرق ، يزجيه أي يسوقه ويضمه بعضه إلى بعض ، ثم يؤلف بينه أي يجمعه بعد تفرق ، فينتج عن هذا الإزجاء وهو السوق أن يجتمع هذا السحاب العظيم وهذا المخلوق العظيم بعضه إلى بعض ، ليتراكب بعضه فوق بعض ، وهذا ما عناه الله في قوله : **{ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا}** أي متراكماً ، أي يركب بعضه بعضاً.

يقول رحمه الله : **{فَتَرَى الْوَدْقَ}** أي المطر ، إذا الودق اسم من أسماء المطر .

{يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ} أي من خلله . وهكذا قرأها ابن عباس والضحاك .

أي من خلل السحاب ، أي من ثناياه ، فهذا السحاب يكون من خلاله تنزل هذه المياه العذبة وهذه المياه الطاهرة النقية ، يقول رحمه الله : وقوله **{وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ}** قال بعض النحاة : "من" الأولى **{وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ}** لا ابتداء الغاية ، والثانية للتبعيض ، والثالثة لبيان الجنس .

نلاحظ في هذه الآية أن "مِنْ" ذكرت ثلاث مرات ، وهو يبين لنا معانيها .

هي طبعا حرف جر في كل واحد ، لكن ماذا تعني ؟؟ لأن الحروف عموماً كل حرف له معاني وله دلالات ، وقد يأتي بعض الحروف على أكثر من معنى ، كما هنا فقوله **{مِنْ السَّمَاءِ}** لها معنى ، و **{مِنْ جِبَالٍ}** لها معنى ، و **{مِنْ بَرَدٍ}** لها معنى ، فما معنى كل واحدة ؟

يقول : الأولى : لا ابتداء الغاية ، أي ابتدائية ، وهذا واضح ، أي مبدأ النزول من السماء .

والثانية : للتبعيض **{مِنْ جِبَالٍ}** يعني من بعض الجبال التي في السماء .

والثالثة : لبيان الجنس **{مِنْ بَرَدٍ}** يعني ينزل ابتداء من السماء من بعض الجبال نوع وهو البرد وهو بيان الجنس وهو الذي عبرت لكم عنه بالنوع .

يقول رحمه الله : " وهذا إنما يجيء على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله **{مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ}** معناه أن في السماء جبال برد ينزل الله منها البرد . كأن السماء فيها جبال برد ، كما الجبال الترايبية التي عندنا أو الجبال الصخرية التي نراها ، فالسمااء فيها جبال من نوع آخر هي جبال البرد ، وهذا تقدير العزيز الحكيم ، وخلق عظيم من مخلوقات الله عز وجل تدلنا عليه هذه الآية .

يقول : أن **{مِنْ جِبَالٍ}** هنا تأتي "تبعيضية" على أساس أن السماء فيها جبال من برد ويسقط علينا من هذا البرد ما شاء الله أن يسقطه .

قال : " وأما من جعل الجبال هنا عبارة عن السحاب ، فإن (مِنْ) الثانية عند هذا لا ابتداء الغاية ، لكنها بدل من الأولى والله أعلم .

بمعنى / إن قلنا إن المقصود بالبرد هي تلك السحب المتراكب بعضها على بعض ، والتي سيقط وأزجي بعضها إلى بعض ، أن هذه

السحب هي صارت جبال ، فحينئذٍ {مِنْ جِبَالٍ} تكون أيضاً ابتدائية مثل الأولى ، يعني وينزل ابتداءً من السماء {مِنْ جِبَالٍ} أي ابتداءً من تلك الجبال ، يعني ينشئ من تلك الجبال .

إذاً في {مِنْ جِبَالٍ} قولان :

⇐ **القول الأول :** أنها تبعيضية .

⇐ **والقول الثاني :** أنها ابتدائية .

وهذا الخلاف متفرع إلى قسمين : إما أن يكون المقصود بالجبال جبال أخرى غير تلك السحب التي تراكب بعضها فوق بعض ، وإما أن تكون هي تلك السحب التي تراكب بعضها على بعض .

يقول الله عز وجل : {فَيَصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ} .

هل هو على وجه النعمة أم على وجه العقوبة ؟؟

يقول رحمه الله : " يُحتمل أن يكون المراد بقول : {فَيَصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ} أي بما ينزل من السماء من نوعي البرد والمطر ، فيكون قوله {فَيَصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ} رحمة لهم ، {وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ} أي يؤخر عنهم الغيث . فإذا هنا الإصابة تكون على وجه الرحمة ، والصرف على وجه العقوبة .

قال : " ويُحتمل أن يكون المراد بقوله {فَيَصِيبُ بِهِ} أي بالبرد نقمة على من يشاء ؛ لما فيه من نثر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم ، ويصرفه عن من يشاء رحمة بهم " .

وهذا يختلف على حسب اختلاف نوع المطر ، فإذا كان المطر وابل صيب طيب ، جاء في وقته وفي حينه وأصاب الناس بقدر حاجتهم ، فهذا ينصرف إلى الاحتمال الأول ؛ وإن كان المطر غزيراً وخطيراً ويؤدي إلى الكوارث ، فإن هذا ينصرف إلى القول الثاني . فتكون إصابته للقوم عقوبة ، وصرفه عن القوم رحمة .

وهذا يدل على إعجاز القرآن العظيم ، وعلى احتماله لأكثر من معنى وتحمله للمعاني العديدة ، وهذا يكثر في أكثر الآيات القرآنية ، ولهذا يقول بن عباس رضي الله عنهما : " إن القرآن حَمَلٌ ذو وجوه ، فاحملوه على أحسنها " .

يقول الله عز وجل : {يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ} أي يكاد ضوء برقه . المفسر رحمه الله يفسر السنا بالضوء ، يقول : " يكاد ضوء برقه " . طبعاً السنا نوع من أنواع الضوء ، لكنه شدة الضوء ، وهو الضوء السريع القوي الذي يأتي بسرعة ؛ لأن الضوء أنواع ، فالسنا واحد من أنواعه .

يقول : " يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته " . يعني هذا البرق والرعد وما يصدر عنها من أصوات وما يصدر عنها من أضواء هي تكون بهذه السرعة وبهذه القوة وبهذه المثابة التي أشار إليها المفسر رحمه الله .

❖ **ثم يتبع الله عز وجل هذه الآية بآية أخرى وهي آية الليل وآية النهار .**

فقال الله عز وجل : {يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} أي يتصرف فيهما ، فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلاً ، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول الذي كان قصيراً ويقصر الذي كان طويلاً ، والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه .

وهذا المفسر ما ذكر الآيات المشابهة لها ، لكننا نذكر منها {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} و {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}

ذكر المؤلف آية أخرى شبيهة بهذا المعنى فقال : {نَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} أي لدليلاً على عظمته ، كما قال تعالى : {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)} وهذا يشير إلى أن المؤلف لا يكاد يترك آية لها مناسبة أو نظير آخر في موضع آخر إلا ويأتي به ، لكنه قد لا يستقصي ، قد يذكر بعضها ويترك البعض الآخر ، فقله {إِنَّ فِي خَلْقِ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَأُولَى الْأَلْبَابِ (١٩٠) { هنالك أيضاً آية أخرى في مثل قوله تعالى : { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ.. إِلَى قَوْلِهِ .. لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } ، وأيضاً في سورة المؤمنون { وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ... } وأيضاً في آيات أخر أتت شبيهة بهذا المعنى ، لكن المؤلف قد يجتزئ بعضها على وجه الاختصار .

تقليب الله الليل والنهار في هذا الملك العظيم من دلالات وحدانيته ، ومن دلالات عظمته الباهرة عز وجل التي تستوجب من المؤمن أن يكون يقظ عند تقلبات الليل وعند تقلبات النهار ، وعند دخول الليل وخروجه ، وكذلك النهار . وهذا هو حال المؤمن حينما نجده عند قوله تعالى : { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } وقال : { يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } فالمؤمن يقظ الضمير، قلبه دائم متوهج بالإيمان ، فعند تغير أحوال الليل والنهار وعند تصرفهما وتجددهما ؛ فإنه يكون خاشع لله عز وجل وذاكر لله عز وجل ؛ لأنه يطرأ عليه ما يطرأ على هذه المخلوقات ، وهي كلها من دلالات عظمة الله عز وجل وقدرته الباهرة .

❖ ثم يقول الله عز وجل : { وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ }.

هذه آية أخرى أيضاً من مخلوقات الله عز وجل الدالة على عظمته .

فيقول المؤلف رحمه الله : " يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد " .

{ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ } ثم بعد ذلك مع أن المصدر واحد والأصل واحد ، لكنهم يختلفون في أشكالهم وألوانهم وحركاتهم و سكناتهم ، وهذا شبيه بقوله تعالى في سورة الرعد : { يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْوُكُلِ } وهذه الآية لم يذكرها المفسر كما في هذه النسخة التي بين أيدينا .

مثال ما { يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ } الحية وما شاكلها ، وما { يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ } الإنسان والطير ، ومن { يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ } الأنعام وسائر الحيوانات ، ولهذا قال الله تعالى : { يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ } أي بقدرته ، لأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا قال : { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .

❖ الآية السادسة والأربعون :

{ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ } يقول الإمام رحمه الله : " يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والأمثال البينة المحكمة كثيراً جداً ، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولى الأبواب والبصائر والنهي ، ولهذا قال : { وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } .

✓ الهدايات :

١- مظاهر القدرة الإلهية في نزول المطر والبرد ، ووجوه الرغبة والرغبة في نزول الغيث عذاباً ورحمة ، وقدرته الباهرة في الخلق والتدبير ، وأن هذا الكون وهذا الكتاب وهو القرآن العظيم في الحقيقة هما كتابان مفتوحان لأولي الأبصار ، الآيات القرآنية والكون ، هذا المخلوق وما فيه من الخلق المتنوع والمتعدد هما كتابان لأولي الأبصار الحية ، الذين ينتفعون من أبصارهم وعقولهم .

٢- أن الهداية من الله عز وجل ، فمهما ظهرت آياته وبانت ، فإن من يضل الله فلا هادي له ، لذلك فهذا مما يدعو إلى اللجوء إلى الله وسؤاله الهداية والثبات عليها وهذا ما ختمت به هذه الآيات ؛ لأنه بعد أن ذكر الله هذا الخلق العظيم وهذه المخلوقات العظيمة ذيلها بقوله : { وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } أي أن الأصل أن هذه الآيات تهدي إلى الله عز وجل ، لكن

من كتب الله تعالى له الهداية ومن أخذ بأسبابها ، نسأل الله تعالى أن يهدينا إلى الصراط المستقيم .

الحلقة (٢٥)

موضوع الحلقة : تفسير الآيات ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢ من سورة النور

هذه الآيات تتحدث عن المنافقين، وكما نعلم أن هذه السورة تحدثت عن قصة الإفك، والذي تولى كبرها رأس النفاق، ولهذا عطف الله تعالى الحديث مرة أخرى على المنافقين بعد أن تحدث عن الكافرين وتحدث عن جملة من مخلوقات الله التي كانت تستجيب لله عز وجل وتدعن له، فتحدث عن هذا الصنف الذي لم يستجب لله عز وجل، وتحدثت عن جوانب عن المنافقين من هذه الآيات إلى آخر السورة تبين طريقة تعاملهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ يُبطنون الكفر ويظهرون الإيمان تقية وخوفاً من الرسول صلى الله عليه وسلم وتحقيقاً لآربهم، ومما وصفوا واتصفوا به ما يتعلق بآداب الاستئذان، فلهم في ذلك طرق ملتوية أشار الله تعالى إليها في هذه الآيات وفي آيات أخرى سيأتي الحديث عنها في آخر السورة بعون الله تعالى .

الآيات :

قال تعالى : {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)}.

⇐ هكذا ينبغي أن تُقرأ {وَيَتَّقِهِ} بسكون القاف في قراءة حفص.

⇐ وهناك قراءات أخرى {وَيَتَّقِهِ} بكسر القاف.

لكن قراءة حفص عن عاصم بإسكان القاف وقلقلتها، مع كسر الهاء كسرة خفيفة دون مبالغة فيها. جميع هذه الآيات تتحدث عن المنافقين، وفي مقابل ذلك تتحدث عن حال المؤمنين أيضاً وموقف المؤمنين من طاعة الله وطاعة رسوله .

يقول المفسر رحمه الله : يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولاً بالسنتهم {آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} أي : يخالفون أقوالهم بأعمالهم فيقولون ما لا يفعلون، ولهذا قال تعالى : {وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} .

☑ فهنا نجد أن الإمام المفسر يذكر حالتين من خلال هذه الآية :

الحالة الأولى : حالة الإيمان وهذه ظاهرة في قولهم، يقولون : {آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ} .

والحالة الأخرى : هي حالة الكفر، وهي : {ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} أي أنهم يخالفون ما قالوا، فلا يستجيبون لله ولا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فوصفهم الله عز وجل بقوله : {وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ}، ووصفهم أيضاً في موضع آخر بالكفر، فقال : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [الآية (١١) سورة الحشر] فجعل الكافرين إخواناً لهم، وهذا فيه بيان وتنفير من حال هؤلاء المنافقين وأن لا يُغتر بأقوالهم، فإنه مهما كانت أقوالهم حسنة في ظاهرها لكنها في باطنها هي أعمال كفر وأعمال خداع.

وقوله : {وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ} أي إذا طلبوا في اتباع الهدى فيما أنزل الله على

رسوله أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه، وهذه كقوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١)}

وفي الطبراني من حديث روح بن عطاء بن أبي ميمونة عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعاً: (من دُعي إلى سلطان فلم يُجب فهو ظالم لا حق له).

تلاحظون هنا الإمام ابن كثير كيف دقته في التفسير، عبارة واضحة يستند فيها إلى أقوال الله عز وجل في الآيات المشابهة وإلى أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، ولهذا نحن دائماً نثق في هذا الكتاب ونطمئن إلى ما فيه، وننصح بقراءة هذا الكتاب والانتفاع منه، وتقديمه على غيره من كتب التفسير؛ لأنه اشتمل على تفاسير الصحابة والتابعين وعلى أنقى التفاسير وأحسنها. هذا الحديث: (من دُعي إلى سلطان فلم يُجب فهو ظالم لا حق له) السلطان يدخل فيه من ولّاه السلطان، مثل: القاضي، ومثل ولي الأمر، والوالي، والأمير، كل هؤلاء يعتبرون من هذا القبيل.

يقول الله عز وجل: {وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ} أي إذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاءوا سامعين مطيعين، وهم على قوله {مُذْعِنِينَ}؛ وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير حق وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي صلى الله عليه وسلم ليرجح باطله، ثم أي هناك، فإذعانه أولاً لم يكن من اعتقاده من أن ذلك هو الحق، بل لأنه موافق لهواه، أي أنه حينما أذعن لم يكن يذعن لأنه لله عز وجل ولأنه من الله عز وجل، ولكنه؛ لأنه يوافق هواه، وهذا مثل قوله تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)} مع أنهم يقولون {نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ} لكنهم في حقيقة الأمر لا يقولون هذا القول إلا لأجل أهوائهم ولأجل أن يتقوا به، فلهذا اعتبرهم الحق عز وجل في قولهم {إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ} كاذبين، وهنا أيضاً إذعانهم لما حُكم لهم بما هو في صالحهم، يذمهم الله عز وجل لأنه لم يكن لاعتقادهم أن هذا هو الحق؛ ولكن لأنه يتابع أهواءهم.

ولهذا قال تعالى: {أَفَبِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ} أي لا يخرج أمرهم عن أن يكون في قلوبهم مرض ملازم لها، أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم، وأياً ما كان فهو كفر محض، أي كل واحدة من هذه الثلاث هو كفر محض، هذا المرض الملازم وهو مرض الكفر، أو الذي يأتي ويذهب وهو مرض النفاق، أو الظن بالله ظن السوء وهو أنه يظلم، فهذا كله كفر بواح، نعوذ بالله.

{أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ} الخيف هنا: الجور.

قوله تعالى: {بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} أي بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبرءان مما يظنون ويتوهمون من الخيف والجور، تعالى الله ورسوله عن ذلك.

هنا نجد مناسبة في قوله: {بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} هناك قال: {وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ}، وهنا وصفهم بالظالمين، وهذه المناسبات التي نجدها في تذييل الآيات تأتي حسب موضوع الآية، فلما كان الحديث عن موضوع الظلم وأنهم قد يُجار عليهم في الظلم وأنهم في حديث عن العدل وما يتعلق بالحكومة ناسب أن يختمها بقوله تعالى: {بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، وفي قوله: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ} لما كان الكلام عن الإيمان ختمه الله عز وجل بقوله: {وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ}، ولهذا نجد أن هذه التذييلات التي يذيل الله تعالى بها ويختم بها آياته الكريمة لها مغازٍ ولها مقاصد، فهي أشبه ما تكون - كما يقال - الفذلقة والخلاصة لموضوع الآية، فموضوع هذه الآية هو الظلم والعدل فناسب أن يختمه بقوله: {بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، والآية التي قبلها موضوعها الإيمان والكفر فناسب أن يختمها بالإيمان، بينما الآية التي ستأتي الآن بعد قليل {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ

وَرَسُولُهُ في موضوع أهل الإيمان واستجابتهم لله ناسبه أن يختمه بالفلاح، وكذا الآية التي بعدها ناسبها أن يختتمها بالفوز لأن كل ختم له علاقة بمضمون الآية.

هنا يورد المؤلف حديث يرويه ابن أبي حاتم، وهو ينقل كثيراً عن ابن أبي حاتم، وتفسير ابن أبي حاتم من التفاسير الكبيرة التي وصلت إلينا ولله الحمد، وهو تفسير مأثور جميعه، ينقل عنه الإمام ابن كثير وينتقي منه الأحاديث التي تناسب الآيات التي يورد تفسيرها.

يقول رحمه الله : وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا مبارك حدثنا الحسن قال: كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة فدُعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو محقّ أذعن وعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم سيقضي له بالحق، وإذا أراد أن يظلم فدُعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم أعرض وقال: أنطلق إلى فلان، فأنزل الله هذه الآية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من كان بينه وبين أخيه شيء، فدعي إلى حكم من حكام المسلمين فأبى أن يجيب، فهو ظالم لا حق له).** وهذا شبيه الحديث الذي رواه سُمرة مرفوعاً: **(من دعي إلى سلطان فلم يجيب فهو ظالم لا حق له).**

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لا يبغيون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله فقال: **{إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ { سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } أي: سماعاً وطاعة.**

يقول المؤلف : ولهذا وصفهم الله تعالى بالفلاح وهو نيل المطلوب والسلامة من المrehوب، فقال: **{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}**، وهذا يؤكد ما ذكرناه قبل قليل من ختم الآيات أنها تُختتم بما يناسبها، فلما كان سمعهم وطاعتهم هو نيل للمطلوب وسلامة من المrehوب، ناسبه أن يختمه بالفلاح وهو الظفر والفوز بالمقصود، كما سيختتم الآية التالية بالفوز أيضاً.

قال قتادة في هذه الآية : {أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} ذُكِرَ لَنَا أَنَّ عِبَادَةَ ابْنِ الصَّامِتِ وَكَانَ عَقِيباً بَدْرِيّاً - أَيِ حَضَرَ الْعُقْبَةَ وَغَزَا بَدْرَ، أَحَدِ نَقَبَاءِ الْأَنْصَارِ - ، لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِابْنِ أَخِيهِ زُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ: "أَلَا أُنَبِّئُكَ بِمَاذَا عَلَيْكَ وَمَاذَا لَكَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي عَسْرِكَ وَيُسْرِكَ وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ وَأَثَرَةَ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَقِيمَ لِسَانَكَ بِالْعَدْلِ، وَأَلَّا تَتَنَازَعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ يَأْمُرَكَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ بِوَاحٍ، فَمَا أُمِرْتُ بِهِ مِنْ شَيْءٍ يَخَالِفُ كِتَابَ اللَّهِ فَاتَّبَعْتُ كِتَابَ اللَّهِ".
وقال قتادة : وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ قَالَ: "لَا إِسْلَامَ إِلَّا بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا خَيْرَ إِلَّا فِي جَمَاعَةٍ، وَالنَّصِيحَةُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْخَلِيفَةِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ عَامَةً".

طبعاً الخليفة هو ولي الأمر، بأي اسم تسمّى، سواء سمي بملك أو رئيس أو أمير أو خليفة أو والي، فكل هذا تجب الطاعة له، وطاعته من طاعة الله عز وجل ومن طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال : وقد ذُكرَ لَنَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَقُولُ : "عُرْوَةُ الْإِسْلَامِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَالطَّاعَةُ لِمَنْ وَلَاهُ اللَّهُ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ".

الحقيقة أيها الطلاب وأيتها الطالبات أن هذا الأمر وهذا الموضوع في غاية الأهمية، وهو طاعة ولي الأمر؛ لأنه هو أحد دعائم استقرار الدولة الإسلامية، وأحد دعائم استقرار أي كيان؛ لأنه إذا اختل النظام ولم يكن هنالك رأساً يدبر الأمر صار كالجسد بلا رأس، إذا لم يكن هنالك رئيساً صار كالجسد بلا رأس، والجسد بلا رأس ميت، ليس له تدبير، وليس له ما يدبره ويديره، فملك هذه الأعضاء والرئيس المسئول عن أي دائرة أو عن أي دولة يجب له السمع والطاعة في طاعة الله، والمقصود بهذا ولي الأمر الأكبر الرئيسي، مثل الملك أو الرئيس أو الأمير فهذا يجب الطاعة له خاصة في طاعة الله عز وجل، ونجد هنا هذه النصوص الوفيرة التي قرأتها عليكم كلها تؤكد أن هذا من الدين، وأن هذا هو من أصل الدين، وهذه الآيات كلها تشير إلى هذا

الأمر، وأن الدين ليس هو فقط إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فتلاحظون هنا أن عمر بن الخطاب يذكر مع إقام الصلاة وإيتاء الزكاة الطاعة لمن ولاء الله أمر المسلمين، وهنا نجد حتى السمع والطاعة ليس فقط في الأمور المحبوبة والمرغوبة أو في الأمور العامة والمتعارف عليها فقط، بل السمع والطاعة في كل شيء ما لم يكن هنالك معصية لكتاب الله عز وجل، وحينئذ تكون المناصحة، ثم إن هذا يكون في العسر وفي اليسر، الطاعة تكون في المنشط وفي المكروه، وتكون في الغنى وتكون في الفقر، وتكون حتى ولو على حسابك أنت مادام أن فيه مصلحة يراها ولي الأمر، لهذا قال: وأثرة عليك، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل وألا تنزع الأمر أهله.

تقيم لسانك بالعدل: ألا تنتقص ولاية الأمر، مهما صدر منهم، لا يجوز أن تسقط هيبة ولي الأمر في أعين الناس، وفي أعين عامة الناس وخاصتهم أيضاً؛ لأن هذا يقلل من قيمتهم ويهون من مكانتهم، فلا يسمعون لهم ولا يطيعون، فلماذا ينبغي الاهتمام بالسمع والطاعة واحتساب الأجر في هذا من الله عز وجل، وأن هذا يؤجر عليه المرء، وأنه من العبادة التي أمرنا الله تعالى بها. والنصيحة أيضاً هي أحد دعائم الترابط الإسلامي الذي يتكاتف فيها ولي الأمر مع المأمور، وتتكاتف فيها القيادة مع الشعب، والنصيحة تكون بالمعروف وتكون بالتي هي أحسن وتكون من أصحاب الحل والعقد. ولا تكون بالفضائح ولا تكون بالفوضى، ولا تكون بالاستباق على من هو أكبر ومن هو أولى، فلكل مقام مقال، ولكل شيء ما يناسبه من الحكمة.

وفي الحديث الذي قرأناه مرتين بروايتين: (من دُعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حق له) يدل على وجوب الاستجابة عند طلب المحاكمة طاعة لله ورسوله، ومن أبى فهو ظالم لا حق له، وهذا يبين أن شريعة الإسلام شملت جميع جوانب الحياة، فالحاكم والمحكوم والحكومة وما يتعلق بالقضاء وما يتصل بحياة الناس جميعها، ليست هي فقط عبادات وصلوات وأذكار فحسب، وإنما هي حياة، ولهذا فإن أحد أبرز أسباب الفوضى والإرهاب والفساد هو الخروج عن طاعة ولي الأمر، ما نشاهده الآن من تدمير للممتلكات ومن إزهاق للأنفس ومن تسفيه لولاية الأمر في كثير من بقاع الأرض بدعوى نشر الإسلام أو بدعوى الحاكمية كما يقول الخوارج أو بدعوى إنكار المنكر، كل هذا لا يجوز، وإنما يكون من ولي الأمر ويكون بالحكمة وبالموعظة الحسنة، وما نشاهده الآن من فوضى عارمة ومن إرهاب يضرب الأخضر واليابس ويهدم ولا يبني كل هذا ناشئ من عدم فقه القرآن الكريم، وعدم العمل بآياته، وإلا لو أن الناس نظروا إلى هذه الآيات بتدبر ونظروا إلى أقوال العلماء التي نقلناها إليكم لما كانت مثل هذه الفوضى ولما نزع الأمر أهله، بل كان السمع والطاعة، وتسير الحياة بما فيها من خير وما فيها من شر، ويكون فيها أيضاً الحكمة والتغيير للمنكرات في الوقت المناسب حسب ما يراه ولي الأمر، وخاصة إذا كان ما قاله المؤلف ألا يأمر بك بمعصية الله وألا ترى كفراً بواحاً، فكل هذا يُوجب على الإنسان أن يصبر وأن يصابر وأن ينصح بالتي هي أحسن.

الحلقة (٢٦)

موضوع الحلقة : تفسير الآيتين ٥٣ ، ٥٤ من سورة النور .

الآيات التي سنتناولها متصلة بالحديث عن المنافقين وعن التنفير من أخلاقهم ، والتوجيه للمؤمنين لما ينبغي أن يكونوا عليه وأن يتسموا به ، هذا في الآيتين وما بعدهما .

الآيات :

قال تعالى : {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ

المُبين (٥٤) .

✓ المفردات الغريبة :

يقول ابن قتيبة رحمه الله : {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا} فتم الكلام. أي أن قوله تعالى: {طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ} ليس من مقولهم، وليس داخل في القسم، فإن حيز القسم ينتهي عند {لَيَخْرُجُنَّ}، وإن مقول القول ينتهي عند {لَا تُفْسِمُوا}، وهذه هي مقولة قسم المنافقين والرد عليهم .

ثم استأنف الله تعالى كلاماً جديداً قال: {طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ} يقول ابن قتيبة : ثم قال {طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ} هذا واحد من التقديرات في تقدير الكلام. يقول رحمه الله : في هذا الكلام حذف للإيجاز يستدل بظاهره عليه، كأن القول كان للمنافقين، ويحلفون في الظاهر على ما يضمنون خلافه، فقليل لهم لا تقسموا هي طاعة معروفة صحيحة لا نفاق فيها لا طاعة فيه للخلق، هذا على تقدير طاعة معروفة أي هي طاعة معروفة .

وهناك تقديرات أخرى / يقول رحمه الله : بعض النحويين يقولون: الضمير فيها لتكن منكم طاعة معروفة. وحتى على هذا التقدير يتم الكلام عند قوله تعالى: {قُلْ لَا تُفْسِمُوا}.

طبعا المقصود بالتمام هنا تمام الكلام من جهة لفظية، أما من الصناعة الوقفية عند علماء الوقف والابتداء؛ فإن هذا يعد من الوقف الكافي وليس من الوقف التام ؛ لأن الكلام لا يزال متصل في قصة المنافقين، فالوقف التام عند علماء الوقف والابتداء هو انتهاء القصة أو انتهاء القضية بالكامل والشروع في قصة أخرى أو في سورة أخرى أو في موضوع مختلف تماما، لكن مادام أن الكلام متصل في الحديث عن المنافقين والرد عليهم فإنه يعتبر من الوقف الكافي في مصطلح أهل الوقف، وهذا يصدق أيضاً على قولنا في محاضرة سابقة على قراءة: "يَسْبَحُ" {لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦)} حينما قيل تم الكلام عند الآصال على قراءة "يَسْبَحُ" فهذا من الجهة التفسيرية، أما من جهة الوقف والابتداء؛ فإن هذا كله يعد من الوقف الكافية.

إذاً لدينا تقديران في هذه الآية: أما هي طاعة معروفة، أو لتكن منكم طاعة معروفة .

وهناك تقدير ثالث قدره الإمام ابن كثير وآخرون وهو: "طاعتكم طاعة معروفة" .

والمقصود من هذا كله هو أن طاعة معروفة ليست مدح للمنافقين، وإنما هي رد عليهم وذم عليهم .

❖ الآية الثانية :✓ معاني المفردات :

■ {فَإِنْ تَوَلَّوْا} أي أعرضوا .

■ {فَإِنَّمَا عَلَيْهِ} أي على الرسول .

■ {مَا حُمِّلَ} أي من التبليغ .

■ {وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ} من القبول ، أي ليس عليه ألا تقبلوا.

فإذاً بين رحمه الله معاني المفردات وأعاد الضمائر إلى ما تستحقه، فالضمير {فَإِنَّمَا عَلَيْهِ} يعود على الرسول صلى الله عليه وسلم، {وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ} أي ليس عليه ألا تقبلوا، ومن ذلك أيضاً مما ينبغي عليهم نحو الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيمهم القيام بمقتضاه، وهذا خلاف ما عهد عن المنافقين من روغانهم ولفهم ودورانهم .

✓ المعاني التفصيلية والإجمالية :

يقول تعالى مخبراً عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول صلى الله عليه وسلم لأن أمرتهم بالخروج {قُلْ لَا تُفْسِمُوا} أي لا تحلفوا، كما قال تعالى: {يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)}

وقال تعالى: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢)}.

كل هذه الآيات تناقش خلقاً من أخلاق المنافقين وهو الحلف؛ كأن هذا قدر زائد على الكذب، بمعنى أنهم يكذبون ويحلفون، فمن صفاتهم الإمعان في الكذب إلى حد يصل إلى حلفهم على تقرير كذبهم، وهذا لاشك أنه من أبشع الصفات التي اتصف بها المنافقون وهذه عادة ابن كثير رحمه الله، يذكر الآيات المتشابهة في الموضوع، فلهذا تفسيره من هذه الناحية، أي من جهة ذكر الآيات أو النظائر للآية المفسرة، يعتبر من قبيل التفسير الموضوعي الذي يستقرئ فيه الآيات في المواضع الأخرى ويجمعها في مكان واحد. يقول رحمه الله: "فهم من سجيته الكذب حتى فيما يختارونه، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنُخْرِجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١)}"

ثم ختم الله هذه الآية بقوله {إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} أي هو خبير بكم وبمن يطيع وبمن يعصي، فالحلف إظهار الطاعة والباطن بخلافه وإن راجع على المخلوق، فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى، لا يروج عليه من التدليس، بل هو خبير بضمائر عباده، وإن أظهرها خلافها.

طبعاً هذا صدر عن المنافقين لأجل كفرهم بالله عز وجل؛ لأن هذا هو النفاق الاعتقادي، فالنفاق الاعتقادي هو كفر بالله عز وجل، بخلاف النفاق العملي الذي قد يكون في وقوع بعض الصفات التي يتصف بها المنافقون مثل: إذا وعد أخلف، وإذا أوّتمن خان، لكنه مؤمن بالله عز وجل، وليس من صفته الكفر الذي يصل إلى هذا الحد من العداء للرسول صلى الله عليه وسلم، والكذب عليه والحلف على الكذب كعادة وخلق دائم، وهذا ناتج كما قلنا عن كفرهم، فهذا النفاق الاعتقادي يؤدي إلى الكفر نسأل الله السلامة.

إن من يعلم أن الله خبير ويطلع على الضمائر، فإنه لا يمكن أن يستمر ويواصل في هذه الأخلاق المشينة.

❖ الآية التالية :

ثم قال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} أي اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، بمعنى إن قولكم أن قوله: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتُهُمْ لَيَخْرُجُنَّ} هذا ليس من طاعة الله ورسوله وإنما هو من روغانهم، فبين الله لهم ما ينبغي أن يكون لهم من الطاعة لله وللرسول على النحو الذي يأتي به المؤمنون الحق، وقال: {وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا} وذلك لأنه يهدي إلى الصراط المستقيم {صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)} وقوله: {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} كقوله {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠)} وقوله: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١)} لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢)}.

يذكر الإمام بن كثير رحمه الله في بيان معنى قوله تعالى: {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} آيات أخرى وردت في سور أخرى على غرارها، فذكر آيتين، الآية الأولى: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠)} وردت في سورة الرعد، و{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١)} لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢)} في سورة الغاشية، وهناك آية أخرى ممكن أن تضم لهذه الآيات وهي التي في آخر سورة ق {لَخَنَّ أَكْثَرُكُمْ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)}

هنا يذكر الإمام بن كثير رواية إسرائيلية، ونحن نعلم أن الرواية الإسرائيلية يجوز أن يؤخذ منها ويستأنس بها في باب التفسير بما لا يتناقض مع أصول الإسلام، أو بما لا يتناقض مع العقل أيضاً؛ لأنه هنالك أشياء لا يصدقها العقل، كما في بعض النصوص التي تتكلم عن مثل تفسير {ق (١) وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (٢)} [سورة ق]، أو أشياء تتناقض مع عصمة الأنبياء، فمثل هذا كله مردود؛ لأنه أصلاً لا يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إنما هو مما اختلقه بنو إسرائيل، فلهذا أطلق عليها

الإسرائيليات ، وإن كان بعضها من اختلاق النصارى أو غيرهم، لكنه لما كان الغالب من اليهود أطلق عليها هذا الاسم . فابن كثير رحمه الله إذا ذكر شيء من الإسرائيليات المكذوبة أو التي تحتاج إلى تعليق أو استدراك فإنه يعلق عليها، وأما ما كان مقبولا فإنه إما أن يؤيده أو يسكت عنه، وهذه منهجية دقيقة للإمام بن كثير رحمه الله .

وهذا الأثر الذي سأقرأه عليكم بعض مضامينه وردت في الصحيحين وهي في وصف النبي صلى الله عليه وسلم . يقول رحمه الله : **وقال وهب بن منبه** : " أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل - يقال له : شعيب - أن قم في بني إسرائيل، فإني سأطلق لسانك بوجي . فقام فقال : يا سماء اسمعي ، ويا أرض انصتي ، فإن الله يريد أن يقضي شأننا ويدبر أمرا هو منفذه ، إنه يريد أن يحول الريف إلى الفلاة ، والآجام في الغيطان ، والأنهار في الصحاري ، والنعمة في الفقراء ، والمُلْك في الرعاة ، ويريد أن يبعث أميا من الأميين ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته ، ولو يمشي على القصب اليابس لم يسمع من تحت قدميه ، أبعته مبشرا ونذيرا ، لا يقول الحنا ، أفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا ، وأسده لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقته ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدي به بعد الضلالة ، وأعلم به من الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأعرف به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغني به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء متشتتة ، وأستنقذ به فثاما من الناس عظيما من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأملون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، موحدون مؤمنين مخلصين ، مصدقين بما جاءت به رسلي " . رواه ابن أبي حاتم .

هذا النص ما تضمنه من المعاني كلها حق في وصف الرسول صلى الله عليه وسلم وفي وصف دعوته وفي وصف أمته ، ومناسبة مجيء هذا الوصف للرسول صلى الله عليه وسلم لقول الله عز وجل : **{وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}** .

الهدايات :

- ١- **التنفير من أخلاق المنافقين** ، فإن الله تعالى قد أنحى عليهم وذهمهم وكشفهم وفضحهم وبيّن ما لا يمكن أن يبيّن إلا من العليم الخبير، فإقسامهم بالله جهد أيمانهم قد يلبس على الناس وقد يظن الناس أنهم صادقين ؛ لكن من يطلع على الضمائر ويعلم ما تخفيه الأنفس والصدور وما يخفى ، هو الله عز وجل ، والله هو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .
- ٢- أن الله تعالى ذكر أنهم في ظاهر الأمر يقولون مثل هذا ، لكنهم في الخفاء يتخلفون ، ولهذا وصفهم الله تعالى بأنهم منافقين قاعدين ومن الخالفين، كما جاء في سورة التوبة .

ولهذا كان من أبرز الصفات التي يتصف بها المنافق أن يعصي ولي الأمر في الخفاء ، أي أنه إذا قابله حلف وأقسم وأظهر إيمانه ؛ لكنه إذا خلا بينه وبين نفسه أو بين إخوانه من المنافقين فإنه يعلن عصيانه وتمرده ، وهذا ورد في آيات أخر مثل قوله تعالى : **{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ (٧٦)}** وفي آية أخرى **{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)}** .

- ٣- أن مهمة الرسل وأتباعهم البلاغ ، وليس القسر (الإكراه) ، المهم أن يبلغوا، يعني ليس على الدعاة أن يجبروا الناس وأن يلجئوهم إلى الدين بالقوة ، ولهذا قال الله تعالى : **{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}** . ونلاحظ أن هذه الآية يقول الله تعالى فيها : **{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}** جاءت بعد آية الكرسي التي نوهت بعظمة الله عز وجل وسعة ملكوته وسعة علمه، فبعد أن ذكر الله تعالى صفاته في آية الكرسي وما فيها من الآثار العظيمة التي تدعو إلى الإيمان ، قال الله تعالى : **{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}** فإن من بلغته الدعوة على الوجه الأتم والوجه الأحسن فلاشك أن ذلك سيدعوه ويرغبه في الدخول في دين الله عز وجل .

الحلقة (٢٧)

موضوع الحلقة : تفسير الآيات ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ من سورة النور .

الآيات :

قال تعالى : {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)} .

نلاحظ أن من عادة القرآن الكريم أنه متى ما ذكر صنفا ثنى بالصنف الذي يقابله ، وذلك لبيان البون- الفرق- وبيان صفات كل فريق ، إما ذما أو مدحا ؛ فإن صاحب الصفات المذمومة إذا ذكرت صفاته المذمومة مجردة؛ فإنها لا تكون بقوة الذم فيما لو كانت مذكورة في مقابلها أو بجوارها صفات محمودة ؛ فأنها تزداد قبحا وشينا وذما؛ لأن الصفات المحمودة يظهر نورها وبريقها حين تنكشف هذه الظلمات .

وكذلك نقول مثل هذا في الصفات الحسنة، الصفات الحسنه لها جمالها ولها حُسْنُها، لكنها إذا ذكر بجوارها الصفات القبيحة قبلا أو بعدا ؛ فإن ذلك يُشجع على الصفات الحسنة والاتسام بها؛ لأنها يظهر لمعانها وبريقها وتظهر قيمتها بكمالها، إذا ذكرت بجوار صفات أخرى، ولهذا لما ذكر الله المنافقين ذكر بعدهم مباشرة أهل الإيمان ، وهذا نجده كثيرا في القرآن، في مثل قوله تعالى: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ} ثم قال تعالى: {وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ} فهذا نجد أن هذه المقابلات كثيرة في القرآن الكريم {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦)} وهنا وعد من الله عز وجل للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ويتابعون الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يهبهم هذه الحلال وتلك الخصال؛ فإذا عبدوا الله وحده لا شريك له ، وأقاموا الصلاة وأطاعوا الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام . يقول الإمام ابن كثير : "هذا وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أي أئمة الناس والولاية عليهم".

هذا وعد من الله عز وجل لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن هذا يدخل فيه الخلفاء الراشدون، فإن عهدهم وعصرهم ممن عاصرهم من كبار الصحابة وكبار المهاجرين والأنصار هم يدخلون دخولا أساسيا في هذه الآية ، وقد ظهرت عدة الله عز وجل فيهم وفي أعمالهم كما سيأتي بعد قليل .

يقول رحمه الله : وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد ، وليبدلهم بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم، فبعد أن كانوا محكومين صاروا هم الحكام ، وبعد ما كانوا خائفين صاروا هم الذين ينشرون الأمن .

يقول رحمه الله : وقد فعل الله تبارك وتعالى ذلك -وله الحمد والمِنَّة- ؛ فإنه لم يمت الرسول صلى الله عليه وسلم حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بأكملها، وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم، وصاحب مصر والإسكندرية وهو المقوقس ، وملك عمان، والنجاشي ملك الحبشة، إلى آخر ما قال .

ثم قال رحمه الله : ثم لما مات الرسول صلى الله عليه وسلم وأختار الله له ما عنده من الكرامة قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر

الصدیق، فلم شعث ما وهي عند موته، وأطد جزيرة العرب ومهدھا، وبعث الجیوش الإسلامية إلى البلاد، ويُذكر أنه بدأ بفتح أرض الشام وبلاد مصر، وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكما لها، ويذكر هنا عن أبي بكر الصديق أنه بعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس بصحبة خالد بن الوليد رضي الله عنه وفتحوا طرف منها، وجيش آخر بصحبة أبي عبيدة رضي الله عنه ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثا بصحبة عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى بلاد مصر.

يقول رحمه الله: وتوفاه الله عز وجل وأختار ما عند الله من الكرامة. ومنَّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق رضي الله عنه، أتم مسيرة الصديق فأكمل فتح بلاد الشام ومصر إلى آخرها.

أما الدولة العثمانية في عهد الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه فإنها أمدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، وفتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك، الأندلس وقبرص وبلاد القيروان، وفتحت مدائن العراق وخرسان والأهواز، وجُبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه... إلى آخر ما قال.

✓ سبب نزول الآية :

وَعَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَوْلِهِ **{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}** هذا نزل في وقت كان الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما ذكر البراء بن عازب أنهم كانوا في خوف شديد، ونزلت هذه الآية، وما كانوا يظنون أنهم سيصلون إلى هذا المبلغ، لكن البشارة قد أتتهم من الله عز وجل فأمنوا بها وصدقوها وعملوا لها إلى أن تحقق لهم ما تحقق، كما قرأنا بعض النصوص الواردة في هذا.

ولهذا يقول الربيع بن أنس عن أبي العالقة في قوله **{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}** الآية، قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نحو من عشر سنين -يعني ثلاثة عشر سنه تقريبا- يدعون إلى الله وحده لا شريك له سرا، وهم خائفون لا يأمرن بالقتال، حتى أمروا بعدُ بالهجرة إلى المدينة، فقدموا المدينة فأمرهم الله تعالى بالقتال، فكانوا منها خائفين يمسون في سلاح ويصبحون في سلاح، فغيروا بذلك ما شاء الله .

ثم إن رجل من أصحابه قال : يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟! فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: **(لن تغيروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبئاً ليست فيههم حديدة).** وأنزل الله هذه الآية فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فأمنوا ووضعوا السلاح، ثم إن الله قبض نبيه صلى الله عليه وسلم فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا.... إلى آخر ما قال رحمه الله .

ثم ينقل الإمام ابن كثير رحمه الله نقولا منها :

قال بعض السلف: خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حق في كتابه، ثم تلا هذه الآية **{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ}**.

وقال البراء بن عازب: نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد .

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : **{وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)}**.

وهناك آيات أخرى وشبيهة بالآية التي بين أيدينا فيما يتعلق بالاستخلاف، فقوله تعالى: **{كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}** هي كقول الله عز وجل: **{عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)}**. وكقوله: **{وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥)}**

فإذا وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات بعدة هبات :

٢- التمكين {وَلَيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ} .

٣- تبديل الخوف إلى أمن .

أما تمكين دينهم الذي أرتضى لهم : يذكر المؤلف هنا حديثا عن عدي بن حاتم حين وفد عليه، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتعرف الحيرة؟) قال: لم أعرفها ولكن قد سمعت بها؟ قال: (والذي نفسي بيده ليرتضيه الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة- يعني المرأة - من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولتفتح كنوز كسرى ابن هرمز ، قلت: كسرى ابن هرمز؟ قال: نعم كسرى بن هرمز، وليبدلن المال حتى لا يقبله أحد) . قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة وتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن أفتتح كنوز كسرى ابن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قالها .

ويذكر أيضًا حديثا آخر عن الرسول صلى الله عليه وسلم: (بشر هذه الأمة بالسنة ، والرفعة ، والدين ، والنصر ، والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب).

لما ذكر الله عز وجل هذه البشائر ذكر أنها لا تمنح إلا لبشر لهم مواصفات معينة، وهذه المواصفات انطبقت على الخلفاء الراشدين وعلى الأئمة المهديين وعلى العصور المتقدمة التي كانت تأخذ بهذا الدين على الوجه الذي ذكره الله عز وجل من الإيمان التام والعمل الصالح المتقن ، ثم إنه يحدث في هذه الأمة بعض الانحسار والركود وبعض الضعف ، وهكذا هي دورة الحياة ، يجري عليها ما يجري على سائر الأشياء ، فالأمة قد مرت ببعض العصور التي خفّت نورها وربما تكون اندثرت بعض معالمها ؛ لكنها لم تسقط ولله الحمد، فتعود في عصور آخر لتزدهر كما ازدهرت من قبل ، لذلك ذكر الله صفات متى تحققت في أي عصر من العصور؛ فإنه بإذن الله تعالى يكتب لهم التمكين في الأرض .

وهذا تحقق في عدد من العصور ولله الحمد ، وفعلًا كتب الله لهم التمكين في الأرض، وبدلهم الأمن بعد الخوف، ولسنا في مكان بعيد، فهذه المملكة العربية السعودية قبل عهد الملك عبد العزيز رحمه الله الذي وحد شمل هذه البلاد، وغرس ونشر فيها عقيدة التوحيد، ونبذ فيها البدع والشرك ، ودعا فيها إلى الله عز وجل، وحكّم فيها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كانت عبارة عن بوادي متناحرة، يأكل القوي منهم الضعيف ، وكان الحجيج يأتون إلى مكة ويهلك كثير منهم في الطرق ويكونون عرضه للسرقة والنهب ، فجاء الملك عبد العزيز رحمه الله ووحّد هذه البلاد وقام بأمر الله عز وجل كما ينبغي ، فكتب الله له التمكين بإذن الله عز وجل، نسأل الله أن يديم هذا التمكين .

هذه المواصفات - كما قلت - تتكرر في عدد من العصور ، وهذا واحد من هذه العصور .

هذه المواصفات هي : {يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} .

يقول ابن كثير رحمه الله في معنى هذه الآية : عن معاذ بن جبل حدثه قال : "بينما أنا رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل، قال: (يا معاذ) ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : ثم سار ساعة ، ثم قال: (يا معاذ بن جبل) قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك ، ثم قال: (يا معاذ بن جبل) قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: (أتدري ما حق الله على العباد؟؟) قلت: الله ورسوله أعلم. قال: (فإن حق الله على العباد أن يعبدوه لا يشركوا به شيئا) الحديث .

وقوله تعالى : {وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} .

أي من خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد فسق عن أمر ربه، وكفى بذلك ذنبا عظيما، فالصحابة رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم بأوامر الله عز وجل وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم ، وأظهروا كلمة الله في المشارق

والمغرب، فأيدهم تأييدا عظيما وتحكموا في سائر العباد والبلاد .

ومما يؤيد ما ذكرته لكم عن وجود الطائفة والتمكين لبعض من لزم عبادة الله وحده ولم يشرك به شيئا ، ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ساقه الإمام ابن كثير ، قال : (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة) . وفي رواية : (حتى يأت أمر الله وهم كذلك) وفي رواية : (حتى يقاتلوا الدجال) وفي رواية : (حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون) . كل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها .

من ضمن الشروط التي تحقق للأمة التمكين ما ذكره الله في الآية التالية : { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) } . يأمر عباده المؤمنين بإقامة الصلاة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ؛ لأن إقامة الصلاة هي توحيد لله ؛ لأنك تناجي الله عز وجل ، وهي من مبدأها إلى منتهاها إقامة لهذا التوحيد .

قال : وإيتاء الزكاة هي الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، طبعا هذا يشمل الصدقات والزكوات ، كل ما ينفق من ما هو مستحب وما هو واجب يدخل في هذا ، ليست قصرا على نوع من الصدقات ولا مقتصرة على الزكوات الواجبة ، وهذا الإطلاق يُستخدم في القرآن الكريم كثيرا .

ثم يقول رحمه الله : وأن يكونوا في ذلك مطيعين لرسول صلى الله عليه وسلم ، أي سالكين وراءه فيما به أمرهم ، وتاركين ما عنه زجرهم ، لعل الله يرحمهم بذلك ، ولا شك بأن من فعل ذلك أن الله سيرحمهم ، كما قال الله تعالى في الآية الأخرى : { أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ } .

❖ والآية الأخيرة واضحة حيث يقول الله عز وجل : { لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ } .

أي لا يعجزون الله ، بل الله قادر عليهم وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ، أي مهما كان تمكّنهم في الأرض ومهما طال أمدهم في الأرض وسيطرتهم على الناس ، فإنهم لا يعجزون الله عز وجل ولا يستطيعون الفكك منه في الدنيا أو الآخرة ، لهذا بين الله تعالى مآلهم فقال تعالى : { وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } أي لبئس المآل مآل الكافرين ، وبئس القرار ، وبئس المهاد

✓ الهدايات :

هذه الآيات تضمنت جملة من الهدايات ألمحنا إلى شيء منها في ثنايا قراءتنا في تفسير ابن كثير ، ومنها أيضا :

- ١- ثمرة الإيمان والعمل الصالح يورث التمكين في الأرض بإذن الله ، ويحقق وعد الله عز وجل .
- ٢- أن توحيد الله عز وجل هو مفتاح العزة والتمكين ، فمن أراد أن يمكن الله تعالى له في الأرض فعليه بتوحيد الله عز وجل ؛ لقوله تعالى : { يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا } .

الحلقة (٢٨)

موضوع الحلقة : تفسير الآيات ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ من سورة النور .

وهي تتحدث عن موضوع الاستئذان في داخل البيت ، فالآيات الأولى السابقة التي كانت بعد حادثة الإفك ، كانت تتحدث عن الاستئذان خارج البيت ، وقد ركزت هذه الآيات على الاستئذان لما له من فائق الأهمية ؛ لأنه يعتبر صمام الأمان للستر والعفاف والمحافظة على حرمة البيوت وصيانتها من أن يهتك سترها أو تنتهك أعراضها .

✚ الآيات :

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ

طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) .

كما تلاحظون الآيتان الأوليان كانت في موضوع الاستئذان ، وأما الآية الأخيرة فهي لها علاقة بالحجاب ، وهذا يدل على أن السورة بدأً آخرها ينعطف على أولها ، وهذا نوع من الإعجاز البلاغي حينما تُربط فواتح السور بخواتيمها ، فنجد أن الموضوعات تُذكر مرة أخرى لكن بأسلوب آخر وبصيغة أخرى لكي تتناول أحكام أخرى تتمم الأحكام السابقة التي في أول السورة وتؤكد عليها ، فالآيتان الأوليان في موضوع الاستئذان ، والثالثة في الحجاب .

✓ المفردات الغريبة :

■ {لَيْسْتَأْذِنُكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} : أي العبيد والإماء وهم المملوكين .

■ {وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ} : أي الأطفال .

ثم بين الله تعالى هذه العورات الثلاث فقال: {مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ}، نلاحظ أن جُماع هذه الأوقات الثلاثة هي أوقات للنوم ، حين يضع الناس ثيابهم ، فقد يتجرد الإنسان من بعض ثيابه ، فإذا جاء الطفل في هذه الأوقات ووجد أباه وأمه ، أو من في داخل البيت من أقاربه ، ربما وقع نظره على أشياء من جسده ، أو بعض أحواله التي لا ينبغي أو لا يجب أن يراها هذا الطفل أو الرقيق ، وهذا خطير بالنسبة للطفل ؛ لأنه ربما تنغرس في نفسه هذه الصورة ، وهي من الصور الغير لائقة التي يجب أن تراعى عند تنشئة الأطفال ، والتي لا يجب أن يشاهدوها في مثل هذا السن .

يقول رحمه الله تعالى : {لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ} أي بعد هذه الأوقات يجوز لهاتين الفئتين الدخول بدون استئذان ، أما غير هذين النوعين وهم الرقيق والأطفال ، فإنه يتعين عليهم الاستئذان في كل الأوقات ، لهذا قال تعالى في الآية الثانية : {وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} فلاستئذان دائم في داخل البيت ومستمر في كل وقت ، لكن يخفف على الأطفال بأن يكون استئذانهم في هذه الأوقات الثلاثة فقط دون غيرها لكي لا يشق ذلك عليهم .

يقول رحمه الله : {طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ} يريد أنهم خدمكم فلا بأس أن يدخلوا في غير هذه الأوقات من غير إذن .

{وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا} في كل وقت ، أي حكمهم كحكم سائر الكبار .

{كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} يعني الرجال .

قوله تعالى : {وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ} أي العُجُز ، واحداها قاعد .

✓ لماذا سميت قاعد ؟

يبين المؤلف ثلاثة أسباب :-

١. لعودها عن الحيض .

٢. أو لعودها عن الولد ، أي أنها لا تلد .

٣. لكن المؤلف لا يرتضي هذا التعريف ويرى أنها قاعد لأنها عجزت عن التصرف وكثرة الحركة وإطالة القعود ، وسميت لذلك قاعد ، لكن لا تسمى قاعدة ، وإنما يقال قاعد لأن القاعدة جمع مفرد لغير النساء ، أما النساء فالقاعد منهن يعني الكبيرة .

قوله تعالى: **{فَلَيْسَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ}** أي الرداء ، والمقصود هنا بعض ثيابهن ، وإنما يعبر بالكل ويراد به الجزء ، وهذا خاص بالمرأة الهرمة العجوز الكبيرة والتي قال الله عنها **{وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ}** .

✓ المسائل:

ننتقل للمسائل التي عند ابن كثير رحمه الله تعالى :

الأولى : المناسبة بين الآيات :

استهل هذه المسائل بما استهللنا به الحديث عن المناسبة ، فذكر هذه الآية فقال: "هذه الآيات الكريمة اشتملت استئذان الأقارب بعضهم على بعض ، وما تقدم في أول السورة هو استئذان الأجانب بعضهم على بعض . والأجانب يقصد بهم الذين خارج البيت ، وأما الأقارب يقصد بهم الذين داخل البيت .

الثانية : يقول : يأمر الخادم والأطفال أن لا يهجموا على البيت في هذه الأحوال، ولما كانت هذه الآية محكمة لم تنسخ بشيء كان عمل الناس بها قليل جداً ! أنكر ابن عباس ذلك على الناس، كما قال ابن أبي حاكم: حدثنا ابن زرعه إلى قوله قال ابن عباس: "ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بها **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ...}** الخ الآية ، و آية في سورة النساء **{وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨)}** [سورة النساء] ، والآية التي في سورة الحجرات **{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}** [سورة الحجرات] .

وينقل أيضاً عن ابن عباس قال: "إن الله سَتَّيرٌ يُحِبُّ السَّتْرَ، كان الناس ليس لهم ستور على أبوبهم ولا حجال، وربما فاجئ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمة الذي في حُجره وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سم الله، ثم جاء الله بعد بستور فبسط عليهم الرزق فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال ، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به" (١) .

أي أن ابن عباس ينحي على الناس تركهم للاستئذان، وأنه ينبغي عليهم أن يأخذوا به حتى ولو مع وضع الستور .
والحجال : هي بيت كالقبة ، وهي أشبه ما تكون بالغرف، ولذلك يقولون السرر في الحجال، فهو بيت كالقبة، ويكون له أزار كبار، ويُجمع على حجال .

وهذه الآية جاءت لتبين حكم الاستئذان سواء أكان هناك ستور أو لا ، لأن الستور تمنع نظر الفجأة ، فإذا كانت نظر الفجأة الأولى فهناك ستر ، لكن لا ينبغي أن يهتك هذا الستر إلا بعد الاستئذان، فيستأذن ثم يؤذن له بالدخول .ابن عباس يقول إن الناس تركوا العمل بهذه الآية لأنهم تهاونوا في الاستئذان .

الحقيقة أن موضوع الاستئذان هذا من الحضارة الإسلامية الراقية التي أكدها الإسلام وأراد أن ينشرها بين الناس ؛ لأن الاستئذان - كما قلنا في أول سورة النور- هو العتبة التي يدخل من خلالها الإنسان البيت ، والتي يدخل من خلالها غرف البيت ، فهي تعطي نوع من الاطمئنان والراحة النفسية قبل الدخول في البيت ، فيرتاح الداخل والمدخول به أيضاً ، ولهذا ينبغي أن يكون الاستئذان شعار دائم لمن هم خارج البيت ولمن هم داخل البيت ، ويكون كما ذكرنا بطرق خفيف أو بنحنة أو بأي أسلوب من أساليب الاستئذان .

الثالثة : يقول رحمه الله : وما يدل على إنها محكمة ولم تنسخ قوله : **{كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}** ، استدلال الإمام بن كثير أن هذه الآية لم تنسخ بسبب أنها ختمت بقوله تعالى : **{وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}** ، فما جاء على نسق مثل هذه الآيات

(١) هذا الموضع جرى فيه تقديم وتأخير ؛ لأجل الترتيب .

في الغالب أنه يكون محكم ، والأصل في الآيات أنها محكمة ، وذلك المنسوخ في القرآن قليل جداً ، وحصره بعض العلماء على ثلاث آيات .

الرابعة : يقول رحمه الله تعالى : {وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} أي إذا بلغ الأطفال الذين كانوا يستأذنون في العورات الثلاث الحلم ، وجب عليهم أن يستأذنوا عليكم على كل حال ، وهذا بالنسبة لأجانبهم وإلى الأحوال التي يكون الرجل على امرأته وإن لم يكن في الأحوال الثلاث. وهذا مثل ما ذكرنا منذ قليل هذا تخفيف للأطفال بحيث يُرفع عنهم الاستئذان إلا في هذه الأوقات الثلاث ، لكن إذا جاوزوا مرحلة الطفولة فإنهم ينطبق عليهم ما ينطبق على سائر الكبار ويستأذنون في كل وقت وحين ، في هذه الأوقات الثلاث وغيرها .

الخامسة : قوله تعالى : {فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ} أي ليس عليهن من الحجر والتستر كما على غيرها من النساء .

قال سعيد ابن حبيب في قراءة عبد الله بن مسعود : "أن يضعن من ثيابهن".

وقال سعيد ابن حبيب : {غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ} يقول : لا يتبرجن بوضع الجلباب أن يرى ما عليها من الزينة .

إذا المرأة الكبيرة في السن الهرمة وما سواها يجوز لها أن تتخفف من اللباس ، من وضع بعض رداءها ، بشرط ألا تبدي زينتها؛ لأنها إذا تجملت وتزينت فإنها قد خرجت عن المقصود، والمقصود هو التخفيف وعدم إثارة الفتنة ، فإذا كان هذا التخفيف سيؤدي إلى حدوث هذه الفتنة فإنها تُمنع من وضع رداءها أو بعض رداءها .

ثم يتم الله هذا الأمر - وهذا من حكم التدرج في التشريع - بأنه سبحانه وتعالى يخفف على الناس أيضاً لكنه يرتقي بهم من جانب آخر ، وهذا نجده في مثل هذه الآية وفي موضوع آخر ، فقال الله تعالى : {وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} فبين الله لهم الأمر المباح ، ثم بين لهم الأمر الأحسن والمستحسن والمندوب ، أي وترك وضعهن لثيابهن وإن كان جائز خيراً وأفضل لهن والله سميع عليم ، نجد هذا في قوله تعالى : {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦)}

[سورة النحل] ، وأيضاً ما جاء في سورة الشورى {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)}

أي الأثم والأكمل أن يصبر الإنسان ولا يقابل العقوبة بمثلها.

✓ الهدايات :

١- دعوة القرآن إلى الستر ، فنلاحظ إن هذا الستر في هذه الآيات قد شمل جميع المراحل العمرية من الطفولة إلى الشيخوخة والهرم ، فتحدث الله تعالى على ما ينبغي من الستر وعن كل نوع من هذه الأنواع ، وهذا من تفصيل القرآن الدقيق الذي لم يدع شيئاً إلا بينه .

٢- أدب الإسلام في ستر العورات ، فثقافة الإسلام هي ثقافة الستر؛ ليست ثقافة التعري التي يشهدها الآن والتي يبثها كثير من الإعلام الفاسد الذي ينشر العورات ويقحمها في كل بيت وفي كل دار وفي كل غرفة، لاشك أن الإسلام ومبادئه تنهى عن مثل هذا وتدعو للستر؛ لأن الستر كرامة للمؤمن وكرامة للإنسان ، والإسلام يدعوا لكل ما فيه كرامه وستر له .

٣- منهجية القرآن في تربية الأطفال وأنه يأخذ بهم بالرفق ويتدرج معهم ، فلم يعامل الأطفال في التستر كما يعامل سائر الناس ، وهذا ما نجده في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : (مرؤا أبناءكم بالصلاة لسبع وضربوهم عليها لعشر) . فهم يأمرونهم بالصلاة في السابعة، وعندما يصل للعاشرة فيكون قد ألف الصلاة ولا يحتاج بإذن الله إلى الضرب ، مع العلم أن الضرب المذكور في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو الضرب الخفيف الغير مبرح ، وإنما هو لمس الجسد بكل خفه

دون التعرض للإيذاء ، فهذه هي أخلاق الإسلام الحنيف، فهذا هو الضرب التأديبي وليس الضرب التعزيري .

كذلك ضرب المعلم لتلميذه وما جاء في ضرب الزوج لزوجته؛ ضرب تأديبي وليس تعزيري

٤- سماحة الإسلام في التخفيف على القواعد من النساء في اللباس دون أن يشق عليهم ؛ لأن هذا فيه مشقة لو عوملت كما تعامل سائر النساء .

٥- اهتمام الإسلام بالمقاصد وليس بالأشكال ، فالمقصد هو عدم إظهار الزينة والفتنة ؛ فإن هذه الزينة وهذه الفتنة إذا لم تظهر عند القواعد من النساء فلا حرج في أن يضعن بعض ثيابهن ، ومن الخطأ أن تتحجب المرأة ويكون هذا الحجاب مزخرف وحركاتها من المشي وغيره فيها تغنج ، كما قال تعالى: **{وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ}** . فإظهار الزينة من جوانب أخرى تتنافى مع مقاصد الإسلام ، المقصود إخفاء الزينة إلا عند الزوج أو عند من يستحقها.

الحلقة (٢٩)

موضوع الحلقة : تفسير الآية (٦١) من سورة النور.

الآيات :

قال تعالى : **{لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مَبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)}** .

هذه عادة القرآن الكريم في رفع الحرج، والتيسير على الأمة، فحينما يحكم الله بحكمه، ويقضي بقضائه في بيان ما يسهل على الناس في الأخذ بهذا الحكم والعمل به، بحيث يبين لهم سبحانه وتعالى أنه رفع عنهم الحرج والإصر وما يشق عليهم في هذه الأحكام، هذا فيه إغراء وتشجيع وحفز للنفوس للأخذ بهذه الأحكام.

هذه الآية من أولها إلى آخرها فيها رفع الحرج ، ليس على الأعمى حرج وليس على أنفسكم حرج أيضاً في أن تأكلوا من بيوتكم إلى آخر الآية .

واختلف المفسرون رحمهم الله في المعنى الذي رُفع من أجله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض، وهذا في مطلع الآية **{لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ}** .

القول الأول : بعض المفسرين ومن هم عبد الرحمن بن زيد بن أسلم^(١) يرى أنها نزلت في الجهاد ، واعتبروا هذه الآية **{لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ}** كقوله تعالى : **{لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذَّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً (١٧)}** لكن الآية في سورة النور ليس فيها هذا القول فقط، هذا أحد الأقوال أنه الجهاد في سبيل الله، لكن التي في سورة الفتح متفق على أنها في رفع الحرج فيما يختص بالجهاد فقط؛ لأن الذي رفع من أجله الحرج في سورة الفتح أنه خاص بالجهاد، ولم يختلف المفسرون في هذا، أي في المعنى الذي رُفع من أجله الحرج في سورة الفتح، أما الآية التي في سورة النور فقليل أنه "الجهاد" وهذا كما قلنا هو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

أي انه لا أثم عليهم في ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم، وهذا قد يكون فيه علاقة ، الآيات الواردة في الجهاد في قوله تعالى **{إِنَّمَا}**

(١) رجعت إليه في تفسير القرطبي "ابن زيد".

كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)} والآيات التي قبلها والتي بعدها ، وله علاقة وطيدة بقوله تعالى {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجْنَ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ يَبْهِيكُمْ سَبِيلَكُمْ فَاعْبُدُوهُ} [فذكر الجهاد له مناسبة هنا.

القول الثاني: يرى أنهم يتخرجون من الأكل مع الأعمى، ولا شك أن مناسبتة وطيدة فيما بعدها، ودائما نحن نقول السياق في القرآن الكريم، ونعني بالسياق ما يكون بالسباق وما يكون باللاحق له الأثر الكبير في بيان معنى الآيات .
هذه الآية في معناها الثاني ترى أنهم يتخرجون من الأكل مع الأعمى، لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات، فربما سبقه غيره إلى ذلك، ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه، والمريض لا يستوفي من الطعام مثل غيره، فكهوا أن يأكلوهم كي لا يظلموهم، هذا طبعاً في شريعة الإسلام بعد أن عرف المسلمون العدل وحقوق الغير، وإلا كانوا قبل ذلك أشبه ما يكونون في غابة، نعم كانت لهم بعض الأخلاق لكن كان يغلب عليها الجشع.
ولهذا جاء المعنى الآخر؛ **عن الضحاك** : أنهم كانوا قبل المبعث يتخرجون من الأكل مع هؤلاء تقذراً وتقزراً لئلا يتفضلوا عليهم ، فانظروا إلى هذين القولين والفرق بينهما .

القول الثاني وهو قول سعيد بن جبير قال: أنهم كانوا يتخرجون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يرى الطعام من الطيبات والمريض لأنه لا يستطيع أن يأكل مثل الصحيح، والأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه، وهذا هو قول سعيد بن جبير في معنى الآية ، وهذا يتناول أهل الإسلام أو يتناول المسلمين في حقبة الإسلام .
بينما قول الضحاك يذهب إلى أنهم يتخرجون من الأكل مع هؤلاء تقذراً وتقزراً، لئلا يتفضلوا عليهم، فأنزل الله هذه الآية، فهذا هو الفرق بين القولين الآخرين، أما القول الأول فهو الظاهر أنها نزلت في الجهاد، وكما أسلفت الجهاد له علاقة بما سبق ، وبما يتعلق برفع الحرج عن الأكل بالنسبة للأعمى والأعرج والمريض، أنه يختص باللاحق لأن بعده أتت {وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ} .

✓ سبب نزول الآية :

يذكره ابن كثير عن السدي قال : "كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو ابنه فتتحفه المرأة بشيء من الطعام فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثم-يعني ليس موجوداً- فقال الله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ...} إلى قوله {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً} إذاً سبب النزول الذي قال به السدي هو متعلق بالآية {وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ} .

ويذكر ابن كثير عن علي بن أبي طلحة سبب نزول آخر في هذه الآية وتتمتها يقول : قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً} ، وذلك لما أنزل الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} قال المسلمون إن الله تعالى قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل من الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله تعالى {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ...} إلى قوله {أَوْ صَدِيقِكُمْ} ثم يواصل ابن كثير في بيان سبب النزول الآخر وقال: وكانوا أيضاً يأنفون ويتخرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره ، فرخص الله لهم في ذلك فقال: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً} .

سبب النزول الأول الذي ذكره السدي وهو قوله تعالى: {وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ} أنه كان الرجل يتخرج من أن يأكل من بيت قريبه ممن ذكرهم الله تعالى في هذه الآية، فخفف الله عنهم فأنزل الله تعالى {وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ} الآية.

وقول علي بن أبي طلحة واضح أيضاً حينما قال : لا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد ، عندما نزل قول الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ}** فقالوا: أن الأكل هو من هذا القبيل أو أشد منه أي أشد من المال، فقالوا: الطعام أفضل من الأموال، فقال الله تعالى **{أَوْ صَدِيقَكُمْ}** .

سبب النزول الآخر يختص بأخر الآية **{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً}** أنهم كانوا يتخرجون في أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره، فأنزل الله هذه الآية **{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً}** .

يقول الله تعالى: **{وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ}** ماذا يريد بالأنفس في هذه الآية؟ هل هو نفس صاحب البيت؟ لاشك أن هذا قد لا يكون صريح فصاحب البيت هو أولى بطعامه! وأولى بمأكله ومشربه فمن يستأذن؟ هل يستأذن من نفسه؟! لهذا علل ابن كثير لهذا فقال: "إنما ذكر هذا - وهو معلوم - ليعطف عليه غيره في اللفظ وليساويه^(١) ما بعده في الحكم". بمعنى إن ما يكون لكم ولأنفسكم وما أجازة الله لأنفسكم من الأكل دون أن تستأذنوا من أحد، يصدق أيضاً على بيوت آبائكم وأمهاتكم فهي كبيوتكم أنفسكم، ويشمل الأنفس هنا فيما يتعلق بقوله **{وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ}** ما يتعلق بأهل البيت أنفسهم، من الأولاد والبنات والزوجة أيضاً، هو بيتها وإن لم يكن ملك لهم، لأنه ملك لرب البيت لكنهم يدخلون في قوله تعالى **{وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ}** فهذه الآية تصدق على كل من يسكن في البيت، لأن من يسكن في هذا البيت لا يحتاج لأن يستأذن من غيره، ممن تلزمهم النفقة من الأبناء والبنات، وأيضاً الآباء والأجداد إن لم تكن لهم بيوت فهم من أهل البيت.

وقوله تعالى: **{وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ}** هو يشمل صاحب البيت ومن يلوذ به من ساكنيه، يؤكد ابن كثير على هذا المعنى فيقول "أنت ومالك لأبيك" يعني أن صاحب البيت ومن فيه من أهله هم بعضهم من بعض، ويشمل هذا ما يكون ملك للمرأة صاحبة البيت، مثلاً: الزوجة فهي داخلة في هذا، فطعام النساء وطعام الرجال سواء أكان ملك لهم أو ملك لأزواجهم هو ملك متاح ومأذون فيه للجميع .

وقوله عز وجل: **{أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ}** إلى قوله تعالى: **{أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُ}** .

يرى ابن كثير رحمه الله تعالى أنه قد يستدل به بمن يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، كما هو مذهب أبو حنيفة والإمام أحمد ابن حنبل في المشهور عنهما، أنه تجب النفقة بين الأقارب بعضهم على بعض، وهذا قول لبعض الفقهاء، لكن الأصل فيه فيمن تجب عليهم النفقة هم ما يتصل بالفروع والأصول، الأبناء وإن نزلوا والبنات وإن نزلن، وكذلك الآباء والأجداد وإن علو، فهؤلاء هم امتداد للإنسان يجب عليه أن ينفق عليهم وأن يقوم بواجبهم، وهذه تختلف فيه وهو رأي لبعض الفقهاء كما ذكره عن أبي حنيفة والإمام أحمد في المشهور عنهم .

يقول الله تعالى: **{أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ}** كل هذا ظاهر وواضح إلى قوله تعالى: **{أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُ}** ، الذي يملك المفتاح هو من يوكله صاحب البيت سواء أكان خادم أو وكيل أو أمين أو حارس، كل هؤلاء يدخلون في هذا **{أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُ}** إذا كان بيده المفتاح ومأذون له أن يدخل وأن يخرج في البيت ومن البيت، فهذا يحل له أن يأكل من طعام البيت، ولهذا يشمل هذا الخدامات في الدرجة الأولى، فهن يجوز لهن أن يأكلن ويشربن مع أهل البيت دون أن يستأذنوا منهم طبعاً بالمعروف، ويشمل هذا أيضاً كما في سابق الإسلام الإيماء والمماليك ونحوهم .

يذكر الإمام ابن كثير عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها : "كان المسلمون يرغبون في النفير مع رسول الله صلى الله

(١) من المصدر (تفسير ابن كثير) ، ونطقها الشيخ وليستأديه.

عليه وسلم -يعني في الجهاد- ، فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمنائهم -يعني وكلائهم- ، ويقولون قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه فكانوا يقولون: "إنه لا يحل لنا أن نأكل؛ إنهم أذنوا لنا من غير طيب أنفسهم وإنما نحن أمناء" فأنزل الله: **{أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ}**.

قوله تعالى: **{أَوْ صَدِيقَكُمْ}** أي بيوت أصدقائكم وأصحابكم، فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك .

يقول قتادة رحمه الله تعالى: "إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه". وهذا كما قال الإمام ابن كثير بحيث لا يكرهون ذلك، أي أن ذلك يكون بالمعروف، فهذه رخصة من الله عز وجل في قوله تعالى: **{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً}** فهذه رخصة أن يأكل الرجل وحده على وجه الإباحة، والأكل مع الجماعة أفضل وأبرك كما جاء في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أن رجل قال لنبي صلى الله عليه وسلم إنا نأكل ولا نشبع، فقال: فلعلكم تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه) .

وقوله تبارك وتعالى: **{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ}** هذا لأجل الإباحة والأفضل الاجتماع على الطعام؛ لكنه ليس محرم أن يأكل الإنسان بمفرده .

يقول الله تعالى: **{فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً}** .

هنا اختلف العلماء في السلام على النفس ، ماذا يقصد به ؟

أتقن الإمام رحمه الله مجاهد يحمل الأقوال بقوله: "إذا دخلت المسجد فقل السلام على رسول الله، وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيت ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين" .

إذا السلام عند دخول المسجد، وعند الدخول على الأهل، وعند الدخول على بيت ليس به أحد، وهذا له علاقة في قوله تعالى: **{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ}** [الآية (٢٩) سورة النور] . فهذه تنمة لذلك المعنى، أي أنه إن لم يكن هنالك استئذان فلا بد من السلام وهذا ما بينته هذه الآية .

ويقول قتادة: "إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيت ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ فإنه كان يؤمر بذلك، وحديثنا أن الملائكة ترد عليهم" .

الهدايات :

- ١- رفع الحرج في الإسلام، وعدل الإسلام، والمساواة بين أتباعه، **{وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا}** الآية ، وأيضاً **{لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ}** هذا فيه عدل، كما في قول الضحاك أو كما في قول سعيد بن جبير.
- ٢- كرامة المؤمن عند الله وعنايته بالمرضى وذوي الاحتياجات الخاصة وأن المسلمين كالنفس الواحدة.
- ٣- العناية بالكلمة الطيبة وأثر السلام في البناء المعنوي للبيوت وترابطها، وحرص الإسلام على الاجتماع ونبذ الخلاف.

الحلقة (٣٠)

موضوع الحلقة : تفسير الآيات ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ من سورة النور .

الآيات :

قال تعالى: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لَّنْ شَيْئًا مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ**

رَحِيمٌ {٦٢} لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {٦٣} أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {٦٤} .

نلاحظ أن هذه الآيات كأغلب الآيات التي في سورة النور، تتحدث عن أدب الاستئذان ، ولكن هنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالخطب عظيم؛ لهذا نجد في هذه الآية {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ} الأصل أن المخالفة خالف الأمر، ولكن لما كان مختص بالرسول صلى الله عليه وسلم وكان الخلاف للرسول -صلى الله عليه وسلم- ضُمن هذا المعنى الخروج. فقال: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ} أي يخرجون عن أمره، فعُديت بحرف "عن" لأجل أن تُبين فظاعة هذا الأمر ولأجل أن تنفر عنه أشد التنفير .

✓ المفردات الغريبة :

■ قوله تعالى: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا} ماذا يعني بـ "اللواذ" ؟

قال ابن قتيبة : اللواذ أي من يستتر بصاحبه في استلاله ويخرج، يقال: "لاذ فلان بفلان إذا أستر به"، بمعنى كأنه يتخفى من جانبه أو من ورائه، يستتر به ويتدرع به، يجعله وقاية من رؤيته، فاللواذ مصدر لاوذت به ، فعل اثنين، ولو كان مصدر لذت لكان ليأذاً، إذا هو مصدر لاوذت من المفاعلة، لأنه يكون من اثنين من سائر ومستتر، والمقصود هو المستتر .

في هذه الآية {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} أدب أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إليه، فيقول الإمام بن كثير: "كما أمرهم بالاستئذان في الدخول كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف"، وهذا من إعجاز القرآن الكريم كيف أنه يأتي إلى الموضوع فلا يدع فيه شيئاً حتى يأتي عليه من أوله إلى آخره، فنحن إذا قرأنا هذه السورة مجتمعة من أولها إلى آخرها وجدنا موضوعاً كاملاً، وقضية الاستئذان قد استوفت بحذافيرها من مبدئها إلى منتهاها في أدق التفاصيل، وهذا قد لا يكاد يوجد في تشريع آخر إلا في تشريع الله عز وجل، يؤدب حتى في الانصراف، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ليست الأولى بأولى من الآخرة).

قال رحمه الله: "لاسيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلى الله عليه وسلم من صلاة الجمعة أو عيد أو جماعة أو اجتماع لمشورة أو نحو ذلك". وهو يشير إلى معنى الآية {عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ} ما المقصود بالأمر الجامع ؟

ذكر أنه يقصد به صلاة الجمعة أو صلاة العيد أو صلاة الجماعة أو اجتماع لمشورة ، كل هذه داخلية في معنى الجامع. أمرهم الله ألا ينصرفوا عنه والحالة هذه إلا باستئذانه ومشاورته، وإن من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين، يعني الذي يستأذن، لهذا قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} أي كاملو الإيمان، ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذن أحد منهم أن يأذن له إن شاء، ولهذا قال: {فَأَذْنِ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} إذا ما يتعلق بجلساء الرسول صلى الله عليه وسلم يتعين عليهم الاستئذان، وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فإن شاء أذن وإن شاء لم يأذن

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة) إذن السلام والاستئذان مقترنان سواء في الدخول أو في الخروج؛ فإذا كان الإنسان في حضرة أحد فعليه أن يأخذ بهذين الأديين، فقد مضى معنا أن الرجل إذا أراد أن يدخل بيت أحد أن يقول: السلام عليكم أودخل ؟ وهكذا إذا أراد أن ينصرف يستأذن ثم يسلم .

يقول الله تعالى: {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} .

قال الضحاك عن ابن عباس: كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظماً لنبيه صلوات الله وسلامه

عليه، قال : فقالوا: يا رسول الله يا نبي الله". وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير .

وقال قتادة : "أمر الله أن يُهاب نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يُجل وأن يُعظم وأن يُسود".

إذا {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} هذا فيه أدب مع الكبير، والرسول صلى الله عليه وسلم هو المعني بهذا، فأمرهم الله تعالى بهذا الأدب أن يُنادوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأن يُجلوه بأشرف الأسماء وبأحسنها، بلقب النبوة ووصف الرسالة وما شابه ذلك .

هذا القول الأول : أي لا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً، فالمقصود بالدعاء هنا المنداة، وهذا يشهد له من القرآن عدة آيات، منها قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)} [سورة البقرة] ، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)} إلى قوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)} وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)} . فهذا كله في أدب مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو القول الأول وهو رواية الضحاك عن ابن عباس .

القول الثاني : يُروى أيضاً عن ابن عباس حكاه ابن أبي حاتم يقول: "لا تعتقدوا أن دعائه على غيره كدعاء غيره؛ فإن دعائه مستجاب، فاحذروا أن يدعوا عليكم فتهلكوا". المعنى بالدعاء هنا: الدعاء المعروف، وهو دعاء الله عز وجل، يقول الله عز وجل: {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ} أي لا تعتقدوا أو لا تظنوا أو لا تحسبوا أن دعائكم مثل دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم، فدعاء الرسول دعاء مستجاب، وأما دعائكم فليس في قوة استجابة الله عز وجل لدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم، فدعاء الرسول دعاء نبي ودعائه مستجاب، وأما دعائكم فإنه قد يجاب وقد لا يجاب أو يدخر، أو لأي سبب من الأسباب أو أمر من الأمور مما يريد الله عز وجل ، ولهذا قال الله عز وجل: {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} فاحذروا أن يدعوا عليكم فتهلكوا .

وهذا فيه أدب لجلساء النبي صلى الله عليه وسلم وهو ألا يلجئوه إلى أن يدعوا عليهم، وأن يأخذوا بأحسن الأدب بحيث يدعوا لهم، وهذا هو المعنى الآخر، وذكر عن ابن عباس والله أعلم بأرجح القولين، ولكن يظهر أن القول الأول أظهر في الدعاء وأليق بالرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنه ليس من عادة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعوا على أصحابه، فإذا كان لا يدعوا أصلاً على المشركين! والرسول صلى الله عليه وسلم معروف بشفقتة ورحمته وعطفه على أمته وعلى الناس جميعاً، ويظهر أن القول الأول هو الأظهر، والقول الثاني قول صحيح؛ لأنه روي عن ابن عباس، وعن حسن البصري، وعطية العوفي، فهو قول وارد ومذكور، لكن أي القولين أرجح أو أنسب؟ نقول هو القول الأول ؛ لأنه هو المناسب لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وفيه آيات أخرى تشهد له وتعضده وهي الآيات السابقة .

يقول الله تعالى: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا} قال مقاتل بن حيان : هم المنافقون .

فإذن الآية الأولى مطلعها كان فيها امتداح لأهل الإيمان فقال الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} وهذا فيه ذم للمنافقين وتحذير لهم، فلماذا قال: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ} أي أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وهو سبيله وطريقته ومنهاجه وسنته وشريعته، وهو المقصود بكلمة أمره في الآية، وهكذا ذكرها ابن كثير رحمه الله المنهاج والطريقة والسنة والشرعية، كلها تعني أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول رحمه الله: "فتوزن الأعمال والأقوال بأعماله وأقواله، فما وافق ذلك قُبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان"، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) .

ويحذرهم الله أن تصيبهم فتنة ، فما هي هذه الفتنة ؟

هذه الفتنة كما قال ابن كثير : "أي تصيبهم في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة". إذن هي أحد ثلاثة أمور ، من يخالف أمر الرسول صلى الله عليه وسلم لا يخرج عن هذه الثلاثة: إما كفر ، وإما نفاق ، وإما بدعة.

{أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك .

ويختتم الله تعالى هذه السورة بهذا الختام العظيم، وفيه استهلال بـ {أَلَا إِنَّ لِلَّهِ} ، وفيه تنبه للسامع لأن يري سمعه لما سيأتي بعد "ألا"، فقال: {أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} يعني أن له الملك في السموات والأرض .

{قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ} هنا "قد" للتحقيق، كما في قول تعالى: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ} وقوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} وقوله: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ}.

{قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ} أي عالم به، مشاهد له، لا يعزب عنه مثقال ذرة، كما قال تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} يعني كمن ليس بقائم ، {أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}، وقوله تعالى {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠)} ، {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦)} [سورة هود] . هذه الآيات تدل على علم الله عز وجل وسعة علمه ومعرفته وعلمه سبحانه وتعالى بدقائق الأمور، وكل ما يكون وما كان، وما لم يكن ولو كان كيف يكون، سبحانه وتعالى، كل هذا يعلمه الله عز وجل، ونحن حينما نقول "قد" هنا للتحقيق، لأجل لا يتبادر للذهن أنها للتقليل؛ لأن "قد" تأتي بعدة معاني ، منها :

⇐ قد: التي تكون للتقليل، مثل : "قد يجود البخيل"؛ لأن البخيل في الأصل أنه يمسك المال ولكنه قد يجود، فهذه للتقليل .

⇐ وقد: التي تكون للتوقع، فنقول مثلاً: "قد يقدم الغائب" فهذه للتوقع، فقد يقدم وقد لا يقدم .

أما قوله تعالى: {قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ} فهذا للتحقيق، أي هو عالم به مشاهد له لا يعزب عنه مثقال ذرة .

قال الله عز وجل: {وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا} أي يوم ترجع الخلائق إلى الله عز وجل، وهو يوم القيامة {فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا} أي يخبرهم بما عملوه في الدنيا من جليل وحقيق وصغير وكبير، كما قال تعالى: {يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣)} [سورة القيامة] ، وقال سبحانه: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)}.

فهذه السورة سورة النور ونحن على مشارف توديعها من السور الكريمة، التي اشتملت على الآداب الأسرية التي تحتاج إليها الأسرة والتي يحتاج إليها المجتمع المؤمن، سواء في بيته أو في خارج بيته، مع ولي الأمر أو مع غير ولي الأمر، فهذه الآيات مثلاً التي نحن بصدددها وإن كانت تخص الرسول صلى الله عليه وسلم {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} إلا أن هذا يتناول المسئول الكبير وولي الأمر، وهو مثل ما يكون خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن يتولى أمر المسلمين من الأمراء والملوك والرؤساء فهؤلاء ينبغي أن يُخاطبوا على وجه فيه تقدير واحترام؛ لأجل ألا تسقط هيبتهم ومكانتهم في نفوس الناس، هنا نريد أن نوكد في ختم هذه الآيات إلى أن الأخذ بأدب الاستئذان دخولاً وانصرافاً يكون بالسلام فيهما أيضاً.

✓ الهدايات :

١- مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم وحقوقه ، وعُظم مقام النبوة سواء أكان في حياته أو بعد مماته، فإذا كانت هذه الآيات نزلت في تأديب المؤمنين الذين كانوا في محضر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه لا زال الرسول صلى الله عليه وسلم حياً بعلمه وبأقواله، فينبغي أن يأخذ بالأدب عند ذكر أقواله صلى الله عليه وسلم وعند ذكر شخصه بالصلاة والسلام عليه، عليه أفضل الصلاة والسلام، وباحترام ما يرد عنه من القول والتأدب بالأخذ به دون أي مواربة أو تنقص أو تهاون في هذا .

- ٢- أن الميزان في صحة الأعمال ما عليه أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، كما أسلفنا في الحديث (ما ليس عليه أمرنا فهو رد) .
- ٣- سعة ملكوت الله عز وجل وعلمه ؛ {قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ} فقد يخون الإنسان في استئذانه، وقد يتهاون أو يقصر في بعض الآيات والأحكام الواردة في هذه السورة، لكن الله عز وجل يعلم ما في هذه القلوب، ويعلم هذا النور وتلك الظلمة التي تكون في القلوب والتي لا يعلمها إلا الله عز وجل .

سورة الروم .

الحلقة (٣١)

موضوع الحلقة : تفسير الآيتين ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ من سورة الروم .

هذه الآيات تتحدث عن نوع من أنواع الربا ، يجهله كثير من الناس ، فالذي هو معروف عند الناس ربا النسيئة وربا الفضل، لكن هذه الآية تتكلم عن الربا من جهة أخرى .

الآيات :

قال تعالى: {فَاتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)} .

مادمنا بصدد الحديث عن الربا نريد هنا أن نؤكد على أن معاني القرآن الكريم لا ينبغي أن نقول بتفسيرها إلا بعد الرجوع إلى أهل العلم ، فلا ينبغي للإنسان أن يبادر وأن يتسرع في بيان معاني الآيات ويقول إن الله تعالى قد أراد بهذا المعنى كذا وكذا دون أن يتثبت من أقوال أهل العلم في هذا ، ونحن نعلم أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- فسر القرآن وفسره لأصحابه، وما جاء عن تفسير الصحابة وعن تفسير التابعين هو في الحقيقة من تفسير الرسول -عليه الصلاة والسلام- ؛ لأنه قد تقرر عند أصحاب الرسول -عليه الصلاة والسلام- وتابعيهم أنه لا يقال في القرآن بالرأي، وأن ما جاء عنهم وما ذكره في بيان آيات القرآن الكريم لابد أن يكون قد سمعوه من الرسول صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعوه من الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأنا أذكر لكم مثلاً معنى آخر قد يخفى على بعض الناس وهو قريب من معنى الربا، وهو قوله تعالى : {كَأَنَّهُمَا جَانٌّ} في قصة موسى في عصاه التي ألقاها ، كثير من الناس يظن أن الجان المقصود به هنا أنه الجن أو نوع من الجن ، في حين نجد أن المفسرين يجمعون إجماعاً تاماً على أن المقصود بالجان هو نوع من الحيات يقال له الجان، اسمه "الجان" ، وليس المقصود بالجان يعني أنها كالجني وأنها في سرعتها كحركة الجنى ليس هذا هو المراد ، وهذا الربا أيضاً هو من هذا القبيل، وإنما أردت أن أؤكد على هذا المعنى لأن بعض الناس ربما يستدل بهذه الآيات على تحريم الربا، فيقول : {وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ} والمعنى هنا يختلف كما سيأتي بيانه .

هذه الآية وهي قوله تعالى : {فَاتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ} لها علاقة - لأن الفاء هنا تفيد الترتيب والتعقيب - فهذه الآية لها صلة وطيدة بقوله عز وجل : {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧)} ، فالحديث إذن عن موضوع الرزق، وعن موضوع الإنفاق، عن تضيق الزرق وبسطه، ولهذا جاء بعد هذه الآية {فَاتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ} أي أنه إذا كان الله عز وجل هو الذي يبسط الرزق وهو الذي يعطي وهو الذي يمنع، فإنه هو الذي أمر أن تؤتي

ذوي القربى حقوقهم ؛ إنما أنت مستخلف، وأنت سبب يريد الله تعالى أن يبتليك وأن ينظر كيف تعمل في هذا المال، هل تهبه لأصحابه أم أنك تمسكه وتضمن به ؟!

فقال الله تعالى : **{فَاتِ}** أي أعط .

{ذوي القربى حقهم} : أي حقهم من البر والصلة، ويكون هذا بالإحسان ، وبذل المعروف ، وبذل المال وما يكون من حقهم من الهدية ومن الصدقة ومن الزكاة ، ونحن نعلم أن الصدقة أو الزكاة على القريب أولى من البعيد ، طبعاً القريب ليس من فروع الميت أو من أصوله؛ لأن هذا تجب عليه النفقة ، لكن غيره كالإخوة وكالأعمام والأخوال وبني العمومة وبني الخؤولة ونحوهم؛ هؤلاء الأولى أن يقدموا على غيرهم إذا كانوا في حاجة؛ لأنها فيها صدقة وفيها أيضاً صلة، وكثير من الناس يتحفظ عن هذا الأمر فلا يدفع زكاته مثلاً لإخوانه المحتاجين ممن لا تلزمه نفقتهم، أي ممن لا يأكلون ويشربون معه في بيته، فيتخرجون من هذا ، نعم لا يجوز للشخص أن يتملص من النفقة الواجبة بالزكاة، لكن إذا كان له قريب لا يسكن معه وهو بحاجة إليه من أعمامه أو إخوانه أو إخوته أو أحد أصهاره وأنسابه؛ فإنه ينبغي أن يقدمه على غيره في إعطائه الحق؛ لأنه يرى هذه النعمة في قريبه فهو أولى في الحقيقة من الأبعدين .

يقول الله تعالى : **{وَالْمَسْكِينِ}** هو الذي لا شيء له ينفق عليه ، أو له شيء لا يقوم بكفايته هذا نوع آخر .

{وَابْنِ السَّبِيلِ} هو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره .

{ذَلِكَ} أي إيتاء ذوي القربى حقوقهم والمساكين وأبناء السبيل .

{خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ} أي النظر إليه يوم القيامة، وهذا هو الغاية القصوى في الثواب ، وهو المزيد، وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله : **{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخُسْفَى وَزِيَادَةً}** فالخسنى هي الجنة ، والزيادة هي رؤية الله عز وجل .

وهنا نجد أن الجزء من جنس العمل، فإن هؤلاء قد نظروا إلى غيرهم فنظر الله إليهم عز وجل، نظروا إليهم نظر شفقة وإحسان فكان حقهم وكان جزاؤهم من الله عز وجل أن يمنحهم رؤيته، وليس نعيم أعظم من هذا النعيم . نسأل الله تبارك وتعالى أن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم .

يقول الله عز وجل : **{وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لِيَرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ}** المقصود بالربا هنا هو الهدية .

يقول الإمام ابن كثير : " أي من أعطي عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا ثواب له عند الله . " بمعنى أنك تهب إنساناً شيئاً حسياً أو معنوياً فتريد منه أن يعوضك بمثله أو بأكثر من المثل، فهذا قال الله عز وجل : **{فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ}** أي أن الله لا يكافئ عليه، أي أنه لا ثواب عليه عند الله عز وجل، إذا كان قصدك أن تهب إنساناً أو تفعل خيراً لآخر لأجل أن يقابلك بهذا فهذا لا ثواب له ؛ والذي له الثواب هو الذي قدم معروفاً إلى الغير ينتظر جزاءه من الله عز وجل، لهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : **{لقد كدت ألا أتهب إلا من قرشي أو ثقيفي}** لأن غيرهم من العرب كانوا إذا وهبوا إنساناً شيئاً ما فإنهم ينتظرون منه أن يهب لهم مثله أو أحسن منه .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله : "إلا أنه قد نهي عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة" ، **قَالَ الضَّحَّاكُ** واستدل بقوله : **{وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦)}** . أي لا تعط العطاء تريد أكثر منه" .

يعني أن هذا النهي خاص بالرسول صلى الله عليه وسلم، هذا على ما قاله الإمام الضحاك رحمه الله، ومعناه أن غير الرسول صلى الله عليه وسلم يباح لهم أن يفعلوا أو أن يقدموا لغيرهم هبة أو هدية على سبيل المعاوضة أو على انتظار المعاوضة، لكن لا ينتظر ثوابها من الله عز وجل .

يقول: هذا أمر مباح، وإن كان خاص بالرسول صلى الله عليه وسلم، يعني أنه لمكانته عليه الصلاة والسلام فإنه يعطي العطاء لا

ينتظر له مقابل ، لكن غيره إذا انتظر له مقابل فإنه يجوز له هذا الأمر على وجه الإباحة، لكنه لا ثواب له من الله عز وجل، أما إذا كان قدّمه يريد الثواب من الله، فهذا ما بينته تنمة الآية في قوله تعالى : {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} .

يقول ابن عباس رحمه الله : الربا رباءان ، فربا لا يصح -يعني ربا البيع- ، وربا لا بأس به وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها، ثم تلا هذه الآية {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ} .

إنما الثواب عند الله في الزكاة ولهذا قال تعالى : {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} أي الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء ، كما في الصحيح (وما تصدق أحد بعدل ثمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه فيربها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله، حتى تصير التمرة أعظم من أحد) .

فإذن قوله عز وجل : {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} أي الذين يضاعف لهم الثواب . فالزكاة حينما تقدم فإنه لا يجوز أخذ العوض عليها، ولهذا جاء في الأثر "كل قرض جر نفعا فهو ربا". فمن يتصدق بصدقة ويؤدي زكاة فإنه لا ينتظر من غيره أدنى نفع، ولا حتى وجه التقدير أو الاحترام أو بذل أي شيء معنوي؛ لأن هذا حق لصاحبه أعني الفقير والمحتاج ، فهذا هو الذي يضاعفه الله عز وجل ورتب عليه المثوبة والجزاء .

❖ الآية التالية يقول الله عز وجل فيها : {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)} .

يقول الله عز وجل : {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} أي هو الخالق الرازق، يخرج الإنسان من بطن أمه عريانا لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوة، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك، والرياش واللباس والمال والأموال والمكاسب كما قال الإمام أحمد وذكر حديثا في هذا المعنى .

يقول الله عز وجل : {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} أي بعد هذه الحياة . {ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} أي يوم القيامة .

وهذا ذكره بعد الآية الأولى في قوله تعالى : {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} فيه تذكير للإنسان بمبدئه ومصيره، فإذا عرف الإنسان مبدأه، فإن هذا يعرفه قيمة النعمة التي أسداها الله عز وجل إليه، وقدر ما وهبه الله عز وجل وأعطاه من غير نول ومن غير أن يريد منه مقابل، كما قال الله تعالى : {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)} . فإذا عرف الإنسان أن الله عز وجل كذلك، فإنه يحفزه هذا على أن يشكر نعمة الله عز وجل، وأن يبذل الخير وأن يبذل المعروف دون أن ينتظر نولا من أحد . يقول الله عز وجل في تمام هذه الآية : {هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ} أي الذين تعبدون من دون الله . {يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ} أي من الإحياء ومن الإماتة .

قال المفسر رحمه الله : "أي لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة، ولهذا قال بعد هذا كله {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} أي تعالى وتقدس وتنزه وتعظم" ، إذن هي تتناول التقديس والتنزيه والتعظيم ، كل هذا يدخل في {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى} .

ويدخل في قوله تعالى : {عَمَّا يُشْرِكُونَ} تنزيه الله عز وجل عن الشريك والنظير، أو عن النظير والمساوي والولد؛ لأن الشريك يتناول هذه الأشياء سواء كان نظيراً أو مساوياً أو ولداً ، كل هذا نزه الله تعالى نفسه عنه فقال : {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} .

✓ الهدايات :

- ١- عناية الإسلام بالبر والصلة لذوي القربى ، وهذا نجد سواء في الآيات المكية أو الآيات المدنية، هذه السورة من السور المكية التي تحدثت عن قضايا العقيدة وعن قضايا الخلق والبعث من مبدأها إلى منتهاها ، ومع هذا فإنها قد تناولت موضوع النفقة ، ونجد في أول سورة نزلت في المدينة وهي سورة البقرة وهي أطول سورة تحدثت أيضاً عن موضوع الإنفاق في أولها {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣)} ، ونجد أيضاً هذا في سورة إبراهيم وهي من السور المكية أيضاً {قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً} [، فهذا كله يدل على عناية الإسلام بهذا الموضوع وصرفه لمستحقه ، وفيه اهتمام بجانب التكافل الاجتماعي وأن هذا عمادة أساس في نمائه وترابطه .
- ٢- عظم مثوبة المحسن وهو النظر إلى الله يوم القيامة ، إذ نظر إلى المستضعفين وقام بحقوقهم .
- ٣- تفضل الله عز وجل على خلقه بالخلق والرزق والإمامة والإحياء ، وتفرد سبحانه وتعالى بذلك ، تعالى وتنزه عن الشريك والنظير والشبيه والمثيل .

سورة الأحزاب

الحلقة (٣٢)

موضوع الحلقة : تفسير الآيتين ٤ ، ٥ من سورة الأحزاب .

✓ الآيات :

قال تعالى : { مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥) } .

✓ الموضوع العام للآيات :

هذه السورة تناولت قضية مهمة وهي ما يتعلق بالتبني في الإسلام ، وأرادت أن تعالج هذه القضية في آياتها الكريمة في أكثر من موضع، وهذا هو التمهيد للحديث عن هذه القضية الاجتماعية الخطيرة التي لها جذور وعلاقات وتشعبات متصلة بالأنساب وبالحقوق المالية من التوريث وغير ذلك من تبعات التبني، فجاء الإسلام ليعطي حكماً واضحاً ورؤية ناصعة لهذه القضية الشائكة التي تخبط فيها العرب، وجاء قول الله عز وجل : { وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ } .

ومن عادة القرآن أن يمهد لهذه القضية بجمل أو بآيات، نلاحظ أن قوله تعالى : { وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ } مُهد له بقوله تعالى : { مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ } .

يقول ابن كثير : " يقول تعالى موطناً قبل المقصود المعنوي أمراً حسياً معروفاً، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله (أنت علي كظهر أبي) أمّاً له ؛ كذلك لا يصير الدعي ولداً للرجل إذا تبناه فدعاه ابناً له " .

وإذا كان هذا التمهيد لموضوع هذه القضية، فإن الحديث سيكون مباشراً عنها حينما نصل إليه عند قول الله عز وجل : { مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ } [الآية (٤٠) سورة الأحزاب] ، وعند قوله أيضاً قبل ذلك : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا

مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} [الآية (٣٦) سورة الأحزاب] .

يقول الله عز وجل : {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ} حكم الظهار بينه الله عز وجل في سورة المجادلة عند قوله تعالى : {مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا} [الآية (٢)] ، وأما قوله تعالى : {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ} فهذا هو المقصود بالنفي ، وهذا مثل قوله عز وجل : {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدُّ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا} [الآية (٧٥) سورة آل عمران] فالمقصود هو ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك ، ومثله قوله تعالى : {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [الآية (١٤٧) الأنعام] . أي فإن كذبوك فقل لا يرد بأس الله عن القوم المجرمين، لكن {فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ} جاء معترضا ، أي وإن كان ذو رحمة واسعة فإنه أيضًا لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، وهذا كثير في كلام العرب وفي القرآن الكريم .

يقول الله عز وجل : {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ} قال الإمام ابن كثير : "هذا هو المقصود بالنفي، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة مولى النبي صلى الله عليه وسلم، كان النبي صلى الله عليه وسلم قد تبناه قبل النبوة ، وكان يقال له زيد بن محمد، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق" . وليس الأمر ينتهي عند التسمية فقط، لكنه أيضًا يكون فيه التوريث، ويكون له أيضًا ما يتعلق بأمر الحجاب، وكل هذا قلنا إنه من التبعات ومن لوازم موضوع التبني .

قال الله عز وجل : {ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ} أي تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابنا حقيقياً ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان .

{وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ} الحق هنا هو العدل ، والسبيل هنا هو الصراط المستقيم .

✓ سبب نزول هذه الآية :

هذه الآية كما يذكر غير واحد من المفسرين أنها لها أكثر من سبب نزول ، ابن كثير -رحمه الله- ذكر ثلاثة أسباب من أسباب نزول هذه الآية .

الأول : عن مجاهد والحسن وغيرهما قال : "نزلت في رجل من قريش كان يقال له ذو القلبين ، وأنه كان يزعم أن له قلبين كل منهما بعقل وافر فأنزل الله هذه الآية ردًا عليه" .

الثاني : عن الإمام أحمد بن حنبل عن قابوس بن أبي ظبيان أن أباه حدثه، قال : قلت لابن عباس أرايت قول الله تعالى : {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} ما عني بذلك ؟ قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما يصلي، فخطر خطرة، فقال المنافقون الذين يصلون معه ألا ترون أن له قلبين قلبًا معكم وقلبًا معهم، فأنزل الله {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} . الخطرة هنا المقصود بها الوسوسة .

الثالث : عن عبد الرزاق عن معمر بن الزهري قال : "بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة ضُربَ له مثل يقول ليس ابنُ رجل آخر ابنك" . كذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد قال : أنها نزلت في زيد بن حارثة ، وهذا يوافق ما قدمناه في التفسير . يعني أن ابن كثير يرجح هذا، يرجح أن الآية نزلت في زيد بن حارثة، وهذا في الحقيقة هو الأوفق أيضًا لموضوع السورة لاسيما أنها تتعلق بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم- ، لأن موضوعات السور منها ما هو يتناول الرسالة وصاحبها عليه الصلاة والسلام، ومنها ما يتناول اليوم الآخر وما يتصل به من البعث والنشور، ومنها ما يتعلق بموضوع الأخلاق ، فهذه كلها موضوعات من الموضوعات التي يهتم القرآن بتناولها، ولاشك أن موضوع التوحيد هو أحد الموضوعات الأساسية التي تختص السور بها، كما في

سورة الإخلاص والكافرون .

إذن لعل الأرجح من هذه الأسباب الثلاثة هو قول الزهري، وهو أيضًا مروي عن مجاهد، وقتادة، وابن زيد، أنها نزلت في زيد بن حارثة .

قوله تعالى : **{ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ}** "هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب - وهم الأديعاء- ، فأمر الله تعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة وأن هذا هو العدل والقسط ." انتهى كلام ابن كثير رحمه الله .
إذن الآية نسخت أمرًا واقعًا بين الناس وكان أيضًا في الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، وشريعة الإسلام هنا أتت لأجل أن تنزع هذا المبدأ وهذا الادعاء، تنزعه من جذوره، فقصدت بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قدوة هذه الأمة وقائدها.
هنا يذكر الإمام ابن كثير حديث فيما يتعلق بالأديعاء أو المتبنين قال : "قد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل جهة في الخلوة بالمحارم وغير ذلك" - وهذا ما قلنا إنه ما يتعلق بتبعت التبني من التوريث والحجاب والمحارم وما إلى ذلك - "ولهذا قالت سهلة بنت سهل امرأة أبي حذيفة : يا رسول الله كنا ندعو سالمًا ابنا، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل علي وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئًا، فقال صلى الله عليه وسلم : **(أرضعيه تحريمي عليه)** . وهذا الأمر خاص بسالم مولى حذيفة، خاص به لا يقاس عليه، فلا يرضع الكبير؛ لأن هذا أمرٌ كما نص عليه العلماء يختص بنازلة معينة محددة لا يقاس عليها .

أما ما يتعلق بالابن الذي يكون من الرضاعة الذي يُرضع في الحولين، فهذا بمنزلة الابن الصلب شرعًا، كما جاء في الحديث **(يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب)** ، فأما دعوة الغير ابنًا على سبيل التكريم والتحبیب، فليس مما نهي عنه في هذه الآية.
يعني كون الإنسان ينادي تلميذه بابنه، أو ينادي الابن الصغير بابنه، يا بني، يا ولدي، هذا قد تجوز فيه العلماء وأجازوه؛ لأنه ليس المقصود به التبني وإنما المقصود به التلطف في التعبير وهذا من مبادئ الإسلام السامية، فلهذا جاء في أحاديث كثيرة أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- دعا أكثر من صحابي بـ "يا بني"، فهنا مثلاً حديث أنس رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(يا بني)** رواه أبو داود والترمذي ، وقال لزيد : **(أنت أخونا ومولانا)** وهذا عند قوله عز وجل : **{فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ}** أي إنه يستحب أن ينادى من كان بهذه المثابة أي ممن تُبني أن يدعى بالأخ أو بالمولى .

قال الإمام ابن كثير : " أمر تعالى برد أنساب الأديعاء إلى آبائهم إن عُرِفوا، فإن لم يَعْرِفُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُهُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيهِمْ، أي عوضًا عما فاتهم من النسب ."

وهنا يسوق الإمام ابن جرير حديثًا يذكره عنه ابن كثير عن عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه قال: قال أبو بكر: قال الله عز وجل : **{ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ}** فأنا ممن لا يعرف أبوه وأنا من إخوانكم ، وجاء في الحديث **(من ادعى لغير أبيه، وهو يعلمه، كفر)** وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد كما ذكر الإمام ابن كثير -رحمه الله- .

ثم قال الله عز وجل : **{وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ}** أي إذا نسبتهم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع ، فإن الله قد وضع الحرج والخطأ ورفع إثمه، كما أرشد إليه في قوله أمرًا عبادة أن يقولوا **{رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}** [الآية (٢٨٦) سورة البقرة] ، وفي الحديث الآخر : **(إن الله رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما يكرهون عليه)** وهذه عادة القرآن ، وهذه هي سمة شريعة الإسلام، أنها تضع الحرج وتخفف عن الناس وترفع عنهم الآصار لأجل أن تشجعهم وتحفزهم على الأخذ بالأحكام الأصلية والأساسية؛ لأن الله تعالى حينما شرع هذه الشرائع لم يكن ليشق على الناس ولا ليريد

بهم المشقة والحرَج؛ وإنما أراد بهم رحمةً من عنده وأراد بهم لطفًا وأن ينظم حياتهم ومعاشهم، فإذا وقع شيء من هذا على وجه الخطأ فإن الله تعالى غفور رحيم .

هنا يذكر الإمام ابن كثير عند قوله تعالى : {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} قال : إنما الإثم على تعمد الباطل، كما قال الله تعالى : {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} ، وفي الحديث المتقدم (من ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر) ، وفي القرآن المنسوخ {فإن كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم} ، هذا من القراءات الشاذة أي مما كان جائزًا قبل العرضة الأخيرة ، كانت هنالك بعض القراءات التي رويت وكانت معدودة من القرآن لكنها الآن لا يُتعبد بها ولا تعد من القرآن ؛ لأنها قد نسخت بما جاء وبما ثبت في العرضة الأخيرة .

الحقيقة أن هذه الآيات العظيمة التي تناقش قضية التبني تشير إلى حكمة الإسلام في معالجة هذه القضية، حيث عالجها بالحكمة والموعظة والأسلوب المقنع؛ لأن الله تعالى استهل هذا الموضوع بهذه التوطئة التي سبقت في أول هذه الآيات {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ} كل هذا يشير إلى أنه ينبغي للإنسان إذا أراد أن يقرر حكمًا أو أن يقضي بشيء أن يمهد له وأن يبين وجهته؛ لأن هذا أدعى لقبوله، ولهذا جاءت هذه الآيات على هذه النسق لتربي الناس وتربي المسلمين على حسن الحوار وطرق الإقناع .

هنا نجد طريقة الإسلام في المحافظة على الأنساب وضبطها ، وهذا واحد من أساليب الإسلام في ضبط الأنساب والمحافظة عليها، وشريعة الإسلام واضحة في موضوع المحرمات. وقد مضى شيء من هذا في بعض آيات سورة النور وسيأتي أيضًا منه في آيات سورة الأحزاب .

وهذه الآيات تفيد حكم التبني وأنه لا يجوز أن يدعى شخص إلى غير أبيه مهما كان الأمر، وبعض الناس يتهاونون في هذا الأمر، حتى إن الطفل ربما يشب ويكبر ويظن الناس أنه ابن فلان، وهذا لاشك أنه مخالفة صريحة لهذه الآية .

الحلقة (٣٣)

موضوع الحلقة : تفسير الآية (٦) من سورة الأحزاب .

الآيات :

قال تعالى : {الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦)} .

هذه الآية تبين مكانة النبي -صلى الله عليه وسلم- وما له من الحقوق ، وما لأزواجه أيضًا من الحقوق ، وما للأرحام بعضهم على بعض من الحقوق أيضًا .

وهنا يستهل الإمام ابن كثير تفسير هذه الآية بقوله: "قد علم الله تعالى شفقة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على أمته ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيه مقدمًا على اختيارهم لأنفسهم".

{الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} : أي أنه له الأولوية وله الحق قبل حق أي مسلم، وإذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم أمرا فإنه يقدم على حظوظ الإنسان وعلى رغباته وعلى شهواته، وهذا شبيه بقول الله عز وجل : {لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الوحي الثاني، وهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، وهذا كما قال الإمام ابن كثير

من شفقتة على أمتة؛ لأن ما يراه الرسول صلى الله عليه وسلم لأمتة هو انفع لهم مما يرونه لأنفسهم .

ولو أدرنا مثالا على هذا لوجدنا أن التاريخ مليء بالشواهد الدالة على ذلك، ولعل أنصح الأدلة وأوضحها وأصدقها برهاناً ما يتعلق بصلح الحديبية الذي كان يظن الناس أنه تميل كفته إلى الكافرين، لكن بعد أن مرت الأيام تبين وظهر حق اليقين وهو أن ما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم من عقد الصلح وما فيه من الشروط كان في صالح المؤمنين وكان لصالح الأمة الإسلامية، فقد دخل الناس في دين الله أفواجا بعد ذلك، وتفرغ الناس وتفرغ أهل العلم وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لنشر العلم حتى إذا قويت شوكتهم وأذن الله تعالى لهم أن يدخلوا مكة فاتحين، كان لهم ما أرادوا .

يورد المؤلف ابن كثير -رحمه الله- عدة أحاديث تؤيد أو تبين معنى ما جاء في قول الله تعالى : **{التَّيِّ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}** ومنها :

ما جاء في الصحيح (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين) .

وفيه أيضاً أن عمر -رضي الله عنه- قال : "يا رسول الله والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي" ، قال : (لا يا عمر حتى **أكون أحب إليك من نفسك**) فقال : "يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي" ، فقال : (الآن يا عمر) أي الآن كمل إيمانك ، وتمت محبتك .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال : (ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، **اقرأوا إن شئتم {التَّيِّ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}** فأني ما مؤمن ترك مالا فليتره عصبته من كانوا ، فإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاة) .

وعن جابر بن عبد الله، عن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : (أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، فأني ما رجل مات وترك ديناً فإلي، ومن ترك مالا فلورثته) . فانظروا هنا إلى شفقة الرسول صلى الله عليه وسلم على أمتة في هذه الأحاديث، فما كان عليهم وما كان يؤخذ منهم فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تولى القيام به ، وهذا طبعاً يكون من بيت مال المسلمين فيما بعد ، بينما ما كان من حظوظ الدنيا من الإرث فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لشفقتة أيضاً ولرحمته بهؤلاء الورثة ربما كانوا قصراً فإنه قد أبقاء لهم مع أنه هو أولى بكل شيء، إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم ولا شيء أغلى من النفس فما عدا ذلك من المال ومن المتاع هو دون هذه النفس .

بعد أن بين الله عز وجل ما للنبي -صلى الله عليه وسلم- من المكانة والشفقة والحقوق؛ بين ما لأزواجه، فقال : **{وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ}** معناه **يقول ابن كثير** : "أي في الحرمة ، والاحترام ، والإكرام ، والتوقير ، والإعظام" ، إذن هي عدة معاني: الحرمة ، والاحترام ، والإكرام ، والتوقير ، والإعظام .

"ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع" . بمعنى هذا ليس كحرمة الرضاعة أو ليس كحرمة النسب؛ وإنما هي حرمة مكانية وشرفية لأزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- ، فليس معناه مثلاً أن بناتهن في هذه الحالة يكن مثلاً إخواناً للمؤمنين ، طبعاً وليس للرسول صلى الله عليه وسلم من البنات إلا من خديجة رضي الله عنها كما سيأتي بيانه إن شاء الله ، ولا ينتشر أيضاً التحريم كما ذكر مثل ما ينتشر في الرضاعة .

ولهذا يقول -رحمه الله- : "وإن سمي بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين كما هو منصوص عن الشافعي ، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم" . بمعنى أن ما جاء من هذه التعبيرات مثل قولهم مثلاً معاوية خال المؤمنين حيث أنه أخ لأم حبيبة زوج النبي -صلى الله عليه وسلم- كل هذا هو من باب -كما قال ابن كثير- إطلاق العبارة لا إثبات الحكم ، وعلى أن هذا اختلف فيه، أن يقال مثلاً هذا هو خال المؤمنين .

فيقول رحمه الله : "وهل يقال لمعاوية وأمثاله خال المؤمنين" ؟

فيه قولان للعلماء ، ونص الشافعي على أنه يقال ذلك .

وهل يقال لهن : أمهات المؤمنات فيدخل النساء في جمع المذكر السالم تغليبا ؟

فيه قولان: طبعاً كما سيأتي معنا عند قوله : { **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** } سيأتي أن كل ما يطلق على الرجال يصدق على النساء ، وإنما التخصيص يأتي لأجل سياق معين أو لسبب نزول معين ، وإلا ما في القرآن من آية إلا وهي تتناول الرجال والنساء من الأحكام إلا ما كان مختصاً بالنساء مما يتعلق بأمور الطلاق والنكاح والعدة وما شابه ذلك ، فيجوز أن يقال أمهات المؤمنين أو أمهات المؤمنات .

يبقى أيضاً هل يقال للنبي -صلى الله عليه وسلم- أبو المؤمنين ؟

عن ابن عباس وأبي بن كعب أنهما قرعا { النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم } قال الرسول -صلى الله عليه وسلم- : (**إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم**) . فهذه الإطلاقات عند بعض العلماء جائزة ، وحين نقول بجوازها فإن هذا على وجه إطلاق التعابير فقط ، لا على أنها أحكام ويتولد منها ما يتعلق بالإرث والحرمة والحجاب وهذه الأحكام المتصلة مثل الخلوة وما يتعلق بأمور المحرمات ، من قال بالجواز فإنه لا يمكن أن يقول بمثل هذا ، وإنما يقول فقط بجواز إطلاق العبارة . وهناك رأي آخر للعلماء يرى أنه لا يجوز أن يقال مثلاً خال المؤمنين ولا نحو هذه العبارات ، فهذا يقول الإمام ابن كثير : " والوجه الثاني ألا يقال ذلك واحتجوا بقوله : { **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ** } " .

هذا القول الآخر هو من باب سد الذرائع أو من باب التحفظ أو من باب الورع ، لكن يبدو أن الأمر فيه سعة ما دام أنه فقط مجرد إطلاق عبارة لا يترتب عليه أحكام ، ولا سيما أنه قد وردت النصوص بهذا في قوله : { وهو أبٌ لكم } وقوله : (**إنما أنا لكم بمنزلة الوالد**) وما شابه ذلك .

بعد أن بين الحق عز وجل ما لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم من المكانة بين ما لأولي الأرحام بعضهم من بعض من الحقوق أيضاً ، فقال : { **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ** } أي في حكم الله ، وهذا يرد كثير أن الكتاب يطلق على الحكم كما في قوله تعالى : { **فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ (٣)** } أي : أحكام قيمة .

يقول : { **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ** } : أي أولى من القربات ، أولى بالتوارث ؛ لأنه كان في أول الهجرة كان يتوارث المسلمون بعضهم من بعض بالأخوة التي آخى فيها الرسول -صلى الله عليه وسلم- بين المهاجرين والأنصار ، لكن هذا كان في أول الأمر ثم نسخ بهذه الآية ، قال ابن كثير : " وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف ، والمؤاخاة التي كانت بينهم ، كما قال ابن عباس : كان المهاجري يرث الأنصاري دون قرابته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، وكذا قال سعيد بن جبير وغير واحد من السلف والخلف " .

عن الزبير بن عوام قال : " أنزل الله عز وجل فينا خاصة معشر قريش والأنصار { **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ** } وذلك أننا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا فوجدنا الأنصار نعم الإخوان ، فواخيناهم ووارثناهم فوآخى أبو بكر خارجة بن زيد ، وأخى عمر فلانا ، وأخى عثمان بن عفان رجلاً من بني زريق سعد الزرقي ، ويقول بعض الناس غيره ، قال الزبير : وواخيت أنا كعب بن مالك فجئته فابتعته فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى ، فوالله يا بني لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة فرجعنا إلى موارثنا " .

أي أن هذه الآية وهي { **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ** } هي الناسخة لما كان عليه عمل المهاجرين والأنصار في أول الهجرة .

يقول الله عز وجل : **{إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا}** إذن أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فيما يتعلق بالتوارث، بعضهم يرث بعض .

لكن هل هنالك إرث فوق ما فرضه الله عز وجل في سورة النساء ، أو فوق أصحاب الفروض والعصبات ؟

هذه الآية تشير إلى شيء من هذا، وهي قوله تعالى : **{إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا}** ونحو هذا قول الله عز وجل : **{وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨)}** وهذا من يسر الإسلام وسماحته؛ لأن القريب الذي لا يرث أو يحجب لأي سبب من الأسباب أو من يحضر هذه القسمة ويرى هذا الخير فلا مانع أن يُمنح بما تطيب به أنفوس الناس-أي الورثة- فيعطونه ما تيسر، ولهذا قال: **{وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ}** ومنه أيضًا **{إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا}** فلا بأس أنه يكون هنالك شيء من السماحة والتيسير في مثل هذه الأمور، لكن طبعًا بالمعروف وبرضا أهل الإرث .

يقول ابن كثير : " ذهب الميراث وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية " . وما ذكرته لكم هو واحد من وجوه المعروف الذي أشارت إليه هذه الآية، وأما الوجوه الأخرى فهي هذه التي ذكرها الإمام ابن كثير من والنصر والبر والصلة والإحسان والدعاء والوصية كما قال، وبذل الخير والإحسان في القول والشفاعة وما إلى ذلك، كل هذا ينبغي أن يتواصل الناس فيه وأن يخدم بعضهم فيه بعضا .

يقول الله عز وجل : **{كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}** أي هذا الحكم، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدل ولا يغير، بمعنى أن الله عز وجل حينما فرض هذا الفرض فإنه لم يكن فرضًا مستحدثًا، وإنما هو عند الله عز وجل وفي علمه وفي كتابه الأول وهو الكتاب المحفوظ الذي قدر الله تعالى فيه المقادير وكتب فيه كل شيء سبحانه وتعالى ، وأن هذا بحكمة الله عز وجل وبقدرته وتدبيره، وما يكون من ما يسبق ذلك من الأمور المنسوخة فإنها أيضًا من حكمته وتدبيره، فقد أذن الله تعالى ورخص فيها لوقت معين يقتضيه الأمر ثم جاءت هذه الآية وأمثالها من الآيات الناسخة ليبقى الحكم ما بقيت هذه الآيات وما بقي الإسلام؛ لأنها هي التي سيكون فيها النفع وسيكون فيها الخير للأمة من بعد ذلك .

✓ الهدايات :

١- حقوق المصطفى -صلى الله عليه وسلم- وحقوق القرابات فيما بينهم ، وحقوق أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- ومكانتهم .

٢- تشير الآية إلى منزلة الأحكام الشرعية ، وأنها ينبغي أن يُعرف مصدرها ، لأن الله عز وجل هنا أشار إلى مصدرها، فإذا عرف الإنسان أن المشرع هو الله عز وجل وأنه هو الذي كتب هذا وقدره وأمر به ودبره، فإن هذا يكسب هذا الأمر أهمية وتعظيمًا، لهذا الأمر بالقيام به واحتساب الأجر فيه، وهذا يشمل كل أمر أمر الله عز وجل به، ويشمل أيضًا كل نهي نهى الله عز وجل عنه

الحلقة (٣٤)

موضوع الحلقة : تفسير الآيات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ من سورة الأحزاب

وهي تتحدث عن بيت النبوة ، عن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فأصغوا إليها ، وارعوا لها سمعا .

الآيات :

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا } .

حينما يكون الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأزواجه ، وحينما يتردد ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فلا ننسى أن نصلي عليه ، فإن الصلاة عند ذكره واجبه ، ونترضى على أزواجه أمهات المؤمنين ، ونقتبس الثور ؛ لأنه يشع من بيت النبوة ، وفيه الصلاح والهداية لكل من أراد أن يبني بيتاً سعيداً .

سبب النزول :

هذا أمر من الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يُخَيِّرَ نساءه ، وهذه هي " آية التخيير " الشهيرة التي يُخَيِّرُ الرسول صلى الله عليه وسلم فيها أزواجه بين :
 ١ - أن يبقين معه على شظف العيش ، وضيق الحياة ، وقلة المأكل والمشرب ، وعلى الزهد ، وعلى ما تيسر من متاع ؛ مما تقوم به حياته .

٢ - أو أن يُسَرِّحَهن عليه الصلاة والسلام سراحاً جميلاً ؛ أي يُطَلِّقَهن .

فإنما أن يصبرن على ما عنده من ضيق الحال ولهن حينئذ الثواب الجزيل ، وإنما أن يخترن متاع الحياة الدنيا وزخرفها ، وحينئذ لا مكان لهن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة ؛ منها : عن الزهري ، قال : أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن ، أن عائشة رضي الله عنها - زوج النبي صلى الله عليه وسلم - أخبرته : (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَ حِينَ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّرَ أَزْوَاجَهُ ، فَبَدَأَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : (إِنِّي ذَاكِرًا لَكَ أَمْرًا فَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَعْجِلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبُوبَكَ) - وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه - قالت : ثم قال : (وَإِنَّ اللَّهَ قَالَ : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ }) إلى تمام الآيتين . فقلت له : ففي أي هذا أستمُر أبوي ؟! فأني أريد الله ورسوله والدار الآخرة ، قالت : ثم فعل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت .

وفي بعض الروايات : قالت : فأني أريد الله ورسوله والدار الآخرة ، ولا أوامر في ذلك أبوي ؛ أبا بكر ، وأم رومان - وأم رومان هي أم عائشة رضي الله عنها - . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم استقرأ الحُجُرَ ، فقال : (إِنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ كَذَا وَكَذَا) فقلن : ونحن نقول مثل ما قالت عائشة - رضي الله عنهن - .

قالت عائشة - في بعض الروايات - : أفيك أستمُر أبوي ؟! بل أختار الله ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت ! فقال : (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنَّافًا ، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مَيَّسَرًا ، لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةً مِنْهُنَّ عَنْ مَا اخْتَرْتُ ؛ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا) .

المسائل:

✓

الأولى: نلاحظ في هذه الأحاديث أهمية الشورى ، والوضوح الذي يكون في البيت . حينما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يُخَيَّرَ ، فلم يدع واحدة من أزواجه عليه الصلاة والسلام إلّا وبين لها ؛ كما قال الحديث ؛ استقرأ الحُجْرَ ؛ يعني حُجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا شك أنّ الرسول الله صلى الله عليه وسلم يُقرّر في هذا مبدأً ؛ وهو مبدأ الوضوح والشورى والتفاهم ، وأن يكون البقاء عن قناعة ، فإنّه لا بُدّ للزوجة أن تعرف نوع الحياة التي ستعيشها ، ولهذا ينبغي أن تكون المفاهمة والتشاور بين الأزواج في أي أمر من الأمور ؛ هو المبدأ الذي تقوم عليه البيوت ، ولا يكون هنالك التسلط من جانب دون آخر ؛ كما هو الحال في أكثر الأمور يقع التسلط من جانب الرجل ؛ فيفرض أوامره ، ويفرض سلطانه على وجه القهر والتسلط ، وهذا ليس من أدب النبوة في شيء .

انظروا إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (**إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّفًا ، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُبْسِرًا**) ، وهذا يؤكد ما شرحته لكم في ما يتعلّق بأمر الوضوح والتيسير وعدم استعمال العنف ، أو ما يتصل به ، قال : (**لَا تَسْأَلْنِي امْرَأَةً مِنْهُنَّ عَنْ مَا اخْتَرْتُ إِلَّا أَخْبَرْتَهَا**) ، هناك أحاديث كثيرة ساقها المؤلف في هذا الموضوع .

وفي هذه الآية في قوله عز وجل : { **فَتَعَالَيْنِ أُمْتَعَنَّ وَأَسْرَحَنَّ سَرًا** } .

■ { **أُمْتَعَنَّ** } : أي أعطيتكن حقوقكن .

■ { **وَأَسْرَحَنَّ سَرًا** } : أي أطلق سراحكن .

مسائل في آداب الطلاق :

هنا نلاحظ العبارة القرآنية الجميلة ؛ { **فَتَعَالَيْنِ أُمْتَعَنَّ وَأَسْرَحَنَّ سَرًا جَمِيلًا** } . هذا هو الطلاق ، وهذا هو الفراق ! لكن انظروا كيف يكون في بيت الثبوة ، وانظروا كيف يكون في بيوت الآخرين ! هذا الأدب الذي نجده في هذه الآية هو بعينه الذي جاء في سورة الطلاق - وهي كما يقال ؛ سورة النساء الصغرى - حينما قال الله عز وجل : { **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ** } واقع الناس الآن إذا أتى الطلاق ؛ بادر بإخراج زوجته من بيتها ، ويكون الطلاق أيضًا في محلّ النزاع ، وفي محلّ الخصومة العارمة بين الزوجين ، وهذا ليس من السُّنة ؛ السُّنة : أنّه إذا كانت هنالك خصومة ، فينبغي أن تهدأ هذه الخصومة ، وحينئذ يُتخذ القرار على وجه من الاختيار ، وعلى وجه من الوضوح كما في هذه الآيات التي بين أيدينا ، فالله تعالى نهى عن إخراج المرأة من بيتها ، حتّى أنّه جاء عن بعض المالكيّة - وأظنّه الإمام مالك ، أو أحد تلاميذه - قال : إذا لم يكن في البيت إلّا غرفة واحدة ؛ فإنّه يخرج هو ، ولا تخرج المرأة ، أو الزوجة ! لأنّ الله قال : { **لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ** } ، وهذا يبيّن مكانة المرأة في الإسلام .

والأسلوب الأمثل الذي يكون في الطلاق ؛ أن لا يكون إلّا بعد طهر لم يُجامعها فيه ، حينئذ يُوقع الطلاق ، فهذا هو طلاق السُّنة ؛ يكون في هذه الحالة ، ويكون بهذه المثابة .

الآن يقع عن غضب ، وفي ثوران الغضب ، حتّى الحيض ! هذا ذكر العلماء أنّ المرأة تكون وهي حائض في حالة قد يتغير فيها مزاجها ، وتتغير فيها نفسيتها ، ولهذا جاء في الأحاديث ؛ "أن لا يُطلّقها إلّا بعد طهر لم يُجامعها فيه" .

والتعبير بـ "الجميل" ؛ السراح الجميل ! هذا التعبير القرآني الجميل الرائع يُشير إلى أنّ الطلاق يكون معه متاع ، ويكون معه خير ، وكما أنّه أخذها بالمعروف ، وأخذها بابتسامة ، وأخذها بكرامة ، وبصدق ، فإنّه ينبغي أيضًا أن يُسرّحها على هذا الوجه أيضًا ؛ يُسرّحها بمعروف ، ويمنحها ما تطيب به نفسها ، وما يكون لها قوّة وبلاغا لها إلى حين ؛ لتسير في هذه الحياة ومعها ما تزوّد به ، ولتتقوى به على مواجهة مصائبها .

قوله عز وجل: **{فَتَعَالَيْنِ أُمْتَعَنَّ وَأَسْرَحَنَّ سَرَّاحًا جَمِيلًا}** كان هذا لأزواج النَّبي صلى الله عليه وسلم "التسع"، وأزواج النَّبي:

أ - خمس من قريش، وهُنَّ: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، تلك كلهن قرشيات.
 ب - وكان تحته صلى الله عليه وسلم أيضًا - إضافة إلى هذه القرشيات رضي الله عنهن - صفية بنت حيي النظرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضي الله عنهن وأرضاهن.
 يقول الله عز وجل: **{يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}**.
 يلاحظ التعبير بـ "مبيئة"، وأنَّ الفاحشة لا يُعاقب عليه الشرع إلا حينما تكون بهذا المثابة، وبهذه الصفة، وتكون بشهود، وتكون لها مواصفات مُعيَّنة، لا كما يظنُّه بعض النَّاس، فيبادر فيه بعض النَّاس بالإيذاء والضرب واستعمال العنف لأدنى شبهة، فهذا لاشك ليس من شريعة الإسلام، وإنَّما هو من العادات الجاهلية، ومن العادات التي حدَّر الإسلام منها، وطالب فيها بالحفاظ على كرامة المرأة، وإعطائها حقوقها.

هنا نحتاج إلى بيان معنى "يُضَاعَف"، ما معنى "يُضَاعَف"، ما هي المُضاعفة؟

أوضح الإمام ابن قُتيبة في تفسيره: "في غريب القرآن"، فذكر في **{يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}**، أنَّه المثلين؛ أنَّه يُضاعف لها مثلين، أي يكون عليها العذاب مرتين، وهذا خاص بأزواج النَّبي صلى الله عليه وسلم، بحيث إذا كان العذاب مرَّة لكل امرأة، فإنَّه يكون مرتين لكل امرأة إذا أتت بفاحشة مُبيَّنة، فهو إذن العذاب يُكرَّر مرة أخرى.
 وقال: ذهب أبو عبيدة إلى: أنَّه يُجعل الواحد ثلاثة، لا اثنين؛ يعني العذاب الأصلي وفوقه الضعفين.
 يقول رحمه الله: ولا أراه كذاك! لأنَّه يقول بعده: **{وَمَنْ يَفْتُنْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَّلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ}**؛ فهذا يدلُّ على أنَّ الضعف ثَمَّ مثلان، وهذا من عدل الله عز وجل، فليست العقوبة تكون أشد من الرحمة والمثوبة، بل المثوبة تُضاعف أضعافاً مُضاعفة، فليس من باب الإسلام وأصوله أن تكون العقوبة أشد من المثوبة؛ لهذا يقول الإمام ابن قُتيبة: وكأنَّه أراد؛ يُضاعف لها العذاب فيُجعل ضعفين؛ أي مثلين؛ كُلُّ واحد منهما ضعف الآخر، وضعف الشيء مثله، فلذلك قرأ أبو عمرو: "يُضَعَّف"؛ لأنَّه رأى أنَّ "يُضَعَّف" للمثل، و"يُضَاعَف" لما فوق ذلك.

الحاصل: أنَّ المقصود بـ "المُضاعفة" هنا هي المثلين فقط.

يقول تعالى واعظًا نساء النبي صلى الله عليه وسلم؛ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقرَّ أمرهنَّ تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُخْرِهِنَّ بِحُكْمِهِنَّ دُونَ سَائِرِ النِّسَاءِ؛ بأنَّ من يأتي منهنَّ بـ: "فاحشة مُبيَّنة"، قال ابن عباس: هي النشوز وسوء الخُلُق. هذا ظاهر النَّص، وهي؛ أنَّه لو أتى واحدة من نساء النَّبي صلى الله عليه وسلم، وصدر منهنَّ شيء من ذلك، فإنَّه يكون عليها هذا الأمر، وهذا طبعاً في حالة لو وقع، لكنَّه لم يقع! ولهذا يقول الإمام ابن كثير: وعلى كُلِّ تقدير فهو شرط! والشرط لا يقتضي الوقوع؛ كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)}** يعني الأنبياء. **{قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١)}**. **{لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤)}**، فهذا فقط لتنفيرهنَّ من هذا العمل، وليبيان ما لهنَّ من المكانة، وما عليهنَّ من المسؤولية؛ لأنَّه بقدر ما يكون الإنسان بالعلم، وبقدر ما يكون في العبادة؛ بقدر ما ينبغي أن يتحفَّظ من الوقوع في المعصية.

المهم هنا: أن نعلم أنَّ زوجات النَّبي صلى الله عليه وسلم لم يقع منهنَّ شيء من ذلك، مع أنَّه لم يقع شيء من النَّبي صلى الله عليه وسلم، وأنَّهم لم يُشركوا، فكذلك أزواج النَّبي صلى الله عليه وسلم، نعم طالبينه بالتَّفَقُّة، ثمَّ جاء هذا التخيير،

لكن بعد ذلك لم يكن منهم نشوز ولا سوء خلق ، ولم يقع منهم البتة فاحشة مبيّنة .
 قال مالك عن زيد ابن أسلم : {بُضَاعَفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ} أي في الدنيا والآخرة .
 قال تعالى : {وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} .
 "يسيرا" : أي سهلاً هيناً .

❖ **وآخر آية وهي :** {وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا} .

هذا من أساليب القرآن الكريم أنه دائماً يذكر المقابلات ، ولا يسكت عنها ؛ فإذا ذكر عقوبة ، ذكر ما يُقابلها من الأجر والمثوبة ، وإذا ذكر ثم سيئة ، فإنه يأتي بما يُعادلها وبما يُقابلها من الحسنة ، وهكذا هو الإنصاف ؛ كما قال عز وجل : {لَيْسُوا سَوَاءً} ، فبعد أن ذم اليهود ، وبين ما عليهم ، بين أن منهم من هو قائم بأمر الله عز وجل ، ومُحافظاً على شريعة الله عز وجل .
 يقول ابن كثير : ثم ذكر عدله وفضله في قوله : {وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} .
 {يَقْنُتْ} : أي يُطع الله ورسوله ويستجيب .

قال تعالى : {نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا} .

أي في الجنة ، فإنهن في منازل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ في أعلى عليين ، وفوق منازل جميع الخلائق ؛ في "الوسيلة" التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش ، وهذه خصيصة لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ؛ بأن يجعل لهن في رفقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه في الآخرة .
 وأريد هنا أن أؤكد مرة أخرى إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم في مثل هذه الآيات ، وإن كان أكثرها يتناول ما يختص بأمهات المؤمنين ، لكن ينبغي أن ننظر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم على أكثر من وجه ، فإن كان نبياً فهو أيضاً أباً ، وزوجاً ، أباً حنوناً ، وزوجاً محبباً لأزواجه ، وقائم بحقوقهن جميعاً ، فقد كان عليه الصلاة والسلام في بيته - كما جاء في حديث عائشة - يَخْصِفُ نَعْلَهُ ، وَيُرْقِعُ ثَوْبَهُ ، وَيَجْلِبُ الشَاةَ ، وَيَقُمُ الْبَيْتَ ، فلا شك أن بيت الرسول صلى الله عليه وسلم كتاب مفتوح لكل من أراد أن يبني بيته على التقوى ، وأن يُنيره بأضواء النبوة .

الحلقة (٣٥)

موضوع الحلقة : تفسير الآيات ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ من سورة الأحزاب .

أُرحب بكم جميعاً طلاباً وطالبات في بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، في سورة الأحزاب التي تناولت بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وأزواجه ؛ لتكون نوراً وقدوةً مثلى لبيوت المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات .

الآيات :

قال تعالى : {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا} (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا} (٣٤) .

المفردات الغريبة :

■ {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ} : فلا تليّن بالقول .

والخضوع هو : تليين القول ، أو تليين الكلام وترقيقه ، وترخيم الصوت .

فالمرأة إذا أرادت أن تخضع بقولها ؛ فإنها تُلَيِّن كلامها ، وتُرَقِّق نغمتها ، وتُرَخِّم أيضاً صوتها ، فلهذا حُدِّر من هذا الأمر ، فتتكلم المرأة على طبيعتها دون هذه الأمور .

■ {فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} "مرض" : أي فجور .

■ {وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا} "معروفاً" : أي صحيحاً ، لا يُطْمِع فاجراً .

طبعاً لا تخرج المرأة من طبيعتها ، لكن تتكلم كلاماً مُعتاداً دون أن يكون فيه هذه الأشياء .

✓ القراءات :

يقول تعالى : {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ} ، بكسر القاف ، وهذه قراءة متواترة ، وهي غير قراءة نافع وعاصم ؛ هي قراءة الجمهور . يقال : قرَّ في منزله يقرُّ وقرّاً . و " قَرْنَ " ، من الوقار ، يقول : ومن قرأ " وَقَرْنَ " بفتح القاف ؛ جعله من " القرار " ، وكأنَّه من " قَرَّ " ، " يَقَرَّ " ، بفتح القاف .

إذاً لدينا قراءتان في {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ} :

⇐ أمّا أن نقرأ : (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) ؛ فيكون المعنى من الوقار .

⇐ وإمّا أن نقرأ : (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) ؛ بالفتح فيكون المعنى من القرار .

والقراءات بعضها يُكْمَل بعضاً ، فالمراد في هذا هو : الوقار والقرار ، لأنَّه يتولد ويكون من القرار ينبثق الوقار ، فبقدر ما تكون المرأة مستقرّة في بيتها ، وساكنة في بيتها ، وقائمة بواجباتها في بيتها ، بقدر ما يكون لها من الوقار في نفس زوجها ، وفي نفوس الآخرين .

✓ بيان الآيات من تفسير ابن كثير :

يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله - : هذه آداب أمر الله بها نساء النَّبي صلى الله عليه وسلم ، ونساء الأُمَّة تبعَ لهنَّ في ذلك . لاشكَّ أنَّ المُخاطب والمعني في هذا هم أزواج النَّبي صلى الله عليه وسلم ، لأنَّ الخطاب واضح وصريح : {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ} ، لكننا كما نعلم أنَّه حينما يأتي الحديث في آيات القرآن الكريم عن فئة مُعيَّنة ، فإنَّه تبقى هذه الآيات في القرآن الكريم لمن بعدهم ، ولكلِّ من يصلح له الخطاب من بعد ذلك ، وإلّا لما انتفع من الآيات التي تتحدّث عن بني إسرائيل ، أو عن الأقوام الغابرة ؛ لأنَّ المقصود أخذ العبرة ، وأخذ العظة والتأسي في الخير ، والحذر من الشر ، فما ذكره الله عزَّ وجلَّ من آداب ومن توجيهات هذه الآيات ؛ يصدق على كلِّ مؤمنة مُحَبَّة لأزواج النَّبي صلى الله عليه وسلم ، ومُحَبَّة قبل ذلك للنَّبي صلى الله عليه وسلم ، ينطبق على كلِّ امرأة تريد أن تعمل بكتاب الله عزَّ وجلَّ ، وتهتدي بهدي القرآن الكريم .

فقال مُحاطباً لنساء النَّبي ؛ بأنَّهنَّ إذا اتقين الله كما أمرهنَّ ، فإنَّه لا يُشَبِّهُنَّ أحدٌ من النِّساء ، ولا يلحقهنَّ في الفضيلة والمنزلة قال تعالى : {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ} ، قال السَّدي وغيره : يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال . وسبق أن بيَّنا :

أنَّ الخضوع بالقول يتناول ثلاثة أمور :

١ - التلين .

٢ - الترقيق .

٣ - الترخيم .

قوله تعالى : {وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا} قال ابن زيد : قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير .

ومعنى هذا أنَّها تُخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ؛ أي لا تُخاطب المرأة الأجانب كما تُخاطب زوجها ، وهذا يدلُّ على أنَّه

يجوز للمرأة أن تتكلم مع الأجانب ، لا كما يفهمه بعض المتشددين ، الذين يظنون أنَّ صوت المرأة عورة بالكامل ، وأنه لا يجوز للمرأة أن تتحدث مع الرجل ، وأنَّ صوتها بمجرد أن تتكلم فإنه يعتبر من الأمور المحرمة ، لاشك أن هذا يتنافى مع هذا النص وأمثاله ، وإنما المقصود أن تقول المرأة قولاً معروفاً . إذا احتاجت الكلام مع الرجال ، فإنها تتكلم معهم في البيع وفي الشراء ، وفي العلم ، وفي المعاملة ، وما إلى غير ذلك ، لكن بحشمة ووقار واحترام ، ودون أن يكون فيه أدنى خضوع .

❖ **أَمَّا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ} :**

أي الزمن بيوتكن ، فلا تخرجن بغير حاجة شرعية ، ومن الحوائج الشرعية ؛ الصلاة في المسجد بشرطه ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : (لا تمنعوا إماء الله ، مساجد الله ، وليخرجن وهنَّ تفلات) ، وفي رواية : (ويبيوتهنَّ خيرٌ لهنَّ) . إذاً هنا أدلة تدلُّ على أنَّه **يجوز أن تخرج المرأة ، لكن بشروط معينة :**

١ - عند الحاجة أولاً .

٢ - ثمَّ إذا كانت هنالك حاجة يكون أيضاً بدون خضوع في القول .

٣ - وبدون تطيب وتجميل .

٤ - وبدون فتنة .

ولهذا نجد في القرآن الكريم ؛ في قصة ابنتي شعيب ، حين سألهما : {قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدَرَ الرَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)} [سورة القصص] ، فبينتا أنَّ الحاجة من خروجهما ؛ أنَّ أباهما شيخ كبير لا يستطيع أن يخرج ، وأن يأتي بالماء ، فكفاهما المؤونة ، وقام بخدمتهما .

قوله عَزَّ وَجَلَّ : {وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} .

يقول قتادة : إذا خرجتن من بيوتكن ، وكانت لهنَّ مشية وتكسُّر وتغنُّج ، فنهى الله عن ذلك .

إذاً : "التبرج" هو : التكسُّر والتغنُّج . وهذا كان في الجاهلية ؛ أنَّ المرأة كانت تتبرَّج ، وهاهي الجاهلية تعود إلينا مرةً أخرى في بعض الإعلام الفاسد الذي ينشر العهر ، ويُعيد الجاهلية الأولى جَذَعَةً كما كانت ، فهذا ليس من الطُّهر ، وليس من النقاء ، وليس من التحضُّر ، وليس من شرف المرأة والحفاظ على حقوقها ، وإنما هو تبيد لحقوقها ، واستخدامها للتعريِّ لإخوان الشياطين ، نسأل الله السلامة .

يقول مقاتل : {وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} "التبرج" : أن تُلقِي الخمار على رأسها ولا تشدُّه ، فيواري قلائدها وقُرطها وعُنقها .

أن تُلقِي الخمار على رأسها : أي أن تضع الخمار على رأسها هكذا ، لكن لا تشدُّه على رقبتها ، فينبغي أن يُشدَّ على الرقبة وسائر العُنق إلى أن يضرب الحيب والصدر ، فهذا الذي ينبغي أن يكون ، أمَّا أن يوضع الخمار هكذا على الرأس ، ويظهر بعض الشعر ، ويظهر بعض الزينة ، ويظهر بعض العُنق ؛ فهذا من الجاهلية الأولى ، وهذا يُكَمِّل الآيات التي وردت في سورة النور ، فهنا إضافة وهي أن تشدَّ الخمار على عنقها وصدرها .

إذاً تبرج الجاهلية الأولى يتناول ثلاثة أمور : التكسُّر ، والتغنُّج ، وإلقاء الخمار على الرأس دون شدِّه .

هنا نلاحظ أنَّ ما مضى من الآيات كُلُّها "تَحْلِيَّةٌ" ؛ وهي النهي عن تبرُّج الجاهلية وما يتَّصف بذاك ، ثمَّ جاءت "التَحْلِيَّةُ" فقال الله تعالى : {وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} .

يقول الإمام ابن كثير : نهاهنَّ أولاً عن الشر ، ثمَّ أمرهنَّ بالخير من :

١ - إقامة الصلاة ؛ وهي عبادة الله وحده لا شريك له .

٢ - وإيتاء الزكاة ؛ وهي الإحسان إلى المخلوقين .

٣ - وأطعن الله ورسوله ، وهذا من باب عطف العام على الخاص ؛ لأنَّ إقامة الصلاة ؛ هي من طاعة الله ، وإيتاء الزكاة ؛ هي من طاعة الله ، لكن قال : { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ } ليشمل جميع الأوامر وجميع النواهي ، وإنَّما خُصَّت الصلاة والزكاة ؛ لما لهما من المكانة في أركان الإسلام .

يقول الله عزَّ وجلَّ : { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } .

✓ سبب نزول الآية :

"هذا نصُّ في دخول أزواج النَّبي صلى الله عليه وسلم في أهل البيت هاهنا ؛ لأنَّه سبب نزول هذه الآية " . هذا الكلام لابن كثير - رحمه الله - استنبطه من هذه الآية ؛ وهو : أَنَّ أزواج النَّبي صلى الله عليه وسلم يُعَدُّون من أهل البيت . أي حكمهم حكم أهل بيت النَّبي صلى الله عليه وسلم .

عن عكرمة : "أنَّه كان يُنادي في الأسواق : { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } ، نزلت في نساء النَّبي صلى الله عليه وسلم خاصة " .

يقول ابن كثير رحمه الله : إن كان المراد : أَنَّهُنَّ كُنَّ سبب النزول دون غيرهنَّ ؛ فصحيح ، وإن أريد أَنَّهُنَّ المراد فقط دون غيرهنَّ ؛ ففي هذا نظر ؛ فإنَّه وردت أحاديث تدلُّ على أَنَّ المراد أعم من ذلك .

أي أَنَّ هذه الآية تدلُّ دلالة صريحة على أَنَّ أزواج النَّبي صلى الله عليه وسلم هنَّ أهل البيت ، لكن جاءت أحاديث أخرى تُبيِّن أَنَّ أهل البيت أيضًا هم من آل النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يكونوا من بيته ، كما هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والحسن والحسين .

وقد أورد المؤلف في ذلك عدَّة أحاديث منها :

أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمرُّ بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر ، ويقول : (الصلاة يا أهل البيت ؛ { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا }) .

وعن أم سلمة إنَّ هذه الآية نزلت في بيتها : { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } ، قالت : وأنا جالسة على باب البيت ، فقلت : يا رسول الله ! ألسنت من أهل البيت ؟ فقال : (إِنَّكَ إلى خير ، إِنَّكَ من أزواج النَّبي صلى الله عليه وسلم) . قالت : وفي البيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم . فهذا الحديث يدلُّ على أَنَّ هذا شامل لكلِّ من ورد ذكره في هذا الحديث .

يقول ابن كثير في ختام عدَّة أحاديث ساقها : " ثمَّ إن الذي لا يشكُّ فيه من تدبُّر القرآن ، أَنَّ نساء النبي صلى الله عليه وسلم داخلات في قوله : { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } . فإنَّ سياق الكلام معهنَّ " .

وهذا فيه ردُّ على من ينتقصون عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ؛ حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهي من أهل البيت ، فإنَّ من يزعم حبَّ النبي صلى الله عليه وسلم ، وحبَّ أهل بيته ؛ فإنَّ أزواجه ومنهنَّ عائشة أم المؤمنين هي من بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنَّ من آذها بأي شيء ، فإنَّما هو يؤذي بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أشرنا إلى شيء من ذلك عند سورة التَّور .

❖ يقول الله عزَّ وجلَّ : { وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ } .

"واذكرن" : أي اعملن بما يُنزلُ الله على رسوله في بيوتكنَّ من الكتاب والسُّنة ، قاله قتادة وغير واحد . واذكرن هذه التَّعمة التي خُصِّصَتْ بها من بين النَّاس ؛ أَنَّ الوحي ينزل في بيوتكنَّ دون سائر النَّاس .

وعائشة بنت الصديق أولاهنَّ بهذه النعمة ، وأحضاهنَّ بهذه الغنيمة ، وأخصهنَّ من هذه الرحمة العظيمة ، فإنه لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي في فراش امرأة سواها ، كما نصَّ على ذلك صلوات الله وسلامه عليه . قال بعض العلماء - رحمه الله - إنه لم يتزوج بكرراً سواها ، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه ، فناسب أن تُخصَّص بهذه المزية ، وأن تُفرد بهذه الرتبة العلية ، ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته ، فقرابته أحقُّ بهذه التسمية ، كما تقدَّم في الحديث : **(وأهل بيتي أحق)** ، قال البيت ، وأهل البيت هم من ذكرهم الرسول صلى الله عليه وسلم في الأحاديث السابقة من قرابته ، ومن أزواجه كما في هذه الآية .

يقول الله عزَّ وجلَّ : **{إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا}** .

{لَطِيفًا} : أي بلطفه بكنَّ بلغتنَّ هذه المنزلة .

{خَبِيرًا} : أي وبخبرته بكنَّ ، وأتكنَّ أهل لذلك ؛ أعطاكَن ذلك ، وخصكَن بذلك .

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا} أي ذا لطفٍ بكنَّ إذ جعلكَن في البيوت التي تُتلى فيها آيات الله والحكمة ؛ وهي السُّنة .

إذن قوله عزَّ وجلَّ : **{وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ}** .

✓ معاني الكلمات :

{آيَاتِ اللَّهِ} : أي القرآن الكريم .

{وَالْحِكْمَةِ} : أي سُنَّة النبي صلى الله عليه وسلم ، وممَّا كان يقوله النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وينقله أزواجه رضوان الله تعالى عليهنَّ إلى النَّاس .

{خَبِيرًا} : أي بكنَّ إذ اختاركنَّ للرسول أزواجاً .

{وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ} قال قتادة : يَمُنُّ الله عليهنَّ بذلك .

وقال عطية العوفي : في قوله : **{إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا}** يعني لطيف باستخراجها ، خبير بموضعها .

✓ الهدايات :

١- أن قرار المرأة ووقارها في بيتها .

٢- أن القيام بمهام البيت أولى من خارجه . فمن الخطأ أن تُترك واجبات البيت ، ويُبدأ بما هو خارجها ، فهذا لا بُدَّ من مُراعاته ، وهو من الأولوية بمكان .

٣- إذا خرجت المرأة فينبغي أن تُراعي الحشمة ، وأن تأخذ بها ، وأن يكون هو خمارها ، وحجابها ، وغطاؤها ، فالحشمة أمرٌ أساس ؛ سواءً في مشيتها ، أو في كلامها ، أو في تعاملها .

٤- إذا كان بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ تنزل فيه الآيات القرآنية ، وتُتلى فيه الحكمة من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإنَّ هذه الآيات لا تزال باقية ، وهذه الحكمة لا تزال محفوظة -ولله الحمد- وهي مُتاحة لكلِّ مؤمن ومؤمنة ، ولكلِّ مسلم ومسلمة ، لكل صاحب بيت أن يجعل هذه الآيات والحكمة في بيته ! كيف يكون هذا ؟ يكون بقراءة القرآن ؛ والبيت الذي يُقرأ فيه القرآن ، وتُقرأ فيه سورة البقرة ، وتُقرأ فيها آية الكرسي لا يقربه الشيطان ، أيضاً يُتأدَّب فيه بأدب الثُّبوة صلى الله عليه وسلم في المعاملة وفي الأخلاق ، ويُقرأ فيه من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإنَّ هذا يُهدِّب السلوك ، ويهدي إلى الأخلاق ، ويعمر البيوت ، فإذا كانت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عمُرت بهذين الثقلين العظيمين ، فإنَّهما لا يزالان باقيين ، فينبغي علينا ، وينبغي على كلِّ صاحب بيت أن يجعل هذين ؛ كتاب الله وسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ هما الأساسان اللذان يقوم عليهما عماد البيت ، وأركانه المعنوية ، وهي مُيسرة ولله الحمد ، ويغفل كثير من أهل البيوت عن

هذا، وربما شغلوا بيوتهم بأشياء لا تنبغي، ولو أنهم اجتمعوا على كتاب الله عز وجل وتدارسوه فيما بينهم؛ لعمتهم رحمة الله عز وجل، وطردت الشياطين من البيوت، وحقتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده.

الحلقة (٣٦)

موضوع الحلقة تفسير الآية (٣٥) من سورة الأحزاب.

هذه الآية تتحدث عن عشر خصال في صفات أهل الإيمان، وهي من الآيات الجامعة العظيمة التي تحدثت عن رجال الأمة ونسائها، فأنصتوا إليها، وتدبروا الخصال العشر.

الآيات:

قال تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)}.

سبب النزول:

١ - عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، تقول: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يُذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعني منه ذات يوم إلا وندأه على المنبر، قالت: وأنا أُسرح شعري، فلففت شعري، ثم خرجت إلى حجرة من حُجر بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول على المنبر: (يا أيُّها النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}). إلى آخر الآية).

٢ - وحَدَّثت أيضًا أم سلمة رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله! أَيْدُكُمُ الرِّجَالِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا تُذَكَّرُ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}. إلى آخر الآية.

٣ - وعن ابن عباس قال: قال النَّسَاءُ للنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَالَهُ يَذَكِّرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَذَكِّرُ الْمُؤْمِنَاتِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}. إلى آخر الآية.

٤ - وعن قتادة قال: دخل نساءٌ على نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فَقُلْنَ: قَدْ ذَكَرَكُنَّ اللَّهَ بِالْقُرْآنِ، وَلَمْ تُذَكَّرْ بِشَيْءٍ! أَمَا فِينَا مَا يُذَكَّرُ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}. إلى آخر الآية.

إذن سبب نزول هذه الآية له وجهان:

الوجه الأول: ما جاء عن أم سلمة، أو بعض النساء عموماً ممن سألن: ما للرجال يُذكرون في القرآن، ولا يُذكر النساء؟ أي؛ لماذا لا يأتي التخصيص على النساء كما نُصَّ على الرجال؟ فهذا ما سألت عنه أم سلمة؛ كما في أحاديث أم سلمة، وكما في حديث ابن عباس؛ حينما سأل النساء، ولم يُجَدِّد السائلة، فقد تكون أم سلمة، وقد يكون غيرها، ولا يبعد أن يكون غير أم سلمة؛ لأنَّه قد يتعدَّد السبب ويكون النازل واحد، وهذا له نظائر في القرآن الكريم في مناسبات كثيرة.

الوجه الثاني: هو ما قرأته عليكم أخيراً؛ وهو الأنسب لسياق الآيات، فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد تحدَّث عن نساء النبي صلى الله عليه وسلم، وأزواجه في الآيات السابقة التي درسناها قبل هذا الدرس، ثمَّ جاء الحديث عن سائر نساء المؤمنين، فهنا يذكُر قتادة: أنَّه دخل نساءً على نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فَقُلْنَ قَدْ ذَكَرَكُنَّ اللَّهَ فِي الْقُرْآنِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ...}، {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ...} الآيات، ولم تُذكر بشيء! أَمَا فِينَا مَا يَذَكَّرُ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}. إلى آخر الآية.

لا بد أن نعلم أن النساء شقائق الرجال ؛ كما جاء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ حيث قال : (**النساء شقائق الرجال**) . فكل ما للرجال يكون للنساء ، إلا ما اختص به الرجال ؛ فما يتعلق بالجهاد ، أو ما اختص به النساء ؛ فيما يتعلق بأحكام العدة والطلاق ، وما أشبه ذلك ، فقد يأتي ذكر النساء والنص عليهن لسبب معين ، أو لسياق معين كما في هذه الآية ، وكما في قوله تعالى : { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ** } ؛ لأن السخرية في النساء تكثر ، أكثر من الرجال ؛ لأنهن يتباهين بالجمال ويتنافسن فيه ، وهو من أنفس بضائعهن ، فلهذا جاء التحذير والتأكيد على هذا الأمر ، وحُصت النساء بالذكر ، فهذه القاعدة لا بد أن نعرفها في القرآن الكريم ، قد بينها الرسول صلى الله عليه وسلم بما لا يدع مجالاً للشك ، وبما لا يدع مجالاً للتنقص من النساء ، في الأصل أنه يكون في كلام العرب التغليب ، فيغلب ؛ فيقال : " الأبوان " ويراد بهما ؛ الأب والأم ، ويتكلم الناس ويقولون : يا أيها الناس ؛ ويريدون به الرجال والنساء ، الفقراء والأغنياء ، وهكذا ، فالمقصود أنه ما جاء في القرآن من أي خطاب فإنه يشمل الرجال والنساء على وجه العموم .

هنا شرع المفسر - رحمه الله - في بيان كل مفردة على حدة ، وبيان ما تفيد كل صفة من هذه الصفات :

قوله تعالى : { **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** } .

يقول رحمه الله : هذا دليل على أن الإيمان غير الإسلام ، وهو أخص منه ، قال تعالى : { **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا** } .

إذا اجتمع الإسلام مع الإيمان ، فإن كل منهما يُفِيد معنى ، فيكون الإسلام في الأمور الظاهرة ، ويكون الإيمان في الأمور الباطنة .

والإيمان هو مرتبة أعلى ، فقد يكون الإنسان مسلم بلسانه ، لكنه لم يتم إيمانه في قلبه ، ولهذا جاء موضوع الإيمان بأعمق من هذا ، وقال صلى الله عليه وسلم : (**لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه ، ومن ولده ، ومن والده ، والناس أجمعين**) ، وكما جاء في ذلك الآيات الأخرى ، قال تعالى : { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا** } ، { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** } ، وغير ذلك من الأحاديث والآيات الكثيرة التي تدل على خصوصية الإيمان ، والإيمان يشمل حتى الأمور الظاهرة ، كما جاء في الأحاديث : (**الإيمان بضع وسبعون شعبة ؛ أعلاها لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق**) .

الحاصل أن الإيمان أخص من الإسلام .

قوله تعالى : { **وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ** } .

" القنوت " : هو الطاعة في سكون .

كقوله تعالى : { **أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ** } ، { **وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ** } ، { **يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ** } (٤٣) . { **وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ** } (٢٣٨) .

فكان القنوت أثر من آثار الإيمان ، فكلما كان الإيمان أعمق ، كل ما كان أهدأ للبال ، وسكون ، وراحة للبال ، وإقبال على الطاعة والعبادة ، فيتفاضل أهل الإيمان في إيمانهم ؛ منهم من هو أعلى ، وفي مراتب عُلْيَا ، فيصدق عليه لفظ القنوت ، ومنهم من هو كما قال الله تعالى : { **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** } (٣٢) . فالقنوت هو من هذا القبيل .

أما قوله تعالى : { **وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ** } وما بعدها ، فهي أعمال ؛ منها :

١ - أعمال قولية .

٢ - ومنها أعمال قلبية .

٣ - ومنها أعمال ظاهرة ، وهي كالتالي :

الصادقين ، والصادقات ، يقول : هذا في الأقوال ، الصدق يكون في القول ، وهو علامة على الإيمان .
فهناك ذكر الإسلام ، ثم ما هو أخص منه وهو الإيمان ، ثم ما يترتب على الإيمان من ؛ القنوت ، وأيضا ما يُثمره الإيمان من الصدق ، وما هو علامة على الإيمان وهو الصدق ، كما أن الكذب علامة على التَّفَاق .

قوله تعالى : { **وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ** } .

هذه أيضا سجيّة الأثبات . يقول الإمام ابن كثير : وهي الصبر على المصائب ، والعلم بأنَّ المقدور كائن لا محالة ، فيتلقى ذلك بالصبر والثبات ، وإثما الصبر عند الصدمة الأولى .

قوله تعالى : { **وَالْحَاشِعِينَ وَالْحَاشِعَاتِ** } .

الخشوع له المعاني التالية :

المعنى الأول : السكون والطمأنينة .

المعنى الثاني : التؤدة والوقار .

المعنى الثالث : التواضع .

يقول رحمه الله : والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته ؛ (أعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك) ، وكأنَّ الخشوع يُمثّل مرتبة الإحسان ! نلاحظ أنَّ الخشوع عمل باطني ؛ عمل قلبي .

هنالك ما يتعلق بالأموال ، فقال : { **وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ** } ، والصدقة هي الإحسان إلى النَّاس المحاوِج الضعفاء ، هذه أيضا ثمرة من ثمرات الإيمان .

قوله تعالى : { **وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ** } .

هناك تكلم عن الصدقة ، وتلاحظون أنَّه بين كلَّ خصلة وخصلة مناسبة ، فالصدقة زكاة المال ، والصوم زكاة البدن ؛ لأنَّه يُنقيه ويُطهره من الأخلاق الرديئة .

قال سعيد بن جبير : من صام رمضان ، وثلاثة أيام من كلِّ شهر دخل في قوله تعالى : { **وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ** } .

هنا يقول المؤلف : "ولمَّا كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة ؛ كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ...) ، الحديث ، ناسب أن يذكر بعده ؛ قوله تعالى : { **وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ** } ، هذا يؤكد ما قلته لكم قبل قليل ، وهو : أنَّ بين كلَّ خصلة وخصلة مناسبة ، ولمَّا انتهى من الصيام ، بيّن أثره ، وأنَّه سبب في حفظ الفروج ؛ أي عن المحارم والمآثم ، إلَّا عن المُباح ؛ كما قال تعالى : { **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** } .

وقوله تعالى : { **وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ** } .

عن الأغرَّ أبي مُسلم عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : (إذا أيقض الرجل امرأته من الليل ، فصليا ركعتين ؛ كُتِبَ تلك الليلة من الذَّاكرين الله كثيرا والذاكرات) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قلت : يا رسول الله ! أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال : (الذاكرين الله كثيرا والذاكرات) .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : (سبق المُفَرِّدون ! قالوا : وما المُفَرِّدون ؟ قال : الذَّاكرون الله كثيرا) .

وعن مُعَاذٍ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِكِكُمْ ، وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ تَعَاطِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَمَنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَكُمْ غَدًا ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ! قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ : ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ) .

ساق المؤلف أحاديث كثيرة في ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ .

لكن نلاحظ وصف الذكر بأنه كثير! بخلاف الأمور الأخرى ، لم يصفها بالكثرة ؟

وقد مرَّ معنا قبل قليل أنَّ سعيد بن جبير يقول : من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر ؛ كُتِبَ من الصائمين والصائمات ، وأنَّ من أيقض امرأته من الليل وصلى ركعتين فقط كُتِبَ من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات ! هنا وصف الذكر بالكثرة له مناسبة ؛ لأنَّه أيسر العبادات ، فالصوم قد يكون فيه مشقة على البدن ، فلو صام الإنسان الشهر ؛ "ثلاثين يوم" ، وصام ستة أيام من شوال ؛ فكأنَّما صام الدهر ، أو صام ثلاثة أيام من كل شهر ؛ فكأنَّما صام الشهر كله ، وإذا تصدَّق ولو بشيء يسير ، فإنَّه قد أدَّى هذه النفقة الواجبة عليه ، أو المستحبَّة ، لكنَّها قد تكون فيها مشقة ، أمَّا الذكر ، فإنَّه لا يشقُّ على الإنسان ، وهو النَّفْسُ الذي يتنفس به الإنسان ، فإذا كانت رثته التي يخرج منها النَّفْسُ ويدخل بذكر الله عَزَّ وَجَلَّ ؛ دائماً يستغفر الله ، ويُسَبِّحُ الله عَزَّ وَجَلَّ ، ويُصَلِّي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحمده كثيراً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وإلى غير ذلك من الأذكار ، فهي يسيرة جداً ، وبإمكانه أن يقول : سبحان الله وبحمده في بضع دقائق ، بل ربَّما في ثلاث دقائق أو أقل ؛ مائة مرَّة ، ويكتب بإذن الله تعالى ؛ من الذاكرين الله كثيراً ، وتُغْفَرُ له ذنوبه ، وإن كانت مثل زبد البحر .

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ : { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } .

هذا هو خبر " إن " ؛ يعني : (إنَّ المسلمين والمسلمات ...) وما بعدها ؛ { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } . أي هياً لهم منه لذنوبهم مغفرة .

{ وَأَجْرًا عَظِيمًا } : وهو الجنة .

✓ الهدايات :

١- مكانة المرأة في الإسلام ، وأنَّ المرأة لم تكن نسياً منسياً في شريعة الله عَزَّ وَجَلَّ ، فقد كانت في الجاهليَّة من سقط المتاع ، فجاء الإسلام وانتشلها ، فوضعها في المكانة اللائقة بها ، وكرَّمها بكرامة الإسلام . كان الرجل يحق له أن يُعَدَّ ما شاء ؛ عشر ، عشرين ، خمسين ، فجاء الإسلام وحدَّد هذا التعدُّد وحصره في أربع نسوة فقط ، والطلاق ؛ كان له أن يُطَلَّق ما شاء ، فجاء الإسلام فحصره في ثلاث ، وقَلَّ ما شئت من عادات الجاهليَّة ، فجاء الإسلام لِيُنْظِمَها ، وجاء الإسلام لينبذ تلك العادات المقيتة ، ويضع بدلاً منها نور الإسلام وهدية وكرامته .

٢- هذه الصفات لا شك أنَّها فيها حثٌّ على الأخذ بها والإتيان بها ، ويشمل هذا الرجال والنساء ، وفيها أيضاً تنفير ممَّا يُضَادُّها من الكفر والكذب وما شابه ذلك .

٣- أنَّ هذه الصفات ابتدأت بتدرُّج الإنسان ! فإذا دخل الإسلام فإنَّه تُحَالِطُ بشاشة الإيمان قلبه ، فيكون مؤمناً بإذن الله تعالى ، ثمَّ ينبثق من هذا الإيمان الأعمال الكثيرة التي جاءت في هذه الآية ؛ في الصفات والخصال التالية ، إلى أن يصل إلى مرتبة أن يكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، فهي أعمال بعضها يترتب على بعض ، وخصال بعضها أخذ برقاب بعض .

٤- نلاحظ أنَّ الأجر أُخِّرَ ذِكرُهُ بعد قول الله عَزَّ وَجَلَّ : { وَالَّذَاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالَّذَاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } ؛ ليشمل أجور جميع هذه الصفات وهذه الخصال ، ولأجل أن يُعْطَفَ عليه الذكر .

وهذا سبق أن ألمحنا إلى نظيره في قوله تعالى : { وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ

يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا { فأُخِّرَت عبارة "ومساجد" ؛ لأجل أن يأتي بعدها ذكر اسم الله عز وجل ، فناسب أن يؤخَّر ذكر المساجد ؛ لأجل أن يأتي بعده ذكر اسم الله عز وجل ؛ لأنَّ المساجد هي أكثر ما يكون فيها الذكر لله عز وجل ؛ وهكذا جاء الحديث عن الذكر الكثير في آخر هذه الآيات ؛ ليأتي بعده : **{أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}** ؛ لأنَّ أعظم الأجر ، وأكثر المغفرة تكون لمن ذكر الله كثيرا ، ولمن ذكرت الله عز وجل كثيرا ، فلهذا جاء الأجر تلو قول الله عز وجل : **{وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}** . ويدل على ذلك ؛ ما قرأته عليكم قبل قليل من الأحاديث ؛ أنَّ الذكر هو أفضل الأعمال ، أو من أفضلها وأزكاها .

الحلقة (٣٧)

موضوع الحلقة : تفسير الآيات ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ من سورة الأحزاب .

في هذه الحلقة نحن بصدد قضية كبرى ، حشد لها القرآن الكريم من الآيات وقررها تقريراً لا يدع في قلب المؤمن مجالاً للشك في صدق النبوة ونزاهتها ، ويقطع الطريق والشكوك عن قلوب المؤمنين أن يتخذ الشيطان إليها سبيلاً .

الآيات :

قال تعالى : **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)}**.

هذه الآيات تعالج قضية التبني لكن بصورة مفصلة غير ما ذكرت في أول السورة ، كانت في أول السورة تتحدث عن هذا الأمر بصورة عامة **{وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ}** [الآية (٤) سورة الأحزاب] .

وهنا جاء التخصيص في قضية حدثت مع الرسول صلى الله عليه وسلم فصلها الله عز وجل تفصيلاً ليكون هذا النموذج ولتكون هذه القدوة الكبرى هي الأساس في القضاء على هذه الظاهرة التي كانت منتشرة إذ ذاك ، كان منتشر في الجاهلية موضوع التبني وما يتولد منه وما ينبثق منه من أمور الإرث والمحارم والحلوة وغيرها ، فجاء القرآن ليتناول شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم لتكون قدوة لمن حوله ولمن بعده من أمته .

سبب نزول الآية :

الأول : قوله تعالى : **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا}** يتناول قضية خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم لزَيْنَب بنت جحش ، حينما خطبها لفتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حينما طلبها لزيد فقالت : "ليست بناكحته" ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : **(بل فانكحيه)** ، وكانت ابنة عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان فيها من الجمال والمكانة والشرف ما هو أرفع من مكانة زيد ، وإن كان زيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان كبيراً وشريفاً لكن كانت لها تلك المنزلة ولم يكن الإسلام يراعي هذه الفروق كما هي في العادات الجاهلية أو كما بقي من رواسب هذه العادات في هذه العصور ، فقد جاء في حديث جليبيب -وهذا جليبيب كان فقيراً ومعدماً ولم يكن له شيء ولم تكن له منزلة- أن الرسول صلى الله عليه وسلم زوجه أنفُس نساء العرب ، وكانت قد اعترضت أم هذه النفيسة وهذه

الشريفة، فلما علموا بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم لينبذ هذه الفروقات الجاهلية قبلوا بذلك، وكان لها هذا التاريخ الذي سجل في بطون أمهات الكتب من التفسير والتاريخ وغيرها .

هنا لما قالت زينب ذلك أنزل الله عز وجل: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ} قالت: يا رسول الله وأمر نفسي -قبل نزول هذه الآية-، فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسوله {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا} فقالت: قد رضيته لي منكحاً يا رسول الله ؟ قال: (نعم). قالت: إذا لا أعصي رسول الله قد أنكحته نفسي .

وهكذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان: أنها نزلت في زينب بنت جحش رضي الله عنها حينما خطبها رسول الله على مولاه زيد ابن حارث فامتنعت ثم أجابت .

الثاني: يذكر زيد ابن أسلم أنها نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت من أوائل من هاجر من النساء، وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: (قد قبلت) . فزوجها زيد ابن حارثة -وهذا والله أعلم- بعد فراقه زينب، فسخطت هي وأخوها وقال: إنما أردنا رسول الله فزوجنا عبده ، فنزلت {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ} .

وقد ألمحنا في درس سابق إلى أنه قد يتعدد السبب والنازل واحد ، وهذا نوع من أنواع أسباب النزول ، أن يتعدد السبب ، فهنا تعدد السبب في زينب بنت جحش ، وفي أم كلثوم بنت عقبة ، وإن كان الأظهر والأولى والأشهر هو ما كان في زيد ابن حارثة، وهو المحفوظ.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله: ساق قصة جليبيب واعتبرها من هذا القبيل، وساق قصص أخرى وفي آخرها قال: "فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} . وفي الحديث: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) . ولهذا شدد في خلاف ذلك {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦)} وكما قال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)} .

ثم شرع في تفصيل قصة زيد رضي الله عنه وزينب رضي الله عنها مع الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ} قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن نبيه صلى الله عليه وسلم أنه قال لمولاه زيد ابن حارثة وهو الذي {أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ} أي بالإسلام، ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم . {وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ} أي بالعتق من الرق، وكان سيدا كبير الشأن جليل القدر حبيبا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذا {لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ} أي بالإسلام، الله أنعم على زيد بالإسلام ، {وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ} أي وأنت يا محمد أنعمت على زيد بالعتق وكان رقيقاً . وكان قد تنبأه أيضاً حتى أنه كان يعرف بزيد ابن محمد .

{وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} هنا خاض المفسرون في هذا خوضاً كثيراً، وأوردوا أحاديث لا أصول لها وتتنافى مع عصمة النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا ضرب الإمام ابن كثير عنها صفحاً، واقتصر على ما صح وعلى ما ثبت في ما هو ظاهر من معاني هذه الآية وفي ما ثبتت به الأحاديث التي سقنا بعضها وسنسوق ما يتيسر منها .

عن أنس بن مالك أن هذه الآية {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ} نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة، قال علي ابن زيد ابن حذعان: سألتني علي ابن الحسين: ما يقول الحسن في قوله {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ} فذكرت له، فقال: لا، ولكن الله أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال: اتق الله وامسك عليك زوجك. فقال: قد أخبرتك أني مزوجكها .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لو كتم محمد شيء مما أوحى إليه من كتاب الله، لكتم قوله تعالى: **{وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ}**. وهذا يدل على الأمانة التي كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يؤدي ما وصل إليه من الوحي دون أن يتصرف فيه، حتى وإن كان في شخصه عليه الصلاة والسلام، ولو كان مخفي شيئا لأخفى هذه الآيات - كما قالت عائشة رضي الله عنها -.

{فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا} يقول ابن كثير رحمه الله: الوطر: هو الحاجة والأرب. أي لما فرغ منها وفارقها زوجها. وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله عز وجل، وهذه خصيصة لزينب رضي الله عنها.

وقد روى البخاري رحمه الله: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن زينب بنت جحش رضي الله عنها كانت تفخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فتقول: "زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات". وقد جاء تعليل ذلك في تمام الآية **{لَئِنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا}**، أي أن الابن الذي يكون بالإدعاء والتبعية لا يكون ابنا حقيقيا، ولهذا يجوز لمن تبناه أن يتزوج مطلقة، وهذا ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقطع شجرة هذا التبني بالكامل، وليبين أن هذا التبني لا أصل له، وأنه لا يؤثر في الأنساب، وأنه من العادات التي جاء الإسلام بالقضاء عليها.

ويبين هذا ابن كثير بوضوح فيقول: إنما أجبنا لك تزويجها وفعلنا ذلك؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قبل النبوة قد تبني زيد رضي الله عنه، فكان يقال له زيد ابن محمد، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله **{وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ}** زاد ذلك بيانا وتأكيدا بتزويج رسول صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش لما طلقها زيد ابن حارثة؛ ولهذا قال في آية التحريم **{وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ}**؛ ليحترز من الابن الدعي، فكان الأمر في أول الآية أمر لفظي ونص، وهنا جاء التطبيق في هذه الآيات من عند قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ}** إلى ما نحن بصدد.

يقول الله عز وجل: **{مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ}** أي في هذا العمل. يقول ابن كثير: أي في ما أحل له وأمره به من تزويج زينب التي طلقها دعيه زيد بن حارثة.

{سُتَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ} أي هذا حكم الله في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا رد علي من توهم من المنافقين نقصا في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذي كان قد تبناه.

{وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا} أي أمره الذي يقدره كائنا لا محالة، واقعا لا محيد عنه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

ثم يمدح النبي صلى الله عليه وسلم، وأن هذا لا ينقص من قدره، بل يرفع قدره وشأنه، وأن هذا العمل الذي عمله الرسول صلى الله عليه وسلم إنما كان توجيه من الله عز وجل، ولم يكون شهوة من تلقاء نفسه، ولكنه حكم الله وقضائه.

✖ فقال: **{الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ}**.

فما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم هو من تبليغ هذه الرسالة؛ لتبقى شاهداً على قطع شجرة التبني وما وراءه من تبعات جاء الإسلام بالقضاء عليها.

يقول ابن كثير: يمدح تعالى **{الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ}** أي إلى خلقه، ويؤدونها بأمانة، **{وَيَخْشَوْنَهُ}** أي يخافونه ولا يخافون أحد سواه، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله، وكفى بالله حسيبا.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقوله، فيقول الله: ما يمنعك أن تقول فيه؟ فيقول: رب، خشيت الناس. فيقول: فأنا أحق أن يخشى).**

ثم تتابع الآيات لتقرر هذا الأمر فقال: **{مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ}** أي إن قولكم زيد ابن محمد إنما هو قول لا أصل له ولا تقره شريعة الله عز وجل، فقال الإمام ابن كثير رحمه الله: نهى أن يقال بعد هذا "زيد ابن محمد". أي لم يكن أباه وإن كان قد تبناه، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يعيش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم، فإنه ولد له القاسم والطيب والطاهر وهم من خديجة رضي الله عنها فماتوا صغاراً، وولد له إبراهيم من مارية القبطية فمات أيضاً رضيعاً، كلهم ماتوا، ولهذا قال: **{مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ}** وهذه الآية نزلت بعد موت هؤلاء جميعاً.

{مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ} ولكنه كان أباً للبنات، والنساء ليس منهن أنبياء، فقال ابن كثير رحمه الله هنا مبيناً هذا الأمر: "وكان له من خديجة أربع بنات، زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة". الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن أباً أحد من رجالنا أي من الذكور، وإنما كان أباً للنساء، أما الذكور فقد ماتوا صغاراً، وبناته رضوان الله تعالى عليهن جميعاً كلهن توفين في حياته صلى الله عليه وسلم إلا فاطمة رضي الله عنها لحقت به بعد ستة أشهر.

قوله تعالى: **{وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}** كقوله: **{اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}** وهذه فضائل للنبي صلى الله عليه وسلم ذكر الإمام ابن كثير جملة منها، فنقتصر على قوله صلى الله عليه وسلم: **(فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرة بالعرب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون)**. وهذا من تفسير هذه الآية، ذكر ضمن عدة خصال للرسول صلى الله عليه وسلم، ومنها ما ذكره عن أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم، عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(إني لي أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي)**. أخرجه في الصحيحين.

إذاً يسمى النبي صلى الله عليه وسلم بالماحي؛ لأن الله يمحو به الكفر. ويسمى الحاشر؛ لأن الناس يحشرون على قدمه. ويسمى العاقب؛ لأنه ليس بعده نبي.

والمناسبة من ذكر هذا الحديث هو قوله: **(وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي)** لقوله تعالى: **{وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}**.

يقول الله عز وجل: **{وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً}**.

هذه خاتمة الآيات التي أردنا الحديث عنها.

✓ الهدايات:

١- **حكمة التشريع الإسلامي من خلال قصة زيد وزينب**، فعلق الله سبحانه وتعالى على هذه القصة وأمر بها لأجل أن يقرر شريعته، فمن حكمة الله سبحانه وتعالى أن يختار لشريعته في بعض الأمور التي لا يمكن أن تقتلع من النفوس إلا بأكبر قدوة وبالمثل الأعلى لهم، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، فكانت الحكمة أن قضي علي التبيني من خلال قصة النبي صلى الله عليه وسلم وواقعه مع زيد وزينب.

٢- **الأدب القرآني**، وهو أدب المؤمن والمؤمنة عند أوامر الله عز وجل **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}** وهو الاستجابة والإذعان لأمر الله عز وجل؛ لأن الخير هو ما يختاره الله عز وجل، وهو خير لهم مما يختارونه لأنفسهم. وثمة حكم أشرنا إليها في ثنايا الدرس.

الحلقة (٣٨)

موضوع الحلقة : تفسير الآيات ٥٠، ٥١، ٥٢ من سورة الأحزاب .

وهي كلها في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا تنسوا أن تكثروا من الصلاة والسلام عليه عند ذكره .

الآيات :

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠) تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمِنْ ابْتِغَاءِ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ عَنِهُنَّ وَلَا يُحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢) } .

كما لاحظتم أن هذه الآيات تختص بالنبي صلى الله عليه وسلم ، لكنها لا تخلو من الفوائد والحكم والعبر التي ينتفع منها في بيان معالم هذا الدين وشرائعه السمحة ، وشرف أمهات المؤمنين وما للنبي صلى الله عليه وسلم من الخصائص التي تدل على مكانته وعلى خصوصيته وعلى ماله من حق التبجيل والاحترام والتوقير له عليه الصلاة والسلام ، فإن تخصيصه بمثل هذه الأحكام يشير إلى عناية الله عز وجل به ، ومن طاعة الله عز وجل طاعة هذا الرسول صلى الله عليه وسلم وتعظيمه .

يقول تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم أنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن ، وهي الأجور ها هنا ، يفسر الإمام ابن كثير رحمه الله الأجور :

معنى الأجور : المهور ، وقوله تعالى : { وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ } أي أباح لك التسري مما أخذت من الغنائم ، ما ملكت يمينه من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم هي صفة وجورية اعتقهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزوجهما ، وكان قد سباهما ضمن السبي في بعض غزواته ، وأيضاً مارية القبطية أم إبراهيم عليه السلام رضي الله عنه وكانت من السراري أيضاً ، أهداها له المقوقس ، كان يتسرى بها عليه الصلاة والسلام ، فهذا مما أباح الله له عز وجل ، ومنه أيضاً بنات عمه ، وبنات عماته ، وبنات خاله ، وبنات خالاته .

يقول رحمه الله : " هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط ، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بعدم إفراط النصارى فأباح بنت العم والعمة وبنت الخال والخالة ، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت ، وهذا بشع فضيع ، وهذا يؤكد ما ذكرته لكم أن هذه الآيات وإن كانت في خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم لكنها تشير إلى حكمة الشريعة .

قوله تعالى : { اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ } : أي هجرة المدينة ، أي اللاتي هاجرن معك إلى المدينة .

وقوله عز وجل : { وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا } أي يحل لك أيها النبي المرأة المؤمنة إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك ، وهذا كما قلنا من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن المرأة إذا وهبت نفسها لإنسان ما فإنه لا يجوز ذلك - كما سيأتي بيان ذلك - ، بل لا بد من المهر ولا بد من العقد وشروط النكاح من الشهود وغير ذلك .

قوله تعالى : { وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا } للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهبت أكثر من امرأة للنبي صلى الله عليه وسلم نفسها ، فذكروا منهن "خولة بنت حكيم" وذكروا منهن "ميمونة بنت الحارث" وأم سليم" ويقال أنها هي خولة بنت حكيم .

الحاصل أن اللاتي وهبن أنفسهن للنبي صلى الله عليه وسلم كثير، ولم يكن عند الرسول صلى الله عليه وسلم امرأة وهبت نفسها له، أي الذي في عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم ومات الرسول صلى الله عليه وسلم عنهن من نسائه التسع لم يكن منهن واحدة قد وهبت نفسها، كلهن مما آتاهن أجورهن أو مما ملكت يمينه ثم أعتقهن وتزوجهن .

يقول يونس بن بكير: "لم يقبل واحدة مما وهبت نفسها له، وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به؛ لأنه مردود إلى مشيئته".

{إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا} أي إن اختار ذلك . لكن الواقع أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يختار ذلك .

{خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} وهذا كما قلت لكم خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم .

يقول عكرمة: أي لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيء، فلا بد من المهر ولو كان يسيراً.

ولهذا **يقول الإمام قتادة:** ليس لامرأة أن تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي صلى الله عليه وسلم .

إذا لو جاءت امرأة تهب نفسها لرجل:

أولاً: هذا الأمر لا يمكن.

ثانياً: تطبق عليه شروط النكاح، إذا وقع فلا بد من الولي ولا بد من المهر ولا بد من الشهود ومن ثم إعلان النكاح .

يقول الله عز وجل: {قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ} أي من حصرهن في أربع نسوة حرائر، وهذا طبعاً في سورة النساء

مثنى وثلاث ورباع؛ أما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد شرع له هذا الأمر لحكمة أرادها الله عز وجل، قد يكون منها أن

هؤلاء النسوة هن اللاتي سينقلن ما يدور في بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد يكون لذلك أمور تقتضيها إدارة الدولة أو

ما يكون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخلافة، لحكم الله أعلم بها ولكن هذا حظنا فيه؛ الإيمان والتسليم،

وأن الله تعالى قد شرع لنبيه صلى الله عليه وسلم وخصه بخصائص تشريفاً ومكانة وقدراً له عليه الصلاة والسلام، وأنه ليس

لأحد بعد هذا أن يأخذ أكثر من أربع نساء، فهن اللاتي يخللن للرجل الواحد، وقد كان قبل الإسلام يجوز للرجل أن يتزوج

أكثر من أربع نساء؛ فحفاظاً على حقوق المرأة جعل لها ثلاث ضرائر فقط لا يزداد عليها، في هذا يقول الله عز وجل: **{تُرْجِي مَنْ**

تَنَاءَ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَنَاءَ} .

على ما يعود الضمير هل يعود على الواهبات أم على الأزواج؟ قولان:

الأول: منهم من يرى أنه يعود على الواهبات .

الثاني: ومنهم من يرى أنه يعود إلى الأزواج .

الذي اختاره ابن جرير الطبري أنه يعود إليهن جميعاً، إلى الواهبات، وإلى الأزواج .

وفي هذا **يقول الإمام ابن كثير** رحمه الله: ومن هنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده، أنه مخير

فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم، وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي -يعني في القسمة-، فيما يتعلق بالمبيت .

وقال آخرون: "لا حرج عليك أن تترك القسم لهن، فتترك من شئت وتؤخر من شئت، وتجماع من شئت وتترك من شئت". سواء

أكان في المبيت أم في الجماع، فقد رخص لرسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر على أنه عليه الصلاة والسلام هو أكمل

الناس وأعدلهم وأحسنهم خلقاً في تعامله مع أزواجه، لكن الله قد رخص له في هذا الأمر وأذن له فيه .

يقول الله عز وجل: {ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَأَ عَنِّيهِمْ وَلَا يَجْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ} .

يقول الإمام ابن كثير: "أي إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم فإن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم، لا جناح

عليك أي ذلك فعلت، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختياراً منك لا أنه على سبيل الوجوب، فرحن بذلك واستبشرن به وحملن

جميلك في ذلك واعترف بمنتك عليهن في قسمك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن .

فالرسول صلى الله عليه وسلم مع أنه رُخص له في هذا لكنه كان يأخذ بأكمل الأشياء ، وهذه هي عادة الأنبياء . ولهذا لما سئل ابن عباس عن موسى في أي الأجلين هل أخذ بالثمان سنين أم في العشر؟ قال: أخذ بأكملهما وأتمهما ، وأنه مكث عشر سنين في العمل لشعيب عليهما السلام جميعا .

قال الله عز وجل: **{وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ}** أي من الميل إلى بعضهن البعض مما لا يمكن دفعه .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : "كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: (اللَّهُمَّ هذا فعلي في ما أملك فلا تلمني في ما تملك ولا أملك) .

{وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا} أي عليماً بضمائر السرائر، حليماً يحلم ويغفر.

❖ **يقول الله عز وجل : {لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا} .**

✓ **سبب نزول الآية :**

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله : ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد وابن قتادة وزيد: أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ورضا عنهن على حسن صنيعهن باختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة .

فقوله تعالى : **{لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ}** هذا فيه كرامة لمن كن في عصمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يزيد عليهن ولا يضارهن ولا يكن لهن ضائر فوق ذلك .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : "ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له النساء " .

وعن أم سلمة رضي الله عنها : "لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء، إلا ذات محرم وذلك قول الله عز وجل : **{تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ}** .

فكان هذه الآية منسوخة بالآية التي قبلها بعد قوله تعالى : **{تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتْ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ}** .

ولهذا يقول الإمام ابن كثير رحمه الله: "فجعلت هذه الآية **{تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ}** ناسخة للتي بعدها في التلاوة، كآتي عدة الوفاة في البقرة، الأولى ناسخة للتي بعدها". وهذا على غير العادة، العادة أن الآية المنسوخة تكون هي الأولى والناسخة تكون هي الثانية ؛ بينما هنا في هذا الموضع جاءت هذه الآية الثانية هي المنسوخة، والناسخة **{تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ}** وهي الآية التي قبلها.

{لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ} ما المقصود بالنساء في هذه الآيات هل هن نساء معينات أم أنه أصناف النساء عموماً ؟

في ذلك قولان :

القول الأول : النساء عموماً . وهنا يقول ابن كثير : "أي من بعد ما ذكرنا لك من صفات النساء اللاتي أحللنا لك من نسائك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك وبنات العم وبنات العمت والواهبة ؛ وما سوى ذلك من أصناف النساء، فلا يحل لك". وهذا مروي عن أبي ابن كعب .

يقول الصحابي الحليل ابن عباس رضي الله عنهم : نُهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات، لقوله تعالى: **{لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ}** ، ويظهر أيضاً أن الأمر هنا عام كما قلنا في الواهبات والأزواج .

واختار ابن جرير: أن الآية تشمل الواهبات والأزواج في الآية السابقة عند قوله تعالى: **{تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ}** وهذه الآية أيضاً

{ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ } يشمل النساء المذكورات في الآية الأولى رقم خمسين ويشمل سائر أصناف النساء .

ولهذا يقول الإمام ابن كثير رحمه الله : واختار ابن جرير أن الآية عامة في ما ذكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن "تسع"، وهذا الذي قاله جيد". يعني على العموم، أنه يشمل في قوله تعالى: { لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ } عام في ما كان في عصمته أو في سائر النساء عمومًا؛ لأنه ليس هنالك دليل يدل على تحديد هذه الآية اللهم إلا في السياق، السياق ممكن أن يكون الآية الأولى حدد نساء معينات، فقوله تعالى { لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ } أي مما سبق ذكره في الآية السابقة؛ بينما إذا قلنا بالإطلاق فإنه تكون النساء هنا ليست خاصة بالنساء السابقات، ولا تكون اللام في "النساء" للعهد، يعني المذكورات، لكن هنا تكون عامة .

قوله عز وجل : { وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ } نهاء عن الزيادة عليهن أو طلاق واحدة منهن واستبدال واحدة منهن إلا ما ملكت يمينه، هذا كله من خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم.

✓ الهدايات :

١- عدل الإسلام في التشريع، وحكمته البالغة حينما خص الرسول صلى الله عليه وسلم بخصائص معينة، وكان هذا لحكمة أرادها الله عز وجل.

٢- شرف أمهات المؤمنين ومكانتهن عند الله عز وجل وعظم قدرهن، فإنه قد كرمهن الله عز وجل، كما في قوله تعالى: { لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ } وقد سبق في أول السورة أنهن أمهات المؤمنين.

الحلقة (٣٩)

موضوع الحلقة : تفسير الآيات ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ من سورة الأحزاب .

✚ الآيات :

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِنْ تُبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا } .

هذه الآية وهي { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ } هي الآية الشهيرة بآية الحجاب، وهذه الآية الكريمة مما وافق تنزيلها قول عمر الفاروق رضي الله عنه، فقد ثبت في الصحيحين عنه أنه قال : (وافقت ربي في ثلاث، فقلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلًى، فأنزل الله { وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًى } ، وقلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو احتجبن فأنزل الله تعالى آية الحجاب ، وقلت لأزواج النبي لما تمالأن عليه في الغيرة: { عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ } فنزلت كذلك) . وهذه الواقعة كانت في صبيحة عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم لزينب بنت جحش رضي الله عنها وأرضاها ، وهي التي سبق الحديث عنها في ما مضى من الآيات، وهي التي تولى الله عز وجل تزويجها بنفسه ، وكان ذلك في ذي القعدة في السنة "الخامسة" من الهجرة النبوية .

ويروي الإمام البخاري هذه الحادثة فيقول رحمه الله: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: " لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام؛ فلما قام .. قام من قام -أي فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قام من قام ممن كان في ذلك المجلس- ، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت -الكلام عن أنس رضي الله عنه- فجئت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا ، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقي الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله عز وجل {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ}.

وقوله عز وجل : { لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ } يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في معنى هذه الآية: حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير إذنٍ كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوت الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله عز وجل على هذه الأمة فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى لهذه الأمة، وتذكرون أننا تحدثنا عن حضارة الإسلام الراقية في سورة النور عند قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا} وأنه كان من عادات الجاهلية أنهم لم يكونوا يعرفوا الاستئذان، فجاء الإسلام وبين لهم هذا الأدب بأكمل معانيه وبأجمل دلالته . فهذه الآية هي من هذا القبيل لكنها تختص ببيت النبوة .

وقوله عز وجل : { غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَاءً } بعض الناس يظن أن معناه وهو النظر إلى الإناء الذي يطبخ، وليس هذا هو المعنى ؛ وإنما المعنى { غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَاءً } أي غير متحينين نضجه واستوائه، أي غير منتظرين .

■ ناظرين : أي منتظرين

■ إناء : أي نضجه

لهذا قال مجاهد ، وقتادة : أي متحينين نضجه واستواءه . يقول الإمام ابن كثير : وهذا دليل على تحريم التطفيل، وهذا الذي يسميه العرب "الضيفن" وهو أن يأتي ضيوف لم يُدْعَوْ أصلاً، فيكون رب البيت قد دعا أشخاصاً معينين وأعداداً معينة وأعد لهم ما يناسب أعدادهم . فقوله تعالى : { غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَاءً } فيه نهى أو فيه دلالة على أنه ينبغي أن لا يؤتى إلا من يُدعى إلى هذه الوليمة ؛ ولهذا يذكرون أن هذه الآية أثقل آية على الثقلاء ، وأن الله تعالى قد ذم الثقلاء في مضمون هذه الآية الكريمة، سواء أكانوا بدون دعوة أو كانوا بعد دعوة وأطالوا البقاء في مجلس رب المنزل .

قوله عز وجل : {وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا} في صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرساً كان أو غيره). وقال عليه الصلاة والسلام : (لو دعيت إلى ذراع لأجبت ، ولو أهدى إلي كراع لقبلت). وهذا فيه أدب النبوة وهو أدب "التواضع" ، وأن المؤمن يجب عليه أن يلبي دعوة أخيه لأنه مؤمن لهذا الغرض ، لا أن تكون تلبية الدعوة لأجل مصالح دنيوية أو نحوها ، ولهذا الرسول صلى الله عليه وسلم مع مكانته الكريمة الشريفة ضرب لنا أروع الأمثلة في هذا الحديث يبين أنه لو دعي مع ما له من المكانة ولو إلى شيء يسير لأجاب ؛ تطيباً لخاطر أخيه .

قوله تعالى : {فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا} قال: فإذا فرغتم من الذي دعيتم إليه فخففوا على أهل المنزل وانتشروا في الأرض ، ولهذا قال تعالى : {وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ} يعني ينبغي أنه إذا فرغ الإنسان من الطعام ، قدمت الوليمة وانتهى من وجبة الطعام فإنه ينبغي أن ينتشروا الناس لأجل أن يتفرغ رب المنزل لترتيب بيته ، وأن يتفرغ لأهله ؛ لأنه سيكون في هذا الوقت إن لم يخرج هؤلاء الضيوف سيكون مشغولاً معهم، فليس هذا من شرط الضيافة .

شرط الضيافة : هي إلى أن يفرغوا من الطعام ، فإذا فرغوا فإنه ينبغي أن يخرجوا لأجل أن ينظروا إلى مصالحهم، وأيضاً ينظر صاحب البيت أيضاً إلى مصلحته ، وهذا فيه أدب أيضاً ، أدب "احترام الوقت"، "ومراعاة المصالح" فلا ينبغي أيضاً أن تهدر الأوقات ولا الساعات الطوال في المناسبات .

قال الله عز وجل : **{إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ}** وهذا أيضاً فيه إشارة إلى أدب الحياء الذي كان يتمتع به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن ليترد ضيوفه ، أو ليلمح لهم بأن يخرجوا ، لكن انتصر له الله عز وجل ، وأنزل كرامة له هذه الآية الكريمة .

يقول المؤلف : فقول: المراد إن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى ، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه عليه الصلاة والسلام، حتى أنزل الله عليه النهي في ذلك، ولهذا قال تعالى: **{وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ}** أي: ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه ، كأن الآية تناولت معنيين :

الأول : عدم الدخول إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم دون إذن .

والثاني : عدم البقاء بعد تناول الطعام .

يقول الله عز وجل: **{وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ}** : أي كما نهيتكم عن الدخول عليهن كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية ، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن ، فلا ينظر إليهن ولا يسألن حاجة إلا من وراء حجاب ، ولهذا قلنا إن هذه الآية هي آية الحجاب ، وسميت بهذه التسمية من هذا التعبير القرآني **{مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ}** ، يقول الله عز وجل: **{ذَلِكَ أَظْهَرَ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ}** أي هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أظهر وأطيب ، وهذا مثل قوله تعالى : **{وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارجِعُوا فَأَرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}** .

فتشريعات الله عز وجل هي الأطيب للنفوس ، وإن كان في ظاهر الأمر أنها قد تكون فيها مشقة على أحد الطرفين ، لكنه عند التأمل وعند النظر إلى مقاصد الشريعة وأسرار التنزيل فإنه يتجلى هذا الطهر وهذا الزكاء وهذا النماء الذي أشار الله إليه في هذه الآية وأمثالها .

✓ **سبب نزول قوله تعالى : {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ.....} الخ الآية .**

يروى المؤلف رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : **{وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا}** نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم . قال رجل لسفيان : أهي عائشة ؟ قال: قد ذكروا ذلك .

فقوله تعالى: **{وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا}** فيه نهى أن تتعرض إحدى أمهات المؤمنين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر ؛ لأن فيه إيذاء ، ثم إنهن أمهات المؤمنين فلا يجوز للرجل أن ينكح أمه ، أمهات المؤمنين لهن من المكانة ولهن من الشرف ولهن من الحرمة ؛ ما يزع عن أن يفكر أحد أو يهم أو يطلب الزواج منهن .

يقول المؤلف : ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أزواجه ، أنه يحرم على غيره تزويجها من بعده ؛ لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة ، وأمهات المؤمنين .

وقد عظم تبارك وتعالى ذلك وشدد وتوعد عليه ، بقوله تعالى **{إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا}** .

✖ **ثم قال عز وجل : {إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} .**

أي مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم فإن الله يعلمه ، فإنه لا تخفى عليه خافية ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي

✳ **قوله عز وجل : { لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ ... } الآية .**

يقول المؤلف رحمه الله : لما أمر تعالى النساء بالحجاب من الأجانب ، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم ، كما استثناهم في سورة النور . أي لما كانت الآية الأولى أو الآيات الأولى تتحدث عن أمر الحجاب ؛ فقد يتبادر للذهن أن الحجاب يشمل كل ما كان غير النبي صلى الله عليه وسلم ، فأراد الله عز وجل أن يبين أن هنالك من ليس عليهم الاحتجاب وهو ما بينه عز وجل في هذه الآية الكريمة ، وهي مثل سورة النور عند قوله تعالى : { وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ .. الآية } ، ولكن هذا كما قلنا في سياق الحديث عن أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ؛ فمن أمهات المؤمنين من لها أب أو ابن مثل عائشة لها أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فإنها أم المؤمنين رضي الله عنها لا تحتجب عن أبيها رضي الله عنه ، وكذلك أم سلمة لا تحتجب عن ابنها عمرو رضي الله عنه ، وهكذا في سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم .

هذه الآية شبيهة بآية النور ، لكن سورة النور أطول من هذه الآية وفيها بعض الزيادات ، وقد سبق الحديث عنها ،

وقد سئل بعض السلف لِمَ لَمْ يذكر العم والخال في هاتين الآيتين ؟

أجاب عكرمة والشعبي : بأنهما لم يذكرنا لأنهما قد يصفان ذلك لبيهما ؛ بمعنى قد ذكر العم والخال عند مثلاً قوله تعالى في آخر سورة النور { أَوْ يُبَيِّنَ أَعْمَامُكُمْ } { أَوْ يُبَيِّنَ أَعْمَامُكُمْ } ، لكن لم يذكر في آيات الحجاب ؛ لأنه قد يصف ذلك لأبنائه . يقول الإمام ابن كثير رحمه الله فيما يرويه عن ابن جرير عن عكرمة : { لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ } قلت : ما شأن العم والخال لم يذكر ؟ قال : هما ينعثانها لأبنائهما ، وكره أن تضع خمارها عند خالها وعمها . وأما معنى قوله عز وجل : { وَلَا نِسَائِهِنَّ } يعني بذلك عدم الاحتجاب من نساء المؤمنات .

✓ **الهدايات :**

١- كرامة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكرامة الله عز وجل لهذه الأمة كما سبق عند الحديث عن موضوع الحجاب .

٢- حياء النبي صلى الله عليه وسلم .

٣- مكانة أمهات المؤمنين .

٤- سعة علم الله عز وجل وإطلاعه على السرائر ، عند قوله تعالى : { إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خُفُّوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا }

الحلقة (٤٠)

موضوع الحلقة : تفسير الآيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ من سورة الأحزاب

هذه الحلقة تتحدث عن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وما يتصل بذلك .

✳ **الآيات :**

قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩) لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدًا وَقَتَّلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سَنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢) } .

يستحب عند سماع الأمر الرباني : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} أن يصلي القارئ والمستمع لهذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم، يقول صلى الله عليه وسلم حتى لو كان في الصلاة لكن على وجه الإسرار، لأجل أن لا يختلط بالقرآن الكريم .

وصلاة الله على النبي صلى الله عليه وسلم هي ثناءه عليه عند الملائكة في العوالم العلوية، وصلاة الملائكة هي أيضًا في العوالم العلوية وتكون بالدعاء للنبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا ذكر المؤلف عن أبي العالمة قال: صلاة الله ثناءه عليه عند الملائكة وصلاة الملائكة الدعاء .

قال ابن عباس : يصلون أي يبركون.

وروي عن سفبان الثوري وغير واحد من أهل العلم: صلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار.

وروي صلواته تبارك وتعالى سبوح قدوس سبقت رحمتي غضبي.

يقول المؤلف : والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه ، ثم أمر سبحانه وتعالى أهل العوالم السفلي بالصلاة والسلام عليه من سمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعا .

وهذا كأن فيه حفز وتشجيع وإلهاب لحماس أهل الأرض من المؤمنين أن يصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم، فيخبر الحق تبارك وتعالى أن أهل العوالم العلوية من الملائكة المقربين يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ويجأرون بالصلاة والسلام عليه ، وهكذا يخبر الله عز وجل عن نفسه سبحانه وتعالى وتقدس اسمه وتعالى وجل وتقدس أنه أيضًا هو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا يغري المؤمنين لأن يتجاوبوا مع هذه النداءات العلوية، وأن يستجيبوا لتوجيه الرب عز وجل للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا يستحب الإكثار من الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويصور المرء وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم أنه وهو في هذه الحالة ينصت إلى صلاة الله عز وجل وإلى صلاة الملائكة وهم يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم، فلا شك أن هذا من أشد ما يغري الذاكر على الإكثار من الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يقول المؤلف رحمه الله : لقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه يصلي على عباده المؤمنين في قوله : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ} .

وقال تعالى : {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)} .

أي كأن فيه صلوات أخرى وثناء من الله عز وجل للذاكرين الله كثيرا ولنوع من الذاكرين وهم الذين يذكرون الله كثيرا، وإذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . ففيه إخبار من الله أن هناك صلوات أخرى، ونلاحظ أن هذه الصلوات تكون في الذاكرين الله عز وجل وفي العابدين، وفي الحديث (إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف) فكأنما هناك صلوات أخرى لكن أشرف هذه الصلوات هي الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا يذكر الإمام البخاري عن كعب بن عجرة : قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفنا، فكيف الصلاة ؟ قال: (قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد) . هذه كيفية الصلاة الإبراهيمية على النبي صلى الله عليه وسلم وهي صلاة مشهورة .

نقل المؤلف عدة روايات كثيرة جدًا في عدة صفحات في صورة هذه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وكيفيةها، ومن هنا

ذهب الشافعي إلى أن المصلي يجب أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم في التشهد الأخير، فإن تركه لم تصح صلاته، وهذا المذهب الذي عليه عمل كثير من الناس، فالتناس إذا صلوا يتشهدون في آخر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، **لكن هل هذا على وجه الإجماع أو على غيره؟**

الإمام الشافعي رحمه الله يرى أن هذا على وجه الوجوب، ولهذا يقول المؤلف: بوجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم سلفاً وخلفاً كما تقدم فلا إجماع على خلافه؛ لأن بعض الناس شن على الشافعي وقال الإجماع خلاف الوجوب، أي أنها على وجه الاستحباب فقط، لكن الحقيقة كما حرره المؤلف أن الوجوب قال به جمع من العلماء أيضاً غير الشافعي. فالمسألة مختلف فيها، ما ذهب إليه الشافعي هو على وجه الوجوب، وغيره على وجه الاستحباب، فكأن الصلاة تبطل عند الإمام الشافعي إذا لم يقل الصلاة التي ذكرناها على النبي صلى الله عليه وسلم في آخر التشهد الأخير.

نتقل إلى الآية التالية وهي قوله {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧)} يتوعد الله من آذاه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك وأذى رسول الله بعبث أو تنقص عياداً بالله من ذلك. فهو سبحانه أولاً بين ما ينبغي على المؤمن وما ينبغي للنبي صلى الله عليه وسلم من الحقوق، ثم حذر من قصر أو نقص في هذه الحقوق، وتوعد بمن أتى بما يخالفها.

✓ **في من نزلت هذه الآية:**

يقول عكرمة: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} هم المصورون، نزلت في المصورين، ويذكر المؤلف حديث عن أبي هريرة يقول: (يقول الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر أقلب ليله ونهاره).

وعن ابن عباس: أنها نزلت في الذين طعنوا في تزويج صفية بنت حيي بن أخطب.

فقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} هل هو خاص بأحد هذه الأسباب أو أنه أعم؟

الذي رجحه المؤلف أو استظهره هو قوله رحمه الله: **الظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء**، من آذاه فقد آذى الله، أي أن أي أذية لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أي وجه من الوجوه هي إيذاء لله عز وجل، فيشمل هذا المصورين، ويشمل هذا الذي يسب الدهر، ويشمل هذا من يطعنون في زيجات النبي صلى الله عليه وسلم، ونحن نتحدث عن هذه الآية في هذه الأعصار التي تجرأ فيها بعض السفهاء ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس لهم به حق وما ليس فيه حاشاء عن ذلك، وحاولوا تشويه صورته عليه الصلاة والسلام، والحقيقة لم يزد هذا إلا محبة وقرب النبي صلى الله عليه وسلم عند المؤمنين، وهذه الآية تتناول هؤلاء وأمثالهم في كل عصر ومكان، فمن آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أي وجه من الوجوه فإن الله قد توعد بهذا العذاب وبهذه اللعنة وبطرده من رحمته عز وجل.

❖ **قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨)}.**

أي ينسبون إليهم ما هم براء منه لم يعملوه ولم يفعلوه.

{فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا} هو البهت الذي ينقل أو يحكى عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتنقص.

هو سبحانه بين حقه عز وجل، ثم حق رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم بعد ذلك بين حق المؤمنين؛ لأنهم هم الذين اتبعوا أمر الله عز وجل وصدقوا برسوله صلى الله عليه وسلم فلم من الحق أن تحفظ لهم مكانتهم وأن لا يبالغهم أي شيء بسبب إتباعهم لدين الله عز وجل.

يقول المؤلف: ومن أكثر ما يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله عز وجل ورسوله، ثم الرافضة الذين ينتقصون الصحابة ويعبونهم بما قد برأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم، فإن الله قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار

ومدحهم، وأيضاً يدخل في هذا دخولاً أساسياً المنافقون وإن لم يذكرهم المؤلف، وسببين الله هذا في الآية: **{لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}**.

وهنا يفرق المؤلف بين البهتان والغيبة، ويذكر في هذا حديث أبو هريرة رضي الله عنه: (قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْغَيْبَةُ؟ قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ، قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبَتْهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَهُ) هذا مناسبتة قول الله عز وجل: **{فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا}** أي أن البهتان أعظم جرماً من الغيبة، فالغيبة هي بجد ذاتها جرم، لكن أشد وأنكى منها أن يُذكر الإنسان بما ليس فيه أصلاً، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: (أي الربا عند الله أربي؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أربي الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم. ثم قرأ: **{وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا}**).

❖ **يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَنْسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩)}**.

يقول الله تعالى أمراً رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأمر نساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدنين عليهن من جلابيبهن؛ لتمييزهن عن سمات نساء الجاهلية أو سمات الإماء.

■ والجلباب: هو الرداء فوق الخمار.

بمعنى أن هناك أمر كان خاص بسائر المؤمنات في سورة النور، ثم جاء أمر خاص بالجلباب بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم، ثم جاء التأكيد على هذا الأمر ليشمل نساء المؤمنات وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته رضوان الله تعالى عليهم، وهذا ما نجده في الآية **{قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ}** هذا خاص ببيت النبي **{وَأَنْسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ}** عام بالجميع.

الجلباب هو الرداء فوق الخمار، الخمار ما يغطي شعر الرأس ويمتد إلى تغطية العنق كما سبق أن بينا ذلك في ما مضى من دروس. لكن هذا الجلباب هو قدر زائد على الخمار، هو فوق الخمار، قال علي: قال ابن عباس: أمر الله النساء إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب. أي أن الجلباب فوق الخمار ثم يتدلى إلى أن يغطي الوجه، وهذا على ما ذهب إليه بعض العلماء، والبعض الآخر يقتصر على تغطية الرأس دون تغطية الوجه، المهم أن لا تبدو الزينة وأن لا تظهر وأن لا يكون هناك تبرج.

عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية **{يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ}** خرجن نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسها. وهذا خاص بلباس الأنصار، ولا يشترط في اللباس أن يكون أسود أو أي لون آخر، لكن لا يكون فيه مفاتن تلفت الانتباه وتغري من في قلبه مرض.

{ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ} أي إذا فعلن ذلك عرفن أنهم حرائر لسن بإماء ولا عواهر.

❖ **ثم قال تعالى: {لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}**.

➤ **يذهب الإمام عكرمة:** أن الذين في قلوبهم مرض هم الزناة.

➤ **ويذهب آخرون:** أنهم المنافقون.

وإنما فرق الإمام عكرمة بين هذا وذاك لأنه ورد المنافقون والذين في قلوبهم مرض، ومناسبة ذكر الزنا هنا لأنه متعلق بالجلباب، لأن الزنا يبدأ بالرؤية ثم يمتد بعد ذلك إلى أن يصل إلى الفاحشة الكبرى.

{لَنُعْرِيتَنَّ بِهِمْ} يقول الإمام علي بن طلحة عن ابن عباس: أي لنسلطنك عليهم أو لنحرشك بهم. وقتادة يذكر أن معناها: لنحرشك. والسدي: أي لنعلمنك. والمعنى متقارب.

- ❖ **وقوله تعالى: {مَلْعُونَيْنِ} حال . {مَلْعُونَيْنِ أَيْنَمَا تُقِفُوا} أي حالة أخذهم ، أي حيثما وجدوا أخذوا لذلتهم وقلتهم**
- ❖ **ثم قال تعالى: {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ} .**

أي هذه سنته في المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه .

{وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} أي وسنة الله في ذلك لا تتبدل ولا تتغير .

وبهذا نودعكم في تفسير ما تيسر من الآيات في ضوء تفسير الإمام ابن كثير، ونحثكم على حفظ الآيات المفسرة لأنها تعينكم وتقتصر عليكم مسافات في فهم الآيات .

وبهذا نكون قد اعتمدنا بعد الله عز وجل في تفسير الدروس العشرين الأولى على تفسير الإمام القرطبي، والعشرون الدرس المتبقية كانت في ضوء تفسير ابن كثير، إضافة إلى تفسير غريب القرآن لابن قتيبة في الأربعين درسا .
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فهرس الموضوعات :

- الحلقة (١) : تفسير الآيتين ٧٨ - ٧٩ من سورة الأنبياء .
- الحلقة (٢) : تفسير الآيتين ٢٥ - ٢٦ من سورة الحج .
- الحلقة (٣) : تفسير الآيتين ٢٧ - ٢٨ من سورة الحج .
- الحلقة (٤) : تفسير الآيات من ٢٩ - ٣١ من سورة الحج .
- الحلقة (٥) : تفسير الآيتين ٣٢ - ٣٣ من سورة الحج .
- الحلقة (٦) : تفسير الآيتين ٣٤ - ٣٥ من سورة الحج .
- الحلقة (٧) : تفسير الآيتين ٣٦ - ٣٧ من سورة الحج .
- الحلقة (٨) : تفسير الآيتين ٣٨ - ٣٩ من سورة الحج .
- الحلقة (٩) : تفسير الآية (٤٠) من سورة الحج .
- الحلقة (١٠) : تفسير الآيات ٥٢ - ٥٤ من سورة الحج .
- الحلقة (١١) : تفسير الآية (٦٠) من سورة الحج .
- الحلقة (١٢) : تفسير الآيتين ٧٧ - ٧٨ من سورة الحج .
- الحلقة (١٣) : تفسير الآيات من ١١ - ١٣ من سورة النور .
- الحلقة (١٤) : تفسير الآيات من ١٤ - ١٦ من سورة النور .
- الحلقة (١٥) : تفسير الآيات من ١٧ - ٢٠ من سورة النور .
- الحلقة (١٦) : تفسير الآيتين ٢١ - ٢٢ من سورة النور .
- الحلقة (١٧) : تفسير الآيات من ٢٣ - ٢٦ من سورة النور .
- الحلقة (١٨) : تفسير الآيتين ٢٧ - ٢٨ من سورة النور .
- الحلقة (١٩) : تفسير الآيات من ٢٩ - ٣١ من سورة النور .
- الحلقة (٢٠) : تفسير الآيات من ٣٢ - ٣٤ من سورة النور .
- الحلقة (٢١) : تفسير الآية (٣٥) من سورة النور .
- الحلقة (٢٢) : تفسير الآيات ٣٦ - ٣٨ من سورة النور .
- الحلقة (٢٣) : تفسير الآيات من ٣٩ - ٤٢ من سورة النور .
- الحلقة (٢٤) : تفسير الآيات من ٤٣ - ٤٦ من سورة النور .
- الحلقة (٢٥) : تفسير الآيات ٤٧ - ٥٢ من سورة النور .
- الحلقة (٢٦) : تفسير الآيتين ٥٣ - ٥٤ من سورة النور .
- الحلقة (٢٧) : تفسير الآيات من ٥٥ - ٥٧ من سورة النور .
- الحلقة (٢٨) : تفسير الآيات من ٥٨ - ٦٠ من سورة النور .
- الحلقة (٢٩) : تفسير الآية (٦١) من سورة النور .
- الحلقة (٣٠) : تفسير الآيات من ٦٢ - ٦٤ من سورة النور .
- الحلقة (٣١) : تفسير الآيات من ٣٨ - ٤٠ من سورة الروم .
- الحلقة (٣٢) : تفسير الآيتين ٤ - ٥ من سورة الأحزاب .
- الحلقة (٣٣) : تفسير الآية (٦) من سورة الأحزاب .
- الحلقة (٣٤) : تفسير الآيات من ٢٨ - ٣٠ من سورة الأحزاب .
- الحلقة (٣٥) : تفسير الآيات من ٣٢ - ٣٤ من سورة الأحزاب .
- الحلقة (٣٦) : تفسير الآية (٣٥) من سورة الأحزاب .
- الحلقة (٣٧) : تفسير الآيات من ٣٦ - ٤٠ من سورة الأحزاب .
- الحلقة (٣٨) : تفسير الآيات من ٥٠ - ٥٢ من سورة الأحزاب .
- الحلقة (٣٩) : تفسير الآيات من ٥٣ - ٥٥ من سورة الأحزاب .
- الحلقة (٤٠) : تفسير الآيات من ٥٦ - ٦٢ من سورة الأحزاب .